

البنو مقربون إلى العيون

شاعر الخليل العربي في العصور الإسلامية
حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز النجدي

جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ابن مرقس في العيون

شاعر الخليفة العزى في العصور الإسلامية
حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز المظاي

جامعة قطر

شبكة كتب الشيعة



الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

بسم الرحمن الرحيم

المقدمة

ابن مقرب العيونى هو أحد شعراء الخليج العربى القدامى الذين لم ينالوا ما هم جديرون به من العناية الكبيرة والدرسى المستفيض ، رغم ما تحلى به هذا الشاعر من موهبة شعرية متعددة الجوانب ، وبراعة واقتدار كبيرين رفعاها الى مصاف كبار الشعراء .

ولعل للباحثين والدارسين — سواء من هذه المنطقة أو غيرها — عذرا فيما يبدو من قلة الجهد المبذول وضآلة العناية الموجهة لابن مقرب وأمثاله من شعراء المنطقة القدماء . ومرد ذلك العذر الى قلة ما اشتملت عليه المصادر والمراجع من أخبار تكشف لنا عن كل ما يتعلق بحياة هؤلاء الشعراء ، وقد يكون سبب ذلك فيما يتصل بابن مقرب هو العزلة التى كان يعيش فيها اقليم البحرين ووطن الشاعر فى القرن السابع الهجرى بسبب بعده عن بغداد مركز الخلافة فى ذلك الوقت ، مما حدا بالمؤرخين الى الانصراف عنه الى حواضر الخلافة ، يسجلون فيها كل خطوة لشاعر أو لفظة لأديب .

ورغم هذه الصعوبة فقد استعنت بالله ، وشحذت القلم لأكتب هذا البحث عن ابن مقرب ومما دفعنى الى ذلك عدة أمور :

أولا : كون ابن مقرب يمثل — ظاهرة متفردة فى عصره — اذ أنه عاش فى القرن السابع الهجرى ، وهو زمن كانت فيه الجزيرة

العربية في منتهى العمق الفكرى والتخبط فى دياجير الظلم والجهل ، كما كان الشعر يغلب عليه المحسنات اللفظية والزخارف البلاغية دون الاهتمام بالمضمون ، فجاء ابن المقرب ليحدد هذا الشعر ، ويعيد له صولجانه القديم ، فكان بحق ظاهرة متفردة فى عصره تستأهل العناية والاهتمام .

ثانيا : بيان منزلة ابن مقرب الشعرية ولفت الأنظار اليه ، والى ما تحلى به من موهبة شعرية ، وما دبحه من قصائد رصينة أعادت الى شرق الجزيرة العربية اعتبارها ومكانتها وأمجادها الشعرية الثليدة ، ولعل ذلك يعوض بعض ما أصاب هذا الشاعر من ظلم واجحاف نتيجة اهمال الدارسين .

ثالثا : أن الواجب يتطلب منا نحن أبناء المنطقة أن نسمى بكل جهد الى ابراز تراثها وتعريف العالم من حولنا بأدبائها خصوصا وأن منطقتنا تشهد نهضة علمية وحضارية تحتم على كل واحد منا ألا ييخل عليها بأى عطاء .

وقد اقتضانى هذا البحث أن أقسمه الى ستة فصول :

فى الفصل الأول درست عصر الشاعر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية وذلك بشكل موجز .

وفى الفصل الثانى درست حياة الشاعر نفسه وبينت طبيعته علاقته بأسرته ومجتمعه ، وتحدثت عن رحلاته واتصالاته بأمرء ورجالات وعلماء عصره ، وألقيت الضوء على حقيقة الخلاف حول معتقده ، ثم أفردت جزءا من الفصل للحديث عن تاريخ وطنه وأهم رجالاته وحكامه .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن ديوانه ، وأوردت نسخه المخطوطة ، والمطبوعة حسب ترتيبها الزمنى .

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن أهم الأغراض التى قسالت فيها شعرا ، وتناولت ذلك بالتحليل والدراسة الفنية •

وفى الفصل الخامس درست خصائص شعر ابن مقرب ، وبينت أهم ما تميز به هذا الشعر من سمات وخصائص فنية ، ثم عرضت لآراء النقاد والأدباء فى شعره •

أما الفصل السادس فقد قارنت فيه بين شاعرنا وبين شاعر العربية الكبير المتنبى ، نظرا لما بين شعر الرجلين من تشابه وتقارب ملحوظين •

ولعلى بهذا الجهد المتواضع أكون قد أدت لهذه المنطقة التى نشأت وترعرعت فيها بعض ما على من دين وأمانة ، وقدمت للمكتبة الأدبية وللمهتمين بالمنطقة وأدبها ما يفيد ويفنى •

ولا أنسى فى الختام أن أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذى الفاضل الدكتور حسن جاد حسن على ما أولانى من العناية والتشجيع ما دفعنى على الاستمرار وبذل الجهد حتى ظهر هذا البحث فى هذه الصورة التى هو عليها •

والله من وراء القصد •

سالمى قاسم عبد العزيز المناعى

الفصل الأول

عصر الشاعر

* الحياة الساسية

* الحياة الاجتماعية

* الحياة الأدبية

... ساهول فى هذا الفصل أن ألقى بعض الأضواء على عصر الشاعر من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية بصورة موجزة وبقدر ما يكشف لنا عن الظروف والملابسات التى أحاطت بالشاعر فأثرت فيه وتأثر بها ، وكان لها صدى فيما نظمه من شعر وما دبجه من قصائد ، وذلك فى الفترة التى عاشها من سنة ٥٧٢ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ .

الحياة السياسية :

(١)

شهدت هذه الفترة من الناحية السياسية أحداثا جساما أثرت فى مستقبل الدولة الإسلامية العريضة ردحا من الزمن ، ومن أخطر هذه الحوادث على الإطلاق ، الحروب الصليبية من الغرب ، والغزو المغولى من الشرق . وأظهرت هذه الحوادث من ناحية أخرى مدى التفكك والانقسام اللذين استشرىا فى جسم الدولة العباسية كما سنرى . وفى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى زالت الدولة السلجوقية من العراق نهائيا ، وبالتحديد فى سنة ٥٩٠ هـ ، ويعتبر السلطان مسعود آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، إذ أنه لما توفي هذا السلطان سنة ٥٤٧ هـ ، لم يعد هناك من سلاطين السلاجقة فى العراق من يستطيع أن يشغل الفراغ الذى خلفه ، لذلك تعتبر وفاته بداية لإنحلال البيت السلجوقى فى العراق^(١) ، وكانت الخلافة العباسية آنذاك فى أوج ضعفها ، إذ أن السلطة الحقيقية كانت بيد المتغلبين على عاصمة الخلافة من سلاجقة أو بويهيين قبلهم . وقد استمر السلاجقة فى الحكم حتى قضى عليهم الخوارزميون سنة ٥٩٠ هـ ، وذلك

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ،

أن الخليفة العباسي الناصر استعان بخوارزم شاه تكسن ضد طغرل بك (آخر سلاطين السلاجقة في العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التي بيده ان هو استطاع القضاء عليه^(٢) ، وقد استطاع خوارزم شاه فعلا أن يقتل طغرل بك سنة ٥٩٠ هـ^(٣) . وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائيا من العراق بعد أن حكموا ما يزيد على القرن من الزمان (٤٤٧ هـ - ٥٩٠ هـ) .

وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية ، أو هكذا ظن خلفاء بنى عباس ، فقد حسبوا أنه بزوال السلاجقة سيبدأ عهد جديد في حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذي يتمثل في آل سلجوق ، ولكن الخوارزميين الذين تحصنوا لازالة الدولة السلجوقية كانوا في الواقع يعملون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم ، فقد بدأوا يتطلعون الى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية ، وعملوا جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسي في الحاضرة الاسلامية ، وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين مع سياسة الخلفاء العباسيين أن قام بين الفريقين صراع طويل^(٤) انتهى بانتهاك القوتين معا على يد المغول كما سيأتي .

كما أدى زوال السلاجقة الى انقسام دولتهم الواسعة الى الدويلات الأتابكية^(٥) ، وبالتالي الى وصول الشرق الاسلامي الى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ، ص ٩٤ .

(٣) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك .

(٤) حافظ احمد : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي - دار الفكر العربي . ص ٤٨ .

(٥) د. حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٠٢ ، والأتابك : كلمة مكونة من مقطعين : « بك » ومعناه امير و « اتا » معناه أب ، والأتابك هو الذي يرعى اولاد الملوك .

وأشهر دول الأتابكة جميعاً هي أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكى نظراً لاتساع المسرح الجغرافى الذى كانت تشغله فى شمال بلاد ما بين النهرين وفى بلاد الشام ، هذا فضلاً عن عظم الدور الذى لعبه عماد الدين زنكى وأبناؤه من بعده فى حرب الصليبيين ، وكان عماد الدين من كبار القواد السلجوقيين المقيمين فى بغداد ، ثم أرسله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه والياً على الموصل سنة ٥٢٢ هـ ، وما زالت جيوشه تستولى على البلاد المجاورة واحدة بعد الأخرى حتى ملكها جميعاً ومنها حلب ، ثم حدث أن قتل عماد الدين على يد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ ، وسار ابنه نور الدين محمود الى حلب وملكها وعظم شأنه فيما بعد ونال شهرة كبيرة فى حروبه مع الصليبيين ، وبقيت حلب فى آل زنكى الى أن ملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ (٦) .

(٢)

هذا عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، أما مصر فقد كانت فى هذه الفترة تحت حكم الدولة الفاطمية الآخذة فى التدهور والانحلال نتيجة الثورات التى قام بها الأتراك الذين أثقلوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل الى أيديهم ، وما صاحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة وفى وسط الاضطراب الذى انتشر فى قلب الدولة السلجوقية والشام ومصر ، ظهر عدو أنكى وأشد هو الخطر الصليبي ، إذ أنه فى سنة ٤٩٠ هـ ، سارت الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (٧) . وقد ظلت البلاد الشامية تنن تحت ما أصابها من ذلة على أيدي الصليبيين ، كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بسبب ما بلغه الفاطميون

(٦) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ، ص ١١٧ .

من ضعف ، ولولا ظهور عماد الدين زنكى ومقاومته للصليبيين كما قلنا
لكانت مصر من البلاد التى يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها .

وكان استيلاء عماد الدين زنكى على (الرها) التى كانت تسيطر
على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض المتوسط
سنة ٥٣٩ هـ بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب على ذلك
قدوم الحملة الصليبية الثانية الى بلاد الشام سنة ٥٤٢ هـ فى عهد
نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، ولكن هذه الحملة فشلت
فعادت من حيث أتت . ونظرا لأهمية مصر وموقعها وخيراتها ، فقد
تسابق الصليبيون ونور الدين للاستيلاء عليها ، واستطاع نور الدين
فعلا أن يستولى عليها بمساعدة أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤ هـ ، الذى
اتخذه الخليفة الفاطمى العاضد وزيرا له ، ولكنه لم ينعم بمنصب
الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام^(٨) ، فاختار العاضد مكانه صلاح
الدين الأيووبى فى هذا المنصب ، كما قبل العاضد حماية نور الدين على
مصر من الصليبيين .

ومنذ آلت السلطة الى صلاح الدين فى مصر ، أخذ يعمل على
إزالة الدولة الفاطمية نهائيا ، فكان أن خطب للخليفة العباسى المستضىء
سنة ٥٩٧ هـ ، وكان الخليفة العاضد فى ذلك الوقت على فراش الموت ،
وعندما توفى انتقل حكم مصر الى صلاح الدين انتقالا هادئا^(٩) .

وفى بداية حكمه بدأ صلاح الدين بتوطيد أقدامه فى البلاد
المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد القوى المعادية ، فقصى على
بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده نور الدين ، كما
تخصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية ، ثم أخذ
يعمل على توحيد جميع القوى الاسلامية الموجودة فى الشرق الأدنى

(٨) المرجع السابق - ج ١١ ، ص ١٥٣ .

(٩) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٦٤ .

تحت سلطانه ، حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجمعة ضد هدفه الأساسي وهو الصليبيين ، وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، لا يفتارعه منازع في هذا المرح التاريخي (١٠) .

وهكذا سار صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ الى بلاد الشام ، وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل التي خضعت له عام ٥٨٢ هـ ، واستطاع أن يمد نفوذه الى حلب ، وبذلك أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذي استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الاسلامية مجمعة لمحاربة الصليبيين ، وألحق بهم أول هزيمة منكرة في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، واسترد بيت المقدس من أيديهم ، وأدى ذلك الى قيام حروب الصليبيين الثالثة ، ولكنها لم تتمتع طويلا بسبب اختلاف قادة الحملة الصليبية ، فاضطروا الى عقد صلح مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ (١١) ، وتوفي صلاح الدين في دمشق في السنة التالية أي في سنة ٥٨٩ هـ .

ما أن توفي صلاح الدين حتى أصبحت الدولة الأيوبية المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال ، لأسباب أهمها اختلاف البيت الأيوبي على نفسه ، إذ أراد أبناء صلاح الدين واخوته أن يقتسموا التركية الهائلة التي تركها من بعده (١٢) ، وعلى الرغم من انقسام هذه البلاد فيما بين أفراد الأسرة الأيوبية فيما بعد فان النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة (١٣) .

الا أن العادل أخا صلاح الدين استطاع بفضل شخصيته القوية أن يفرض سيطرته على مصر سنة ٥٩٦ هـ ، الى جانب أملاكه في البلاد

(١٠) المصدر السابق — ص ١٨٠ .

(١١) ابن الأثير : الكامل — ج ١٢ ، ص ٤٠ .

(١٢) حافظ أحمد : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص ١٢٧ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥١ .

الشامية ، فأصبح بذلك سيدا على معظم أملاك صلاح الدين ، فأدى للعالم الاسلامى بتوحيد تلك الامارات أجل الخدمات ، واستطاع أن ينفذ الدولة الأيوبية من الانقسام وأن يجنبها النهاية التى آلت اليها الدولة السلجوقية من قبل ، هذا وقد ورد ذكر الحروب الصليبية فى شعر ابن مقرب العيوى حينما وصلتة أنباء انتصارات الملك موسى الأشرف الأيوبرى فى دمياط فقال مشيدا بشجاعته (١٤) :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرععه وهو باسطق
يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق
وقد جاءت الافرنج من كل جهة
كان تداعيهما السيول الذوافق (١٥)

الى أن يقول :

فلولاه لم ينطق بدمياط داعيا
الى كلمة التوحيد والعدل ناطق

(٣)

أما البحرين وطن الشاعر فقد كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الأسرة العيونىة التى ينتمى اليها شاعرنا ، وذلك منذ أن أستولى عبد الله بن على العيوى على الحكم وقضى على القرامطة سنة ٤٦٨ هـ ،

(١٤) ديوان ابن مقرب — طبعة الاحساء ، ص ٣٠٠ .

(١٥) الديوان — طبعة الاحساء ص ٣٠٠ ، دمياط : مدينة قديمة تقع على الفرع الشرقى للنيل المسمى بفرع دمياط ، وقد كانت قديما تشرف على البحر الأبيض المتوسط ، أما الآن فقد طما للنيل وامتدت الأرض بعدها مسافات كبيرة . وباسق : عال مرتفع باقت عليهم البوائق : أصابتهم الشرور والدواهى .

وبعد أن حكم عبد الله بن علي مدة من الزمن توفي فخلفه أبناؤه من بعده ، ولكن أمراء الأسرة العيونية ظلوا في نزاعات وخلافات مستمرة فيما بينهم مما أدى الى ضعفهم وطمع الأعادي في انتزاع الحكم منهم، وهكذا استولى بنو عصفور على حكم البحرين في حوالى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى بعد أن حكمها العيونيون قرابة القرنين من الزمن (١٦) .

وكانت الدولة العيونية تدين بالولاء — ولو رمزيا — لبغداد مركز الخلافة الاسلامية شأنها في ذلك شأن الأقاليم الاسلامية الأخرى ، وكانت العلاقات بين العيونيين وبين الخليفة العباسي علاقات حسنة وتقوم على الود والتعاون ، يدلنا على ذلك ما كان بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، والأمير محمد بن الحسين العيوني من احترام متبادل، حتى أن الخليفة من تعظيمه وتشريفه لهذا الأمير فرض له في كل سنة من بغداد ألفا ومائتى ثوب من عمل مصر أكثرها ابرسيم . وفرض له في البصرة كل سنة ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز مدة حياته .

وافتخر ابن مقرب بذلك فقال :

منا الذى كل عام بالعراق له

رسم سنى الى أن ضمن الرجا (١٧)

وحدث في احدى السنين أن خرجت بعض قبائل الجزيرة العربية عن طاعة الخليفة وقاموا بمهاجمة قوافل الحجيج ، فشكا الحاج الى الخليفة الذى أرسل من فوره الى الأمير محمد بن الحسين يأمره بمعاقبة هؤلاء الخارجين عن الطاعة جزاء ما فعلوه بقوافل الحجيج الآمنين ، فقام الأمير محمد بجمع قبائل البحرين معه وشن حملات مظفرة على

(١٦) سنذكر بالتفصيل تاريخ الأسرة العيونية في الفصل الخاص بحياة الشاعر .

(١٧) الديوان — طبعة الأحساء ، ص ٥٤٩ .

هؤلاء الأعراب وأدبهم وأثخن فيهم ، وقبض على زعيمهم وأرسله مقيدا الى الخليفة يأمر فيه بأمره .

ولما قتل الأمير محمد بن الحسين على يد أصحابه ، استنجد ابنه الأمير فضل بن محمد بالخليفة للانتقام من قتلة أبيه ، فأمره الخليفة بخزينة كاملة فيها من العتاد والأسلح والأموال الشيء الكثير ، وحمل كل ذلك الشاعر ابن المقرب الذي كان في ذلك الوقت في بغداد ، واستطاع الأمير فضل بذلك أن يئتمم من أعداء أبيه ويقتلهم جميعا ، وذكر ابن مقرب قصة الخليفة في شعره فقال :

رضي الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين أبناء النبيت وقيدر
وأمره بخزائن لسو صبحت
ذات العماد لأذنت بتد عثر (١٨)

(٤)

عرفنا مما تقدم أن مصر وبلاد الشام كانت في حالة ضعف شديدة نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الاسلامي وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم بعض الفترات التي كانت تبدو فيها البلاد متماسكة ، وقد زاد هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسي واقتصادي في هذا المسرح التاريخي فجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من انحلال ، فلم يستطيع حكام مصر وبلاد الشام أن يوحّدوا كلمتهم بحيث يستطيعون الوقوف الى جانب الخوارزميين ثم الى جانب

(١٨) الديوان : ص ٢٢٣ ، النبيت : أبو حى من اليمن واسمه عمرو ابن مالك . وقيدار بن اسماعيل أبو العرب ، ولعله عنى بهذا عرب الشمال والجنوب .

الخلافة العباسية في بغداد عندها هم المغول بلجيتاج هاتين القوتين
الواحدة تلو الأخرى (١٩) .

وقد توالى الغزوات المغولية على إقليم الشرق الإسلامى منذ
بداية القرن السابع الهجرى ، واستطاعوا إكتساح الدولة الخوارزمية
فى سهولة ويسر واخضاع أراضيها فى مدة لا تزيد على أربع سنوات
وتم لهم ذلك سنة ٦٢٠ هـ (٢٠) .

وظهر خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية فى عهد مانجوخان
(٦٤٦ هـ - ٦٥٨ هـ) الذى جهز جملتين كبيرتين احدهما بقيادة أخيه
كوبلاى خان كان هدفها اتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند
قيادتها الى أخيه الأصغر هولاكو ، كان الغرض منها القضاء على طائفة
الاسماعيلية فى فارس ، ثم الاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة
العباسية .

وفى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ ، أرسل هولاكو
رسالة الى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه فيها الى التسليم ، الا أن
الخليفة لم يهتم فكانت النتيجة أن حاصر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ ،
ثم بعد استسلام الخليفة أعمل فيها النهب والسلب والتخريب (٢١) .

وبعد سقوط بغداد اتجه التتار نحو الغرب مكتسحين ما بقى من
بلاد ما بين النهرين ، ثم خربوا حلب سنة ٦٥٨ هـ ، وقيل أن يتم
اخضاع البلاد السورية عاد هولاكو الى بلاده وخلف وراءه قائده كتبغا
اغزو مصر ، فاتجه هذا الأخير الى البلاد المصرية فى نحو عشرة آلاف
مقاتل ، ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، وتمكن الظاهر بيبرس
من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة فى هوقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

(١٩) حافظ أحمد : الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٣٤ .

(٢٠) المصدر السابق . ص ١٤٠ .

(٢١) ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

هذا وقد ذكر ابن مقرب التتار والافرنج عرضا في قصيدة يمدح بها الأمير بدر الدين لؤلؤ ومنها :

فقتاد الى الافرنج جيشا زهاؤه
عديد الحصا ذا أزمّل وزمازم
وجيشا يوارى الشمس ريعان نفعه
الى الترك اذ جاءوا لهتك المحارم
اذا التتر الباغون ذاقوا لقاءه
تمنوا بأن كانوا دما في المشائم (٣٣)

وكل هذه الشواهد تدل على أن شاعرنا لم يكن غائبا عن الساحة السياسية ولا عن هذه الحوادث الجسام التي شغلت الناس وأخذت بلبهم وأثرت في مستقبلهم أيما تأثير .

(٥)

وللتدليل على ما وصلت اليه حال العالم الاسلامي من تفكك وانحلال في تلك الفترة فقد أوردنا بيان بحال الامبراطورية الاسلامية الواسعة وقت سقوط الدولة العباسية فكانت حالتها على الشكل التالي (٣٣) :

١ — كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر ، والقائم بأمرها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ هـ — ٦٧١ هـ) .

(٢٢) القيوان ، ص ٥١٧ ، الأزمّل : الصوت المختلط ، والزمزمة : الصوت البعيد له دوى ، ريعان الشيء : أوله وشدته ، والنقع : القبار ، والمشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة .

(٢٣) المستشرق يوجينا غيانه : تاريخ الدولة الاسلامية — طبعة بيروت ، ص ٣٥٧ .

- ٢ — بشمالى أفريقيا دولة الموحدين ، والقائم بأمرهم أبو حفص
 عمر المرتضى من نسل عبد المؤمن (٦٤٦ هـ — ٦٦٥ هـ) .
 - ٣ — بالجزائر الدولة الزيانية ، والقائم بأمرها بغمر أسن بن زيان
 (٦٣٣ هـ — ٦٨١ هـ) .
 - ٤ — بتونس الدولة الحفصية ، والقائم بأمرها ، أبو عبد الله محمد
 المستنصر بالله (٦٤٧ هـ — ٦٧٥ هـ) .
 - ٥ — بمراكش ، الدولة المرينية ، والقائم بأمرها أبو يوسف يعقوب
 بن عبد الحق (٦٥١ هـ — ٦٧٥ هـ) .
 - ٦ — بمصر ، دولة المماليك البحرية ، والقائم بأمرها المنصور نور
 الدين على بن المعز عز الدين ابيك (٦٥٥ هـ — ٦٥٨ هـ) .
 - ٧ — باليمن الدولة الرسولية والقائم بأمرها المخضر بن يوسف بن
 المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ هـ — ٦٧٤ هـ) .
 - ٨ — بصغاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥١ هـ —
 ٦٨٠ هـ) .
 - ٩ — بالروم من السلاجقة ركن الدولة قنچ أرسلان الرابع (٦٥٥ هـ
 — ٦٦٦ هـ) .
 - ١٠ — بماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ هـ —
 ٦٥٨ هـ) .
 - ١١ — بفارس من الأتابكية أبو بكر بن سعد بن زنكى (٦٣٣ هـ —
 ٦٥٨ هـ) .
 - ١٢ — ببلورستان من الأتابكية دكلى بن هزارسب (٦٥٠ هـ — ٦٥٧ هـ) .
 - ١٣ — بكرمان من دولة قتلح خان ، قتلح حاقون (٦٥٥ هـ — ٦٨١ هـ) .
- ... ألا وأن حال العالم الاسلامى بهذا الشكل ألا يحق لشاعرنا
 بعد ذلك أن يشكو من زمائه ونوائب دهره ؟

الحياة الاجتماعية :

(٩)

... خضعت البلاد العربية والاسلامية ما بين القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق مشاهدتها في العالم الاسلامي ، حيث كانت نظماً طارئة أساسها الاقطاع الذي ساد العصور الوسطى في أوروبا ، وكان طبيعياً والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلاً بين طبقات الشعب المختلفة ، كما كان سواد الناس يتعرضون لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة في صورة مجاعات مضيئة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساباً .

ونتيجة هذه الاضطرابات في المجتمع وعدم التوازن في الدخول لجأ بعض الناس الى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وكان الأدب وسيلة من وسائل الرزق - وكانت موضوعات التعلق تغلب على المواطنين من الشعراء^(٢٤) ، كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق ، وظهرت جماعات لم يكن لها عمل في الحياة الا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وايوائهم ، وربما كانت الحروب الصليبية التي هددت كيان الشرق الاسلامي أول هزة عنيفة أعقبت عصر الاقطاع الذي أوجده نظام الملك منذ عهد السلاجقة وهزتهم وأثارت فيهم النفخة والحمية وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ، ويعتبرون ما يجري على أرضهم شيئاً يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم .

وكان المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت يتكون من خليط امشاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة في طبائعها وأخلاقها من العرب والترك والفرس والروم والأرض ومن سلالات أوروبية استوطنت وتأقلمت ، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكري والاجتماعي والديني ،

(٢٤) د. محمد زغلول سليم - الأدب على العنبر الأموي - ص ٤٩ .

ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعا أثبت أشياء كثيرة وجديدة في نظم المجتمع وفي العادات والتقاليد وفي الأدب والفكر والدين .

وكان العنصر البارز في هذه الجماعات هو العنصر التركي ثم الكردي ، وقد بدأ العصر التركي يظهر عاملا فعالا في العالم الاسلامي منذ أيام المعتصم الخليفة العباسي ، وكان الأتراك يجلبون غلمانا من أسواق النخاسة التي كانت منتشرة على أطراف الدولة الاسلامية يخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس ، وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنين والاستعداد الحربى الممتاز ، مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الاكثار منهم لاستعمالهم خدما أو حرسا خاصا . وقد سبب تزايدهم اضطرابا في المجتمع الاسلامي نظرا لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد^(٢٥) .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائيا فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وان ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن متفرقة فى العراق ومصر ، ولا ننسى بلاد البحرين التى كانت تحت حكم العيونيين وهم عرب خلص أبا عن جد .

(٢)

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الاسلامي فى ذلك العصر مصبوغة بلون قائم ، الا أننا لا ينبغي أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة فانه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد فقد قامت كثير من الأعمال الانشائية والعمرانية على أيدي بعض الشخصيات القوية الممتازة أمثال نظام الملك الوزير السلجوقى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، فنظام الملك هو مؤسس أول جامعة اسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية التى سميت باسمه فى بغداد ، وقد خرجت كثيرا من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد أنشأ نور الدين

محمود كثيرا من المنشآت النافعة في مدن الشام ، وفي حلب ودمشق خاصة ، منها قلعة حلب العظيمة وبعض المدارس وكذلك البيمارستان وربط الصوفية والخانقاه في دمشق • وكان لصلاح الدين نصيب وافر في التعمير والاصلاح في أنحاء متفرقة وبلاد كثيرة في مصر والشام ، وأهم مشآته بمصر القلعة المعروفة باسمه على المقطم ، ثم بناء سور القاهرة الكبير وبناء المدارس الكثيرة بها ، وقد فعل بدمشق مثلما فعل في القاهرة •

وبالرغم من أن كثرة الحروب قد أثقلت كاهل الناس والسلطين الا أن المؤرخين يذكرون لنا من الأخبار الشئ الكثير عن مظاهر البذخ والعظمة التي صاحبت أفراحهم ومناسباتهم^(٢٦) •

وقد نشطت حركة التجارة بصفة عامة في هذا العصر على الرغم مما كان يسوده من اضطراب نتيجة للحروب المستمرة بين الشرق والغرب ، وكان لهذه التجارة أثر كبير في حياة الناس وفي أحوال معيشتهم وفي ميزانيات الحكومات ومشروعاتها ، كذلك حصلت المكوس (الضرائب) الكثيرة على التجارة العابرة مما زاد موردها وحسن حالتها المالية بصفة عامة ، وقد ذكر الشعراء (المكوس) وتحصيلها وشكوا من الحاح المحصلين وتعنتهم ومن هؤلاء ابن التعاويذى الشاعر المعروف في ذلك الوقت^(٢٧) ، ولابن مقرب أبياتا شعرية في هذا الجانب قالها في هجاء ضامن المكوس بواسط لما عارضه في بضاعة كانت معه وفيها يقول :

أسـرـفـت في ظلم العباد أما
للبيعـث في ناديك من ذكـر
وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السـفـر

(٢٦) راجع مفرج الكروب - ج ٣ ، ص ٢١٤ ، تحقيق د. الشبال •

(٢٧) راجع ديوان ابن التعاويذى ص ١٩٥ •

نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر

خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر (٢٨)

على أن بعض الحكام العادلين لاحظوا ما يقاسيه الناس ، ويعانيه
التجار من فداحة المكوس ، أو ما قد ينتج عنها من وقف نشاط التجارة
أو ركودها ، أو ما قد تسببه من مضايقات لحجاج بيت الله الحرام
فرفعوا بعض أنواعها وخفّفوا البعض الآخر ، وممن استن هذه السنة
الحميدة في الشام نور الدين محمود ، كما أمر صلاح الدين بتخفيضها
كثيرا في سنة ٥٦٧ هـ .

وعلى الرغم من هذا كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تؤدي
بالكثيرين وتؤدي الى المجاعات وانتشار الكساد ثم الأوبئة ، ولعل
أهم ما حدث في مصر والجزيرة والموصل والشام من غلاء ومجاعات
ما كان سنة ٥٧٤ هـ ، قال ابن الأثير : « وفي سنة ٥٧٤ هـ اشتد الغلاء
وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام ، وغير
ذلك من البلاد ودامت الى أن انقضت السنة » (٢٩) . وفي إحدى السنين
أصاب « القطيف » وهي من بلاد البحرين سنة مجدبة ممحلة شديدة
القطط ، فكانت الطيور في البلاد تميل عن البر لفقدائها الغذاء وكان أمير
القطيف آنذاك أبا مقدم شكر بن أبي علي الحسن بن عبد الله بن علي
العيونى ، وبلغ من كرم هذا الأمير أن جعل لكل جنس من الطير شيئا
من مأكله ، فللغراب التمر ، وللفواخت وغيرها الحنطة وأجناس الحبوب
وينثر ذلك في الأماكن التي تقع فيها ، ويمنع الصيادين من صيدها .
وقال ابن مقرب عن ذلك :

(٢٨) ديوان ابن مؤب — ص ٢٢٧ ، التجار : جمع التاجر والسفر :
الجماعة المسافرون .

(٢٩) ابن الأثير — الكامل ، ج ٤ في تلك السنة .

ومطعم الطير عام المحك فاسم بنة
فما اذا ضرر خلق الغيث فانصرما (٣٠)

(٣)

وكان للعناصر التي تكون منها المجتمع الاسلامي والتي أشرنا اليها
أثر في ظهور بعض العادات والتقاليد الفريية عن الاسلام والغرب ، كما
أن الحالة السياسية التي كان يحكم بها الناس أظهرت بعض المظالم
والفساد الاجتماعية ، وبرزت أخلاق الملق والرياء وطغت على غيرها
بين العامة والخاصة وكثر الدس ، وانتشرت الخيانة والوقعية لدرجة
تدفع بالخليفة أن ينادى (من سعى بأحد أبيح ماله) ، وفي ديوان
ابن مقرب أشعارا كثيرة في ذم أهل زمانه وأخلاقهم المزدولة (٣١) .

ومن البدع السيئة التي ابتدعتها القرامطة في البحرين وجعلوها
دينا بدعة (الماشوش) : وهى أن يجتمع الرجال والنساء في ليلة معلومة
عندهم في السنة (الليلة العاشرة من محرم وأول ليلة من برج الحمل
المسمى بالنيروز) ويشعرون الشمع ويقومون ويرقصون ويختلطون ،
وفيهم أخوات الرجل وأمه وبناته وعماته وخالاته ، فاذا استكفوا من
الرقص أطفأوا الشمع واختلطوا وقبض كل رجل منهم بيد امرأة من
الجمع وواقعها سواء كانت من محارمه أو أجنبية ، ولما ملك عبد الله
بن على العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب الأمير أبو شكر
المبارك ، وركب معه غلامانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ،
فقال أحدهم : والله ما نحن في شيء مما يضر بدولتكم إنما هذا مذهب
نراه في ديننا ، فقال له الأمير : لئن اجتمع منكم اثنان على هذا الأمر
لأعطن فيكم السيف لا العضا ، فأمات هذه البدعة من البحرين فما
بقيت تعرف . وقال ابن مقرب عن هذا :

(٣٠) ديوان ابن مقرب ، ص ٥٤٤ .
(٣١) المصدر السابق ص ١٣ ، ص ٣٥ ، ص ١٤٠ .

ما الذى أبطل الماشنوش فانقطعت
آثاره وانخفض فى الناس وانطشما (٣٢)

وهناك جانب آخر من حياة المجتمع فى هذا العصر هو حياة الرقيق من الجوارى والغلمان والاكرة عبيد الأرض ، وكانت تجارة الرقيق رائجة يقوم عليها جماعة من تجار الرقيق من أهل جنوة والبندقية (٣٣) ، وكان أثرياء الناس يتهاافتون على اقتناء الجوارى والغلمان ليكونوا زينة لقصورهم وتنمتة لأبهتها ورونقها ، وقد أثر الرقيق فى حياة المجتمع الاسلامى والعربى فى ذلك الوقت ، وزاد منه كثرة سبب الحروب الصليبية الذى أضاف الى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع الن بعيدة أجناسا أخرى من الأرض الأوروبية واليونان وغيرهم ، وقد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديدة ، وكان من الطبيعى أن يظهر أثر ذلك كله على أدب العصر كما سنرى ان شاء الله .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل أيضا هى ظهور ألوان جديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل ، وكانت نتيجة طبيعية للاختلاط بين هذه الأجناس والشعوب وبين أمشاج العقائد والديانات بين المسلمين من ستيين وشيعة ودروز وباطنية ، وحشيشية ويهود ونصارى ووثنيين وبقايا عقائد قديمة حملتها فئات من الشعوب ذات الحضارات القديمة كالهنود والفرس الذين تركزت فى عقولهم بعض عقائدهم كالمانوية والزرادشتية وغيرها .

هذا وقد عرف السلاجقة السنيون بتشجيعهم على بناء المدارس ودور الحديث لبث الثقافة الاسلامية السنية ، وكانت المساجد تفتح طوال النهار لأداء فريضة الصلاة ولتعليم الدين ولقراء القرآن الكريم ، وأولى الأيوبيين عنايتهم للعلوم الاسلامية والعربية كالفقه والحديث

(٣٢) للديوان ، ص ٥٥٠ .

(٣٣) وفيات الاعيان ج ٤ ، ص ١٤٧ .

والسيرة النبوية ، ويروى أن صاحب (اربل) بلغ من تعظيمه لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام أنه دفع لأحد علماء الأندلس ألفى دينار عندما ألف له كتابا في السيرة النبوية وهو كتاب (التنوير في مولد السراج المنير)^(٣٤) ، وقد أدى هذا كله الى وجود محصون كبير من الكتب الاسلامية التي ألقت في هذا العصر . كما حرص المسلمون على أن يحيطوا احتفالاتهم وأعيادهم الدينية بمظاهر البهجة والسرور ، وكانوا يتبادلون التهاني ويلبسون الثياب الجديدة ويتزاورون وتردان المدن وترخر ما بها من مرافق دينية بجماعات المسلمين ينشدون الأناشيد الدينية ويرتلون القرآن الكريم ويقيمون الأذكار .

(٤)

هذا جانب مشرق من جوانب الحياة الدينية ، ولكن هناك جانبا آخر أقل اشراقا ، وهو ما انتاب هذه الحياة من خلافات عقيدية ومذهبية بين المسلمين أنفسهم من أتباع المذاهب المختلفة ، وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة وجهل العامة فلعبت بعقولهم ، وحاولت اجتذابهم الى بعض المبادئ الهدامة المخربة مما جعلها تنتشر في هذا الوقت كدعوة الاسماعيلية التي استفحلت في القرن السادس الهجري حتى قضى عليها التتار عند اجتياحهم للشرق الاسلامي^(٣٥) ، وكدعوة القرامطة قبلها التي زعزت أركان الدولة العباسية وساعدت على سرعة زوالها^(٣٦) . وكان للشعور الديني الذي غلب على الناس في هذا العصر أثره كذلك على الأسماء والألقاب التي تسمى بها الناس مضافة الى الدين مثل : زين الدين وصلاح الدين ونور الدين وهكذا ، ومن الظواهر التي انتشرت في هذا العصر أيضا ظاهرة التصيغ ، وهي

(٣٤) وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

(٣٥) راجع الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي — حافظ حمدي ،

ص ٦٧ .

(٣٦) انظر كتاب القرامطة لحمود شاكر ، طبعة المكتب الاسلامي

ببيروت .

ظاهرة طغت على ماسواها من مذاهب ، وساعد على ظهورها وانتشارها سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي عرفناها سابقا ، وقد ساعد على انتشارها أيضا تشجيع الحكام لها سواء عن رغبة حقيقية وعقيدة عند بعضهم ، أو عن رغبة خفية مأكرة لمجرد مسايرة الشعور العام ، ولأن هذه الدعوة في صالحهم فهي تصرف العامة عن تتبعهم وحسابهم على ما يفعلون .

وكان من الصوفية في هذا العصر علماء ألفوا في التصوف ، ومنهم الامام القشيري صاحب « الرسالة القشيرية » ، والشيخ الانصارى في « كتاب الأسرار » ، والслаمى في « طبقات الصوفية » ، والهجویری في كتاب « كشف المحجوب » بالفارسية وغيرهم كثير ، ومن شيوخهم المشهورين في القرنين السادس والسابع : نجم الدين كبرى^(٣٧) ، ومحب الدين البغدادی الذي توفي سنة ٦٠٦ هـ (٣٨) .

ومن شعرائهم المشهورين عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ .

والخلاصة أن عصر ابن مقرب كما رأينا حفل بشتى الطوائف والنحل سواء الدينية منها أو التي اتخذت من الدين ستارا لتحقيق أطماعها ومآربها المشبوهة ، وكان من نتيجة اختلاط الأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية أن تولدت العلوم والمعارف كظاهرة ايجابية ، والعادات والأخلاق المذمومة كظاهرة سلبية وهذا كله انعكس بدوره على الأدب والفكر بشكل عام والشعر بشكل خاص .

(٣٧) فوات الوفيات — لابن شاکر — طبعة محى الدين ، ج ٢ ، ص ٥

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

الحياة الأدبية :

(١)

إذا وصفنا هذا العصر من الناحية الأدبية بأنه العصر الفضى للأدب وأن العصر السابق عليه هو العصر الذهبي ، وإذا قلنا عنه أيضا بأنه لم يكن يمتاز بالابداع والعبقرية بقدر ما كان يمتاز به من براعة الصنعة والمهارة الفنية التى غلبت الى وقت كبير على العبقرية والابتكار ، فان كلامنا هذا لا يخلو من الحقيقة^(٣٩) . فالأدب فى عصرنا هذا كان حقا أدب صنعة فى أكثره وان لم يخل الأمر بطبيعية الحال من الطبع والحنس الرقيق وهو أدب ترف مسخر فى أساليبه وموضوعاته اخدمة الطبقة الحاكمة والوزراء والولاة ، على أنه فى كثير من حالاته كذلك كان أدب تسلية وقطع للوقت وفيه الكثير من اللعب باللفظ والمعنى والمهارة فى اللغز والتعمية بقصد السمر والدعابة ، وكان على الشاعر فى ذلك الزمن أن يبدع فى هذا كله والا لم يكن مقربا من نفوس الرؤساء ، ومن معالم هذا الأدب فى النثر والرسائل كثرة ألفاظ المديح والاطراء ، كما أنه عرف بالافتتاحيات التى تزخر بمعانى الخضوع والذلة كقولهم مثلا : « الخادم يقبل الأرض بين يدي المولى »^(٤٠) . وفرض ذوق العصر ورفاهيته على الأدب ألوانا من التعبير عمادها استخدام الخواص الصوتية للعبارات لا الألفاظ المفردة وحدها ، كما أن الشعراء برعوا فى توليد الأوزان الخفيفة التى تميل فى نغماتها الى التوقييع الراقص ، وهذا الميل أو الذوق العام لهذا اللون من الأدب جعلهم ينحرفون عن الأنماط القديمة له ، ويتعدون عن أساليبه وفنونه ، كما نفروا من روح البداوة كل النفور ، ورقوا فى أدبهم كما رقوا فى أخلاقهم وعاداتهم ، وكل هذا ظهر فى أدبهم كما سنرى وبما أن الأدب يشمل الشعر والنثر فيلزمنا أن نستعرض هنا بشكل موجز صفات كل من هذين الفنين على

(٣٩) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الإيوى ، ص ١٦٨ .

(٤٠) المصدر السابق .

حدة من ناحية الشيك والمضمون والموضوعات التي تطرقا إليها ومدى
تعبير كل منهما عن هذه الفترة التي نتحدث عنها .

(٢)

وبادى ذى بدء نقول أن النشر تفوق على الشعر في هذا العصر
واقترح عليه مبادئه وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء ،
وصارت بأيديهم أزمة للبيان بعد أن حبل رايته الشعراء دهورا طويلة
من قبل . أما الموضوعات فقد كانت هي الموضوعات التقليدية نفسها
للأدب العربى ، إلا أنه زادت في هذا العصر فنون جديدة وترعرعت
فنون كانت معروفة من قبل ، وقد كان هذا العصر عصر حروب متصلة
بين المسلمين والصليبيين وكانت تلك الحروب سببا في ظهور لون من
الأدب يعبر عنها هو أدب القتال وما يستتبعه من وصف الجيوش وآلات
الحرب والجيوش ، وكان هذا مشتركا بين الشعراء والكتاب ، ومن أمثلة
هذا في النشر كثير ، وللقاضى الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة
للجروب والحصون ، منذ ذلك وصفه لحصن منيع سقط في يد المسلمين :
« هوشجى فى الحناجر ، وقذى فى المحاجر ، وقد أخذ من الآمال
بمخنقها ، وقعد بأرصاء العزائم وطرقها ، وصار رثيا للدهر فى ذلك
المفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك - يسر
الله الآخر » - كبيت الواصف للأسدين :

ما مر يوم الا وغدهما

لجم رجال أو يولغان دما^(٤١)

أما المعركة التي وقع فيها حصن الكرك فقد وصفها على النحو
التالى : « أما الكرك فكفأت المنجنيقات متظافرة عليه ، وججارتها على
من فيه حاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وأسبلت قناع الستائر

(٤١) الروضتين - لأبى شامة ج ٢ ، ص ٥٥ .

وجوهرها المتبرجة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى ، التى تتعاضد فيها الهمم ، ويناشر حرات الشتاء الكالح بوجهه المتشم « (٤٢) » ، ومما يدخل فى أدب القتال الكتب التى ألغت فى أحوال الحرب والسلاح ، قال ابن خلكان فى « ابن صابر » المنجنيقى : « كان ابن صابر جنديا فى ابتداء أمره ، مقدما على المنجنيقيين بمدينة السلام ، ولم يزل مغرئ بأدب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، واشتهر بذلك ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه فى درايته وفهمه لذلك ، وصنف فيه كتابا سماه (عدة السالك فى سياسنة الممالك) ولم يتمه ، وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب ، وتعبثتها ، وفتح الثغور ، وبناء المعادل ، وأحوال القروسية ، والهندسة ، والمصابرة على الحصاد والقتال والرياضة الميدانية والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها « (٤٣) » وجمع القاضى ابن شداد لصالح الدين كتابا فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين « (٤٤) » .

والى جانب ذلك سجل النثر فى هذا العصر معالم الحياة والمجتمع . فكتب الكتاب عن الاضطراب الاجتماعى ووصف الأدب ارتفاع الناس وسقوطهم ، وتقلب أحوال الناس بين المجد والانحدار ، وهى أشياء ومظاهر كانت عادية ومعهودة ، حتى أن كتابا مثل القفطى يؤلف كتابا فى : « من ألوت الأيام عليه فرعته » ثم التوت عليه فوضعت « (٤٥) » .

ومن بين الموضوعات الطريفة التى تناولها النثر أيضا موضوعات من صميم الحياة التى قد لا نجد الأدب القديم يعنى بها مثل وصف الحمامات العامة ، أو ذم بعض العادات الشاذة ، ونقد أحوال العمال والموظفين فى الدولة مثل عمال المكوس كما مر من أمثلة . ومن غريب

(٤٢) الروضتين — لأبى شامة .

(٤٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان — ص ٦ ، ص ٣٦ .

(٤٤) المصدر السابق — ص ٨٥ .

(٤٥) ارشاد الأديب — لياقوت الحموى — ج ٥ ، ص ٤٨٣ .

الموضوعات موضوع ذم المدن أو مدحها ، أو هجاء الأقاليم ، وألفت كتب في ذكر فضائل الشام ودمشق ومصر ، وربما قامت بين الأدباء مناظرات أو منافرات موضوعها المدن ، كالتي قامت بين أدباء مصر والشام حول فضائل الاقليميين ، وقد أورد أبو شامة^(٤٦) أمثلة لهذه المناظرات في الروضتين ، ونال النيل في مصر نصيبه من انتاج الأدباء شعراء وكتبا ، ومن جرى قلمهم بوصفه ضياء الدين بن الأثير ، والقاضى الفاضل أيضا رسالة في النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى في كتاب « الثمرات »^(٤٧) ، ومن المواضيع الأخرى كثرة ما قيل في السيف والقلم ، ومع قدم هذا الموضوع إلا أن الشعراء والكتاب قد أكثروا فيه .

ومن كتب الأقدمين التى نالت اهتمام أدباء هذه الفترة كتاب « الحماسة » لأبى تمام ، وكان له مكانة خاصة في النفوس ، فكانوا يقرؤونه ويحفظونه ويستشهدون بأبيات منه في كتبهم ورسائلهم ، وقد تناوله بالشرح جماعة من أعلام اللغويين كالخطيب التبريزي^(٤٨) ، والبيهقى ، وغيرهم ، وبجانب « الحماسة » يأتى كتاب « ديوان أبى الطيب المتنبى » ، وكان عدة الأدباء وزاد الشعراء ، وكتاب « مقامات الحريري » وكان يحفظه الأدباء والعلماء ولهم عليه شروح كثيرة .

وصور الأدب النثرى وفنونه في ذلك الوقت هى نفسها تقريبا الصور والفنون التى عرفت من قبل في الأدب العربى ، ونعنى بها الخطب والرسائل ، وزادت عليها المقامات وهى أحدثها ظهورا في الأدب النثرى ، وكان لمقامات الهمداني والحريرى أثر واضح في انتشار هذا الفن الجديد ، وقوى أيضا فن القصص ، وفن الخطابة الدينية خاصة ، وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة منهم ابن الجوزى الذى كان يعظ

(٤٦) الروضتين — لأبى شامة — ج ٢ ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

(٤٧) ثمرات الاوراق — لابن حجة الحموى — ص ١٣٢ .

(٤٨) الارشاد — للحموى — ص ٢٨٧ ، وص ٢١٣ .

للناس ببغداد^(٤٩) ، وابن الزكي^(٥٠) . وأشهر كتاب النثر في هذه الفترة
 وشييد الدين الوطواط في الشرق ، وكان شاعر البلاط في دولة
 الخوارزمين^(٥١) ، وفي الشام عماد الدين الأصبهاني المعروف بالعماد
 الكاتب الأصبهاني الذي خدم الأيوبيين بالشام ، وفي مصر نجد القاضي
 الفاضل الذي كان كاتب صلاح الدين وقد أوردنا أمثلة من كتاباته ، ومن
 كتاب النثر المشهورين أيضا ضياء الدين بن الأثير المتوفى في بغداد سنة
 ٦٣٧ هـ . هذا وقد امتاز كتاب النثر بالتطويل في كتاباتهم ، وكذلك غلب
 عليهم طابع السجع ، وعمدوا اليه عمدا ، وغلب على سجعهم التكلف
 والتصنع ، وكانوا يحاولون بكثرة لجوئهم الى التعميد والاسراف في
 الصنعة أن يوجدوا فنا جديدا يضارع الشعر ويفوقه ، أو كما يرى
 بروكلمان في مقامات الحريري : أنها تمثل محاولة أخيرة من جانب
 الروح العربي الى التماس فن ملائم من القول خارج نطاق الشعر
 التقليدي^(٥٢) ، على أن هناك كتابا شذوا عن هذه القاعدة وجنحوا في
 كتاباتهم الى السلاسة والسهولة والوضوح ومنهم أسامة بن منقذ في
 كتابه « الاعتبار » الذي وصف فيه مغامراته في الحرب والسلام بعبارة
 قصصية بسيطة^(٥٣) .

(٣)

هذا عن النثر ، أما الشعر فإنه بدوره سجل أحداث العصر ، وكان
 صورة لها وعكس مراحل الحروب الصليبية وما حصل عليه المسلمون من
 انتصارات ، وما نكبوا به من هزائم ، وخلد الشعر حوادث التتار المروعة
 وما جروه على بلاد المسلمين من تخريب وإجراق وخاصة في أواخر

(٤٩) راجع رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٥٠) وفيات الأعيان — ج ٣ — ص ٣٦٥ ، ص ٣٧١ .

(٥١) الدولة الخوارزمية — ص ٨٧ .

(٥٢) بروكلمان — تاريخ الشعوب الإسلامية — ج ٢ — ص ١٧٢ .

(٥٣) المصدر السابق — ص ٢٤٣ .

القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، ولا توردى الشاعر الفارسى قضيده سفاها « دموع خراسان » يبكى فيها خراسان بعد غارة التتار ، وتدميرهم لها وقتل أهلها واشتعال النار فيها (٥٤) ، كما سطر الشعر بأبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ممن تصدوا للتتار البرابرة أو للصليبيين المغيرين وعلى رأس هؤلاء الأبطال صلاح الدين الأيوبرى ونور الدين محمود ، وكان لقادة صلاح الدين وجنوده نصيب من الشعر لما أبدوه من ضرورب الفروسية والشجاعة ، وقد ذكر (الغزى) الشاعر أبياتا فى جند صلاح الدين من الأتراك فقال :

فى فتية من جيوش الترك ما تركت
للرعد كراتهم صوتا ولا صيتا
قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة
حسنا ، وان قوتلوا كانوا غفاريئا (٥٥)

وكقصيدة ابن مقرب العيونى فى مدح الملك الأشرف الأيوبرى لما هزم الصليبيين فى دمياط ومطلمها :

أبر شهودى أنتى لك عاشق
سهادى وسقى والدموع الذواق (٥٦)

ولم يكن المديح مقصورا على الأشخاص المعاصرين ، بل ان الشعراء تعرضوا فى مدائحهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى طريقها الى الشعر العربى بشكل واضح ، ومن أشهر أصحاب المدائح الامام البوصيرى ، وقصائده فى هذا المجال معروفة وأشهرها البردة والهمزية .

(٥٤) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبرى ، ص ٢٣٤ .

(٥٥) الجامع المختصر — ج ٣ / ٤ .

(٥٦) الديوان — ص ٢٩٢ .

أما غرض الهجاء فالتخذ في هذا العصر طابعا مختلفا عن الهجاء التقليدى القديم في خصائصه ومادته ، فكما تعرض الهجاء في هذه الفترة للأشخاص تعرض أيضا للبلاد والأشياء الأخرى ، ومن أشهر الهجائيين « ابن الهبارية » و « ابن عنين » ولعل الفساد الاجتماعى هو الذى ساعد على ازدهار غرض الهجاء في هذا العصر ، وهذا العامل هو الذى دعا شاعرنا ابن مقرب الى التعريض بصفات أهل زمانه الذميمة واستكانتهم للظلم فقال :

أرى الناس مذ كانوا عبيدا لغاشم
وخضما لمغلوب وجندا لغالب (٥٧)

وظلت بعض الموضوعات التقليدية التى اعتاد الشعراء القون فيها مجالا للشعر في ذلك العصر كذلك . ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس الشراب ، وبرع فيها جماعة مثل ابن النبيه (٥٨) ، وقد عاش في هذا العصر جماعة من الخلاء وأصحاب المجون من الشعراء ممن اتخذوا خلاء العصر العباسى في القرنين الثانى والثالث أئمة يحتذون على منوالهم ، ومن هؤلاء أبو القاسم الاسطرلابى المتوفى سنة ٥٣٢ هـ ، ويقول عنه ابن خلكان : « وكان كثير الخلاء ، يستعمل المجون في أشعاره ، حتى يفضى به الى الفحش فى اللفظ » (٥٩) .

ومن موضوعات الشعر الألفاظ ، وكان الشعراء يتراسلون بها ، ويقضون أوقاتهم فى عملها وحلها ، وهى تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، ونبغ فيها جماعة ، وألف فيها آخرون كتباً جمعوا فيها ما وقعوا عليه منها مثل على بن عدلان الربعى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، وإيه فى ذلك كتاب « عقلة المجتاز فى حل الألفاظ » (٦٠) .

(٥٧) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٥٨) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٥٩) وفيات الأعيان ج ٣ — ص ١٠١ .

(٦٠) فوات الوفيات ، ج ٢ — ص ١٢٢ .

ونجد في هذا العصر كذلك نماذج من الشعر الانساني الجياش
بالعواطف الانسانية العميقة ، الى جانب الألوان التي أشرنا اليها ومنهم
طائفة غلبت عليهم العاطفة الدينية فصاروا ينظمون أبيات الذسك
والزهد بدلا من الغزل والصبابة ، ويدعون غيرهم بترك الطرق المعوجة
والترام الطريق المستقيمة كقول الشاعر :

عجبت لمتاع الضلالة بالهدى
وللمشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه
بديننا سواء فهو من دين أعجب

وخاض الشعر في العقائد ، وأصبحنا نرى شعراء المذاهب والنحل
يتجادلون في عقائدهم ومذاهبهم ، ويردون حجج المعارضين ويدلون
بحججهم ، فشعراء أهل السنة ينددون بالمعتزلة والشيعة الباطنية ،
وهؤلاء بدورهم يردون عليهم وينتصرون لمذاهبهم ، واتخذوا من الشعر
منبرا لنشر الآراء حتى تضيع بين الناس ويسهل تناقلها لسهولة تعلق
الشعر بأذهان العامة .

(٤)

ولشعر هذا العصر ملامحه الأسلوبية التي تكون الصورة والشكل
الفنى الذى ظهرت فيه تلك الموضوعات . وقد تنوعت المذاهب الفنية
في شعر العصر ، فنرى بعض الشعراء قد انتحوا ناحية القديم ينهجون
نهجه ويصطنعون أساليبه ومعانيه ، والترم آخرون مذهب الصنعة
والبديع وجمع فريق ثالث بين النهجين فأخذوا من القديم معانيه ، ومن
الجديد أساليبه ، ومن خصائص المذهب الأول بالاضافة الى قوة الألفاظ
والرصانة والنزوع الى الأغراب ، كثرة الصور البدوية ، وتعتمد البدء
بالنسيب على الطريقة البدوية ، واشتقاق الصور والتشبيهات والمعانى
من الصحراء ومظاهرها .

وكان شعراء هذا المذهب أو أكثرهم يتفرون من الاتجاه الجديد في الشعر والأخذ بطريقة أصحاب البديع والركة والسهولة ، ومن أشهر أصحاب هذا الاتجاه الشاعر الطبراني (٦١) ، والشاعر الحيص بيص (٦٢) وابن التعاويذي والأبيوردي وغيرهم ، على أن المذهب الثانى وهو مذهب البديعيين كان أكثر شيوعا ، وأصحابه كانوا هم الكثرة العالقة فى ذلك العصر ، ومذهبهم المذهب المفضل المختار الذى يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق مع أهواءهم ، واتخذ البديعيون من الحزيرى وطريقته فى المقامات نموذجا يحتذى وأكثروا فى أشعارهم من ألوان التلاعب اللفظى حتى غلب عليه التعقيد والأسراف ، إلا أن كثيرا من شعراء هذا العصر الذين أعجبوا بالبديع لونا غنيا لم يفرقوا هذا الاغراق وإنما تناولوا بعض فنونه بخذر وحيطه ، وهؤلاء هم أصحاب الاتجاه الثالث ، ومن أشهرهم فى ذلك العصر ابن منير الطرابلسى ، ومعاصره ابن القيسرانى وكافا من شعراء التسلم ، وجرت بينهما وقائع وقوادىر ، ولزما السلطان نور الدين محمود ، ولهما فيه قصائد طنانة فى المدح ، وكان يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ، ومن شعر ابن القيسرانى فى نور الدين محمود رحمه الله ، قوله :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب
وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

... هذه حالة الأدب فى تلك الفترة .

(٦١) انظر انابكة الموصل — ص ٤٢ .

(٦٢) ارشاد الارب — لياتوت الحموى ، ج ٤ — ص ٢٣٣ .

الفصل الثاني

حياة الشاعر

- * اسمه ونسبه •
- * ولادته ونشأته •
- * رحلاته واتصالاته •
- * ثقافته •
- * شخصيته وخلقه •
- * معتقده •
- * وفاته •
- * نبذة تاريخية عن وطن الشاعر •

اتفق الرواة ومن ترجموا للشاعر فيما يتعلق باسمه واسم أبيه ، ولكنهم اختلفوا في ترتيب أسماء آبائه وأجداده بعد ذلك حتى الجد الأعلى للعشيرة^(١) ، بل اختلفوا في الأسماء نفسها ولكننا مع ذلك يمكننا الاطمئنان الى تعريف واحد ممن ترجموا له ، وهو ابن الشاعر الموصلى ، وذلك لسبب ظاهر وهو أنه استقى هذا التعريف من الشاعر نفسه حيث التقى به في بغداد سنة ٦٢٤ هـ^(٢) . يقول ابن الشاعر بعد أن يعرف الشاعر (هكذا أملى على نسبه من حفظه)^(٣) .

فعلى ذلك نقول أن شاعرنا هو : على بن مقرب بن منصور بن المقرب بن عزيز ، بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد الربيعي البحراني العيوني^(٤) .

وكما اختلف الرواة والمترجمون حول نسب الشاعر ، اختلفوا أيضا حول لقبه وكنيته فنرى بعضهم يلقبه بجمال الدين^(٥) ، والبعض الآخر يلقبه بموفق الدين^(٦) ، وبينما يكتنيه البعض بأبى عبد الله^(٧) ، نرى

(١) انظر ابن الفوطى — تلخيص مجمع الآداب — والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن ماكولا فى الاكمال .

(٢) عمران العمران — ابن مقرب — دراسة ، ص ١٥ .

(٣) ابن الشاعر الموصلى — قلائد الجمان فى شعراء الزمان — مصور بمعهد المخطوطات .

(٤) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب — ص ١٩ .

(٥) ديوان ابن مقرب — طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ ، وانظر ايضا (مخطوطات الموصل) للدكتور داود الحلبى ص ٤١ .

(٦) ابن الفوطى — تلخيص مجمع الآداب .

(٧) الديوان — طبعة الهند ، والصفدى فى الوافى بالوفيات — ج ٢٢ ،

الآخر يكنيه بأبى الحسن^(٨) ، وغيره يكنيه بأبى القاسم^(٩) ، وهناك من يكنيه بأبى منصور^(١٠) ، وعلى كل حال فانه من الجائز أن يحمل المرء أكثر من لقب وأكثر من كنية ، وليس من اليسير بالنظر الى الاختلافات السابقة حول لقب الشاعر وكنيته الجزم بلقب واحد وكنية واحدة دون غيرهما ، ثم فصرهما على الشاعر ، ولكن بالنظر الى أن أغلب من ترجموا له لقبه بجمال الدين ، وأغلبهم أيضا كناه بأبى الحسن فيمكننا على ذلك أن نطمئن ونرتاح لهذا اللقب وهذه الكنية .

ولادته :

ولد ابن مقرب في بلدة « العيون » من نواحي الاحساء شرق الجزيرة العربية ، وذلك سنة ٥٧٢ هـ^(١١) ، الموافقة لسنة ١١٧٦ م ، وهو ينتسب الى أسرة العيونيين الذين حكموا منطقة البحرين^(١٢) حيناً من الدهر ، وتسمى دولتهم الدولة العيونية ومؤسسها هو عبد الله بن علي العيوني الذي قضى على القرامطة في البحرين ، وأزال دولتهم نهائياً سنة ٤٦٨ هـ ، وسنحدث عن ذلك في حينه ان شاء الله .

نشأته :

من الممكن اعتبار الفترة الأولى من حياة ابن مقرب وبالتحديد منذ مولده وحتى مطلع القرن السابع الهجري — وبلوغه الثلاثين من عمره

(٨) ابن ماكولا في الاكمال ، وابن نقطة في المستدرك — مادة ضبار ، والحافظ المنذرى في التكملة وفيات سنة ٦٢٩ .

(٩) ابن الفوطى — تلخيص مجمع الآداب .

(١٠) د. داود الحلبي — مخطوطات الموصل ص ٤١ .

(١١) ابن الشعاد الموصلى — قلائد الجمان — والحافظ المنذرى في

التكملة — وفيات سنة ٦٢٩ هـ .

(١٢) كانت البحرين قديماً تضم جزر اوال وساحل الاحساء كله ، اما

الآن فيطلق الاسم على البحرين المعروفة فقط .

صفحات مجهولة أو شبه مجهولة في بطن التاريخ ، ذلك لأن كتب التاريخ والتراجم تغفل الحديث تماما عن هذه الفترة من حياته ، ولا تعطينا أى معلومات تشفى غليل الباحث .

وحتى ديوان الشاعر نفسه لا يعطينا سوى معلومات قليلة جدا لا تلقى بالضوء الكافى على هذه الفترة المظلمة من حياته ، ويقول أحد شراح ديوانه عن هذا : (وهكذا كان حظ ابن المقرب بخس فى ذكر المؤرخين له ، كما كان حظ بلاده) (١٣) ، ولو استعرضنا ما جاء فى كتب التراجم عنه من نتف قليلة لتبين لنا صدق هذا الكلام (١٤) ، وعلى أنه

(١٣) مقدمة الديوان — طبعة الاحساء ، ١٩٦٣ م تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو . ص ١٧ .

(١٤) ما جاء فى كتب التراجم عن ابن مقرب :

١ — ذكره ياقوت الحموى فى معجم البلدان ج ٦/ص ٢٥٩ بقوله (وبالبحرين موضع يقال له العيون ، ينسب اليه شاعر قدم الموصل وانها بها ، اسمه على بن المقرب بن الحسن) يذكر اسمه ..
« لقيته بالموصل فى سنة ٦١٧ ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان ، ونفق فارغدوه وأكرموه » ثم يذكر شيئا من شعره .

ب — وذكره ابن نقطة فى كتابه « المستدرک على ابن ماکولا » فقال فى مادة ع ي ن : « وأما العيونى فهو على بن المقرب بن الحسن — ثم يذكر نسبه — .. قدم علينا بغداد ، شاعر محسن سمعنا منه شيئا من شعره » وذكره فى مادة (ض ب ر) فقال : « وأما ضبار — ينتج الضاد المعجمة وتشديد الباء المعجمة بواحدة وآخره راء — فهو أبو الحسن على بن المقرب — ويذكر نسبه — ثم يقول تقدم ذكره » .

ج — وذكره ابن الشعار الموصلى فى كتابه « قلائد الجمان فى شعراء الزمان » فقال بعد أن ذكر نسبه : (هكذا املى على نسبه من حفظه ، وهو موضع بالبحرين يقال له العيون ، أخبرنى أنه ولد به فى سنة اثنتين وسبعين وخمسائة ، وتوفى به فى اواخر المحرم سنة ثلاثين وستمائة ، وكان شاعرا

يمكن القول أن شاعرنا نشأ وترعرع بين قومه أحرار البحرين ، وغذى بلبان الشهامة والبطولة منذ نعومة أظفاره ، وشب عزيز النفس ، شديد البأس ، صلب القناة ، حاد الطبع ، وهبه الله جنابا ثابتا ، وفؤادا يقظا ، ونفسا تائقة الى معالي الأمور ، أبعدته عن مواطن الريب ، ودفعته الى طريق الأمجاد وقضى أيام شبابه وصباه في تلك الربوع ، وكانت له أيام سعيدة في أماكن كثيرة من بلاد البحرين مثل الثليم والجرجاء والجديد والمصلى والحصنين — ظل يتغنى بها في كثير من مناسباته الشعرية ، ولولا أنه ذكرها في شعره لغابت عنا كما غاب غيرها من المعلومات عن نشأته ومن حديثه عن ذلك قوله :

رعى الله (الثليم) وسلكنيه
وأجرعا تكففها التمسلا
وجاد من (الجديد) الى (المصلى)
الى (الحصنين) وكاف ركام
فمسررح لذتى ومراح لهوى
هنالكم وجدتى الكرام^(١٥)

موجودا منتجما ، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متين ، قوى اللفظ رصينه — وبعد أن يذكر بعض صفاته يقول : — شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وانشدني الكثير من قوله ، ومعظم شعره يحفظه ويردده ، ولم يتوقف في إيراد ولا يجد بذلك سامة ولا ضرر .

ثم يورد ابن الشعار طرفا من اشعار ابن مقرب في المدح وينتهي . وعلى هذه الشاكلة ذكرته كتب التراجم الآتية .

د — الحافظ المنذرى — « التكملة لوفيات النقلة » — وفيات ٦٢٩ هـ .

هـ — ابن الفوطى — « تلخيص مجمع الآداب » .

و — الصندى — « الوافى بالوفيات » ... هذا كل ما جاء عنه .

(١٥) الديوان — طبعة الاحساء ص ٥٦٣ — والثلث : أن ينظم حرف للواوى ، وكف المطر : انهل وانصب وركام : بعضه فوق بعض .

ويقول في موضع آخر :

يامنزل الحى (بالجرعاء) لا برحت
تهمى بك المزن منهلا عزاليها
كم لى بمنفك من يوم نعمت به
وليلة تعدل الدنيا وما فيها (١٦)

كما قضى شطرا من أيام الشباب والصبى فى أماكن من منطقة
الليامة ذكرها فى شعره مثل (حجر) وهى قصبة الليامة و (اجله) وهى
أرض بها فقال :

لله أيام الصبا اذ دارنا
(حجر) القرى ولنا (باجلة) معبد

وهذه الأيام كانت أيام صبوة وأنس ومرح :
اذ لمتى تحكى الغداف وانما
أشهى الشعور الى العيون الأسود
والخد من ماء الشباب كأنما
فيه لأحداق الكواكب مورد
كم ليلى طاليت فقصر طولها
شدو المزهرة والغزال الأغيد
وترنم الأوتار فى يد قينة
غنجد يدين لها (الغريص) و (معبد) (١٧)

(١٦) الديوان — ص ٦٥١ — الجرعاء : الرملة الطيبة المنبت ، همى
المطر : سال بفزارة ، الغزلاء : مصب الماء من القرية ، ويقال أنزلت السماء
عزاليها ، إشارة الى شدة وقع المطر .
(١٧) الديوان طبعة ١٨ حياء ص ١٦٠ (الغداف : يطلق على غراب
للتنظيف والشعر الاسود الزهر : العود ، الأغيد : الوسنان المائل العنق ،
والغنجد : الجارية ، والغريص ومعبد : مغنيان مشهوران) .

هذا ما استطعنا معرفته عن نشأته أخذاً من شعره نفسه ، ولما شب عن الطوق ، تحركت في نفسه روح الطموح الى المجد ، وظهرت عليه مخايل النباهة والنجابة ، ووشيت شاعريته بمواهب عظيمة وآمال بعيدة توجب حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، فلا عجب أن نراه بعد ذلك شاعراً مغلقاً ، تورى كلماته نار الحرب ، وتهز قصائده فؤاد الجبان ، فلماذا هو مقدم على الهول ثابت عند اليأس ، ولقد أثار هذا كله التفات الناس ودهشتهم ، وخاف أمراء الأسرة العيونية على ملكهم من هذا الشاعر الفارس ، ونقم عليه الأعداء والوشاة ، وأوغروا صدر أبناء عمه واستعدوهم عليه ، فاجتاحوا أمواله ووضعوا العقبات في طريقه ، بل وصل الأمر الى القائه في السجن .

ونقرأ في مقدمة احدى النسخ المخطوطة لديوان الشاعر هذا الكلام : (وما كان من مقاله في آل أبي المنصور على بن عبد الله بن علي فهو مصنعة منه واستدراج ، وكف لعادية شرورهم ، واقطاع ، ولم يكن ليمدحهم على اختيار ، ولا وقع ما وجد فيهم من شعره على ايثار ، والسبب في ذلك أن الأمير الاجل محمد بن علي بن عبد الله ، لما ملك الاحساء ، وهى البلدة التى بها وطنه وفيها مملكته وسكنه ، اجتاح جميع أملاكه من طريف وتالد ، وحاز الصامت والناطق ارضاء للعدو الحاسد ، ولم يبق له صفراء ولا بيضاء ، ولا راعى فيه حق النسب والولاء ، ثم لم ينفعه ما صنع بثرائه وسلب من نعمته وغنائه ، بل ضيق عليه في السجن والأصفاد ، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرضاد ، وبالع في مكروهه وأذاه ، ولم يكن لأمر جنته يداه ، وانما وشى به حساد بيته حرصاً على اطفاء فضله وصيته ، وسعى به الى آل أبي المنصور أعادى مساعيهم ، وأرادوا اخماد شرفهم بالاساءة الى مواليتهم ، وأقام في السجن مدة ، وأخرج عنه بعد جهد وشدة ، ليث في البلاد على غاية

من انكسار القلب لما أولاه من الأذى أهل القرب ، كما قال طرفة : وظلم
دوى القربى أشد مضاضة — على المرء من وقع الحسام المهند • ثم
خرج عن الاحساء الى ناحية العراق ، وكان بعض ما لقي منهم يوجب
النأى عنهم ^(١٨) بالاضافة الى وشاية الأعداء فان هناك سببا آخر جعل
إبناء عمه يعادوه ويكيدوا له ، وهذا السبب هو انتقاداته الدائمة لهم
والسلوبهم في معالجة الأمور وتهاونهم مع الأعداء الطامعين ، ذلك أن
ابن مقرب عاصر الفترة التي ضعف خلالها الحكيم العيوني وتعرض
للفاسقات الداخلية ، والفساد وللأطماع الخارجية ، وخاصة من جانب
الأعجام الطامعين في السيطرة على البلاد ، وقد شاهد بأم
عينه مدى التناحر والانشقاق في الأسرة العيونية وطمع كل أمير في
الاستئثار بالملك حتى تجزأت بلاد البحرين الى امارات بين أسرته ،
وظل كل أمير يثب على ابن عمه أو أخيه فيعتاله أو يقتله دون مراعاة
لروابط القربى ^(١٩) ، فبازاء هذا الوضع وقف الشاعر موقف الناصح
لقومه وعشيرته يحاول أن ينبههم الى ما يحيط بهم من أخطاء مذكرا لهم
بماضيهم التليد وما أثرهم الخالدة ، وأمجادهم القديمة ، لكن حديثه هذا
يذهب أدراج الرياح ، ليس هذا فقط ، بل يجلب عليه نعمة أمراء أسرته
فيقدمون أعداءه ويؤخرونه ، ويأخذون برأيهم في حرمانه ونفيه ، ويشير
الى هذا السبب أحد الكتاب بقوله : (وبالرغم من أن ابن المقرب ينتمى
الى أسرة الأمراء العيونيين ، فانه رفض مجاراتهم ، ووقف منهم موقف
الناقد الناصح المعارض ثم موقف الثائر المتورد عندما لم ينفع نقده
ونصحه ...) ثم يقول (وبسبب هذا الموقف تعرض ابن المقرب للسجن
في شبابه المبكر ، وعندما خرج من السجن كان شعبة من الثورة ضد
الأوضاع الفاسدة فحاربوه وسدوا أمامه كل سبل العيش الشريف ،

(١٨) الديوان — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ،

٥٢٢ أدب .

(١٩) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود — ط ٣ ، ص ٢٧٦ .

فاضطر الى المهاجرة من وطنه الى العراق ، حيث بقى مدة طويلة (٢٠) ، وبعد خروج ابن مقرب من السجن وحيال التضييق عليه لم يجد أمامه مندوحة من مغادرة الوطن فرحل عن الاحساء على مضض الى القطيف ، ثم سافر الى البصرة وواسط وبغداد وديار بكر ، وأخذ يتصل بالولاة والأمراء هنا وهناك ، وأنشد فيهم الأشعار فأكرموه وأحلوه مكانا طيبا من مجالسهم ، ثم دفع به الحنين الى العودة الى وطنه الاحساء ، وأنشد القصائد في بنى عمه الأمراء آملا في استجابتهم وترك الاصغاء الى الواشين ولكتهم لم يصيخوا له سمعا ، ومن شعره فيهم قوله من قصيدة يخاطب بها الأمير محمد بن ماجد ويستعطفه كي يرد عليه أملاكه المملوكة :

أبا ماجد أنظر الى ذى قرابة
بعين رضا يغضى لها الخائن الخب
فان الوداد المحض مالا يشوبه
اختلاب وبعض القوم شيمته الخب
الى أن يقول :

فصن حر وجهى عن سؤال فانه
على ولو عاش ابن زائدة صعب
ورد كثيرا من يسير تقى به
فراخا قد استولى على ربعها الجذب (٢١)

(٢٠) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — طبعية
اولى ، ص ٣١—٣٢ .

(٢١) الديوان — طبعة الاحساء ص ٣٣ — والخب : الخداع ، الاختلاب
والخب : الخديعة . معن بن زائدة : من أشهر أجواد العرب ، الجذب :
القط .

فوعده الأمير محمد وعدا جميلا وتكفل له بقضاء حاجته ورد ما أخذ منه ، ثم أبطا بالوقاء ، فاستتجزه وعده واستعطفه بقصيدة ثانية مطلعها :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك^(٢٢)

ولكن الأمير بتأثير الحساد والوشاة ماطله في وعده ولم يف له بشيء ، ثم ان الشاعر خاف على نفسه ، فخرج الى القطيف ، وهناك أخذ ينظم الشعر محاولا أن ينفى عن نفسه شجونها فقال :

الى كم مناجاة الهموم العواذب
وحتى م تأميل الظنون الكواذب

أما حان للعضب اليماني أن يرى
بيمنك كالمخراق في كف لاعب^(٢٣)

ثم انه مدح والى القطيف الأمير فضل بن محمد عله يصل من ورائه الى شيء من أملاكه المعتصبة فمدحه بقصيدة مطلعها :

تجاف عن العتبي فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد

إذا خانك الأدنى الذى أنت حزبه
فلا عجبا ان أسلمتك الإبعاد^(٢٤)

(٢٢) ديوان ابن مقرب — طبعة الاحساء ، ص ٣٠٥ ، والدكادك من الرمل : الأرض التى فيها غلظ .

(٢٣) المصدر السابق — ص ٦٤ ، والعواذب : البعيدة ، العضب : السيف القاطع ، المخراق : المنديل يلف ليضرب به .

(٢٤) نفس المصدر — ص ١٤٠ .

على أنه لم يخط منه بطائل فعاد إلى الإحشاء ، ثم عادها إلى الموصل من بلاد العراق ، وهكذا قضى ابن مقرب آخر عمره كالطريد الشريد محروما من أمواله وأملاكه وشاهد معاول الهدم في كيان الدولة العيونية تعمل عملها فنصح قومه وحذرهم لكن أحدا لم يعره أدنى اهتمام .

ومن صرخاته فيهم :

أيها بقايا عبد قيس انه

لا خير في ماض بكف جبان

لا تسقطن من هامكم وأنوفكم

همم الرجال وغيره الفتيان (٢٥)

وغير هذا كثير الا أن أحدا من قومه لم يستمع له ولم يأخذ تحذيراته مأخذ الجد والاهتمام .

رحلاته واتصالاته :

كان حتما على الأمير ابن مقرب صاحب الهمة والطموح وقد وقف منه قومه موقف العداء والمجافاة أن ينأى عنهم ويبتعد بنفسه لا حبا في العربة ولا قلقا عن الأهل والأوطان بل بسبب ما ذكرنا ، ولذلك كثرت رحلاته وتنقلاته بين بلده وما جاورها من أمصار طلبا للخبرة وابتعادا عن الضيم والذل :

مالى أجمجم في صدرى بلابله

ومنكب الأرض ذو منأى ومتسع

وكل أرض اذا يمتها وطن
وكل قوم اذا صاحبهم شيعي^(٢٦)

ويقول :

أقيما على حر المدى ، أو ترحلا
فلست براض منزل الهون منزلا
ولا تسألانى أين ترمى ركائبى
فما لكما أن تسألانى وتسألا
فقد سئمت نفسى المقام وشاقتنى
ركوب الفيافى مجهلا ثم مجهلا
وكيف مقامى بين أوباش قرية
أرى الرأس فيها من بها كان أسفلا^(٢٧)

ويشرح سبب بغضه وابتعاده عن الأوطان فان الحب والبغض لا بد
لهما من سبب :

لا تحسبوا بغضى الأوطان من ملل
لابد للود والبغضاء من سبب
قل ، وذل ، وخذلان وضميم عدى
مقام مثلى على هذا من العجب^(٢٨)

(٢٦) المصدر السابق — ص ٢٧٧ — الجمجمة : اخفاء الشيء فى
الصدر ، والبلبال : البرحاء فى الصدر ، والنتكب : ناحية كل شيء ، ويمتها :
قصبتها ، شيعى : أنصارى .

(٢٧) نفس المصدر — ص ٣٦٤ — والدى : جمع مدية وهى السكين ،
والهون : الذلة والضعف .

(٢٨) الديوان — ص ٧٦ ، وقل : بكسر القاف قلة المال ، ويضمها :
الفرد لا أحد له .

فليرحل لحياة العز أو لموت كريم :

سأرحل رحلة تذر المطايا
وشأرفها الخدية كالأهـان
فأما أن أعيش مصـاد عز
لجنـى عليه أو لجنـانى
وأما أن أموت وما عليها
سوى من خافنى أو من رجـانى^(٢٩)

وكانت أولى رحلاته خارج البحرين الى أرض (اليمامة) قام بها وهو صغير وقضى هناك شطرا من أيام الصبا ، وأشار الى ذلك في شعره بقوله :

لله أيام الصبا اذ دارنا
(حجر) القرى ولنا (باجـله) معهد^(٣٠)

وهذه الرحلة لم يتصل فيها بأحد من الأمراء أو الأعيان ، أما بعد ما كبر ، وحدث له ما حدث من جفاء وعداء مع قومه اضطر الى الرحيل فاتجه الى (بغداد) عاصمة الخلافة الاسلامية و (مكث بمدينة السلام أشهرا معدودة على طريقة من الخير مرضية محمودة ، لم تنكرها نفسه الأبية ، وهمته العلية اللوذية ، ولا تعرض لأحد بمديح ، ولا توخى منحة من ذى وجه صبيح ، ولا دنس عرضه بسؤال ، ولا تعرض لأجل المال ، لأنه يرى أن قدره يجل عن التعريض للنفال والقيام بين يدي عراقى وغيره بنطق مقال ، ثم عاد الى هجر البحرين من تلك الناحية

(٢٩) المصدر السابق — ص ٦٢٦ ، الشارف من الابل : المسن ، وحذى البعير : أسرع ، والآهان : العرجون ، والمصاد : الهضة العالية .

مؤملاً زوال الشحنة الجارية ٥٠) (٣١) ، عاد ابن مقرب من بغداد يحدوه الأمل الوطيد بأن الفتنة قد انتهت ، وأن أوار الأحقاد قد انطفأ وأن صفحة من الحب والصفاء قد فتحت لتصل محل صفحات البغض والخصام ، وهذا التفاؤل كان بسبب أن السلطة قد انتقلت من بنى عمه آل على بن عبد الله — وهم الذين اضطهده — إلى بنى عمه آل فضل ابن عبد الله ، وهؤلاء كانوا معه على وفاق ومودة ، ولذلك فإن شاعرنا حالما وطئت قدماه أرض الاحساء قصد أميرها محمد بن ماجد آل فضل وأنشده قصيدته البائية ومطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب

لنسأل ذاك الحى : ما صنع السرب ؟ (٣٢)

وفيهما يستعطف الأمير أن يرد إليه أملاكه ، فرعده هذا وعدا جميلا بأن يرد إليه أملاكه ولكن ابن مقرب طال انتظاره ، فأنشد قصيدة أخرى يستنجز الأمير وعده إياه :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك

شغفت بتذراف الدموع السوافك (٣٣)

ورغم ذلك لم يحظ من الأمير بشيء ، بل طالت مماطلة هذا الأخير على مدى الأيام ، وكان ذلك بسبب الوشاة أيضا ، فقد أوعزوا صدر الأمير عليه وأوهموه بأن مطالب الشاعر بعيدة المرامى ، وأن مطالبته برد أمواله وأملاكه ستعقبها مطالب أخرى لا نهاية لها ، وهكذا فإن الأمير محمد بن ماجد استنمع لهم وانصاع لرأيهم ولم يف للشاعر بشيء ،

(٣١) مقدمة الديوان — طبعة الهند ، وطبعة الاحساء ص ٧ .

(٣٢) الديوان — ص ٢٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ، والدكك من الرمل : الأرض التى غيها غلظ .

ورغم ذلك فإن ابن مقرب ضرب صفحا عن هجو هؤلاء الوشاة احتقارا
لقدريهم واستصغارا لشأنهم ، ثم انه خاف على نفسه منهم فرحل الى
القطيف ، وهناك امتدح الأمير فضل بن محمد العيوني بقصيدتين ،
وأقام هناك مدة ، ولكنه أيضا لم يظفر من ورائه بظائل ، فعاد مرة أخرى
الى الأحساء ، ولكنه هذه المرة لم يراجع الأمير محمد بن ماجد بشيء
ثم ان أبو القاسم محمد بن مسعود العيوني قتل ابن أخيه محمد بن
ماجد وصعد على أريكة الحكم مكانه ، فمدحه ابن مقرب بقصيدتين
عصاوين ، كما امتدح ولده الفضل بقصيدتين من عيون شعره ، غير
أن الفضل هذا في أواخر أيامه بات مستبدا غشوما أحزق التصرفات ،
فعاث في أملاك عشيرته ، وأقطعها للأباعد والغرباء ، فعاتبه ابن المقرب
على هذه السياسة الرعناء عتابا شديدا ، ثم رأى أن يبتعد عنه كلية ،
فرحل الى (العراق) مرة ثانية ، وحالما وصل الى هناك جاءتته الأنباء
بأن الأمير علي بن ماجد قد ثار على قتلة أخيه ، واسترد السلطة في
الأحساء ، فعاد ابن مقرب مسرعا الى بلده ، وامتدح اميرها الجديد
بقصيدة منها :

صدت فجذت جبل وصلك زينب

تيها ، وأعجبها الشباب المعجب (٣٤)

ولم يمدحه الا قطعاً لالسنة الحساء حتى لا يقولوا انه لم يمتدحك
مثلاً مدح اخوتك والذين من قبلك (٣٥) ، وبعد أن زال عرش هذا الأمير
كحال من سبقه ، وتولى بعده الأمير مقدم بن غرير العيوني لم يمتدحه
انشاعر بشيء ، وذلك لسوء طباعه وخسة أخلاقه ، ومن ثم شد ابن
مقرب رحاله قاصدا العراق وذلك للمرة الثالثة ، وتوجه صوب (الموصل)
وديار بكر ، وكانت نيته أن يفد على الملك الأشرف بن العادل الأيوبي (٣٦)

(٣٤) الديوان — طبعة الأحساء — ص ٨٤ ، وجذ الحبل : قطعه .

(٣٥) الديوان — طبعة الأحساء — ص ٩ .

(٣٦) الملك الأشرف : هو موسى بن محمد العادل من ملوك الدولة

الايوبية ، توفي سنة ٦٣٥ هـ .

صاحب الجزيرة الفراتية ، ووصل الى الموصل سنة ٦١٨ هـ ، ويغنى بها حيث سمع أن الملك الأشرف قد غادر بلاده عندما استصرخ داعي الجهاد نخوته الاسلامية ، فنهض هو واخوته وجنوده للقاء الأفرنج ونزل (دمياط) فبعدت الشقة بينه وبين الشاعر الذي كان يمنى نفسه بلقاء هذا الملك والحضور عنده لما بلغه من الولوع بذكره والحرص على أن يمتدحه بشيء من أشعاره^(٣٧) ، ولما وردت عليه وهو بالموصل أنباء انتصارات الملك الأشرف على الصليبيين في دمياط نظم قصيدة بهذه المناسبة أشاد فيها ببطولة هذا الملك وكفاحه ومما جاء فيها :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرعته وهو باسسق

يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق

وقد جاءت الأفرنج من كل جهة
كان تداعيهما السيول الدوافق^(٣٨)

وقبل ذلك اتصل في الموصل بواليتها بدر الدين لؤلؤ^(٣٩) وامتدحه بقصيدة مطلعها :

خطوا الرجال فقد أودى بها الرجل
ما كلفت سيرها خيل ولا أبيل^(٤٠)

وقد أشار الى هذه الرحلة — الرحالة العربى (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان ، وذكر أنه لقي الشاعر بالموصل فى تلك السنة ، وسمع

(٣٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ١٠ .

(٣٨) المصدر السابق — ص ٣٠٠ .

(٣٩) هو لؤلؤ بن عبد الله الاتاكي ، أمير الموصل ، كان على الهمة وقد طالبت أيام حكمه ، توفى سنة ٦٥٧ هـ .

(٤٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٣٩ .

شيئا من شعره^(٤١) ، وعندما هم ابن مقرب بمغادرة الموصل ودع
بدر الدين بقصيدة من عيون شعره مطلعها :

انزل لتلثم ذا الصميد مقبلا
شرنا واجلالا لمولى ذا الملا^(٤٢)

وفي احدى سفراته الى بغداد التقى بالنقيب تاج الدين اسماعيل
ابن النقيب جعفر العلوى الحسنى وحضر مجلسه ، فخلع عليه
ابن النقيب بخلة ثمينة وامتدحه ابن مقرب بقصيدة :

(تخفى الصبابة والألحاظ تبديها
وتظهر الزهد بين الناس تمويها^(٤٣))

ومن الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم شاعرنا واتصل بهم الخليفة
العباسى الناصر لدين الله احمد بن المستضى^(٤٤) ، اتصل به في بغداد
سنة ٦١٣ هـ ، وخصه بجليل العبارة ورفيع الخطاب ، وكان ينشده
قصائده بين الحين والآخر ، ومن مظاهر ضلتهما القوية أن الشاعر في
احدى سفراته ، حمل خزينة من الخليفة العباسى الى الأمير فضل
ابن محمد العيونى ليضرب على أيدي المفسدين ويؤدب الخارجين على
الدولة وينتقم من قتلة أبيه . ومن أجود مدائح ابن المقرب في الخليفة
الناصر قصيدة :

أمارات سر الحب مالا يكتُم
وأبين شئ ما يجن المتيم

(٤١) معجم البلدان — لياقوت الحموى — ج ٦ — مادة « العيون »
ص ٢٥٩ .

(٤٢) الديوان — ص ٤٢٢ .

(٤٣) المصدر السابق — ص ٦٤٩ .

(٤٤) الخليفة الناصر ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة ٥٧٥ ، وطالت
مدة خلافته — توفي سنة ٦٢٢ هـ .

(٤٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٤٨ ، أبين شئ : اظهره ،
ويجن : يستر .

وأخرى :

أرتها المآقى ما تكن الجوانح
فبح فالمعنى بالصباية بائح^(٤٦)

وثالثة مطلعها :

الأم أناجى قلب حيران واجم
وأنظر عودى بين لاح وعاجم ؟^(٤٧)

وفى بغداد أيضا اتصل بأحد رجالات الخليفة الناصر المبرزين وهو
فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدوامى ، وذلك سنة ٦١٤ هـ
ومدحه بقصيدة مطلعها :

دعوه فخير — الرأى أن لا يعنفا
فلو كان يشفى داءه اللوم لاشتقى^(٤٨)

ومن أعلام الأدب المشهورين الذين التقى بهم فى بغداد الأديب
إلبارز (ابن الشعار الموصلى) صاحب كتاب « قلائد الجمان فى شعراء
الزمان » وذلك سنة ٦٢٣ هـ ، وذكره ابن الشعار بعد ذلك فى كتابه آنف
الذكر وأشاد بفضلته وذكر طرفا من أشعاره .

ومر فى إحدى رحلاته ببلدة (واسط) واتصل بعاملها الأديب
عميد الدين أحمد بن جعفر المعروف بابن الديبى ، فمدحه أول الأمر ،
ثم عاد فصب عليه جام غضبه بهجاء لاذع ، وذلك بسبب واقعة بينهما ،
حيث تروى الأنباء أن ابن مقرب كان مارا ببلدة واسط ومعه بضاعة من
حديد ، ففرض ابن الديبى عليها — بواسطة عماله — مكوسا عالية ،

(٤٦) المصدر السابق — ص ١٢٠ .

(٤٧) نفس المصدر — ص ٤٩٠ ، لحا العود : قشره ، وعجم العود :

أخبره .

(٤٨) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

فما أعجب الشاعر ، فهو ما كان يتوقع هذه المعاملة من ابن الدببى
خصوصا وأنه مدحه بقصائد من شعره ، وازاء هذا المصنيع هجاه
ابن مقرب بقصائد مقذعة لازعة ، يقول فى احداها :

بع (واسطا) بالنأى والهجر
ودع المـرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقتها على الكفر

ومثله لا يستحق المدح :

ألا فمثلك لا أجود له
بالمـدح فى نظم ولا نشر

ويطلب منه أن يرد عليه مدائحه فيه :

أردد على بلا مراجمة
ما خاننى فى نظمه فكرى (٤٩)

ومن أشهر أمراء عصره الذين كانت تربطه بهم صلات قوية أمير
البصرة (شمس الدين باتكين) (٥٠) فكان يفد عليه كلما مر بالبصرة وقد
قال فيه قصائد كثيرة منها قصيدة مطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه من الغمض السادا (٥١)

(٤٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٤ ، وصبا : خرج من دين
لاخر .

(٥٠) هو باتكين بن عبد الله الرومى الناصرى ، كان واليا من الشعراء
العلماء توفى فى بغداد سنة ٦٤٠ هـ .

(٥١) الديوان : ص ١٨٢ .

وأخرى مظلما :

كره الله ما أحب الأعداء
وأبى ما أراد أهل العناد^(٥٢)

وقال يودعه حين أراد الخروج من البصرة :
أبا شجاع رعاك الله من ملك
سما فما مثله في الناس من أحد
أما الفراق فتأتينا رواحله
غدا ويحدثن للترحال بعد غد
والله يعلم أنى لا أسـربه
لكن أخاف شقاء الأهل والولد^(٥٣)

وعدا هؤلاء الأمراء والأعيان والملوك الذين التقى بهم الشاعر فقد كان على صلة وثيقة بعلماء واسط بغداد كالفقيه العالم الشافعي محب الدين الواسطي^(٥٤) ، ومدحه ابن مقرب بشعر له ، وكالأديب البغدادي ابن نقطة صاحب كتابي (التقييد) و (المستدرك على الاكمال) وقد ذكر هذا الأديب شاعرنا في كتابه الأخير مثنيا عليه ، والتقى أيضا بالعالم الحنبلي عبد الله بن الحسين العكبري^(٥٥) لواء أهل العربية والأدب والفرائض ببغداد ، وقد حكم لابن مقرب بالتفوق في الشعر .

والخلاصة التي نخرج بها من كل هذا هي أنه وان كانت الظروف القهرية قد دفعت بابن مقرب الى النأى والهجران الى خارج وطنه الا

(٥٢) المصدر السابق — ص ١٩١ .

(٥٣) الديوان — ص ١٥٩ ، وحجج الراحلة : شد عليها الحديج وهو شيء كالحفة لحمل النساء .

(٥٤) من أهل واسط ، وكان خيرا دينيا ، وله معرفة تامة بمذهب الشافعي والفرائض والحساب ، توفي سنة ٦١٩ هـ .

(٥٥) من أئمة اللغة واشتغل بالأدب والفرائض والحساب ، وهو شارح ديوان المتنبي — توفي في بغداد سنة ٦١٦ هـ .

أن هذا التقلب في البلاد المختلفة أفاده جدا ودفع به الى مجالس العلم ومحافل الأدب مما عاد على شاعريته بأنفع الأثر وأقواه ، وأكسبه هذا التنقل أيضا خبرة ومشاهدات انعكست بدورها على شعره بشكل كبير .
ومن الناحية التاريخية فان شعره هذا يتيح لنا الوقوف على مدى الروابط بين قطرى البحرين والعراق في ذلك الزمن الذى انقطعت فيه الصلات أو كادت بين أجزاء العالم الاسلامى .

ثقافته :

بقيت مصادر الثقافة الأساسية في القرن السادس والسابع الهجريين هي هي لم تتغير عما قيل ، وأهمها القرآن الكريم والحديث وعلوم السيرة النبوية واللغة العربية وآدابها وتاريخ العرب وأيامهم ، والشاعر ابن مقرب استقى من جميع هذه منابع الشيء الكثير ، هذا الحكم نقرره بعد القاء نظرة بسيطة سريعة على شعره الذى بين أيدينا الذى نشك أنه يمثل كل شعره .

وعلى الرغم من أن ابن مقرب لا يذكر لنا في شعره شيئا عن أساتذته أو من تتلمذ عليهم ان كان ذلك الا أننا نستطيع الاستنتاج بأنه تتلمذ على يد أساتذة ومربين وذلك من عدة أمور :

أولاهما :

معرفتنا أنه أمير من أسرة مالكة ، رجرت العادة أن الملوك والأمراء كانوا يأتون بالأساتذة والمربين المشاهير في عصرهم لتأديب أولادهم .

وثانيها :

أمر واضح في شعره وهو سعة اطلاعه على تاريخ بلاد البحرين وتاريخ أسرته ومواقف رجالاتها كما يتبدى بكثرة في مدائحه لهم . وهذه النقطة بالذات تدفع الباحث الى الجزم بأنه أخذ هذا التاريخ عن الملمين بهذه الناحية حتى ولو كان والده على الأثر .

على أن أبرز معالم الثقافة عند ابن مقرب تضلعه في علوم العربية وآدابها ويتبدى ذلك في مراعاة قواعد العربية بكل دقة وأيضا فانه أشار في شعره الى أن أحد ألوية العربية وأئمة اللغة والأدب في زمانه قد شهد له بالتفوق والسبق على من تقدمه وهذا الامام هو الشيخ العلامة أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى الحنبلى، وما كان هذا العلامة ليشهد للشاعر بذلك لو لم يكن الأخير مبرزا فيها ، ويقول ابن مقرب في ذلك :

لقد تقدمت سبقا من تقدمنى
سنا وأدرك شأوى فارط الأول
بذاك قدوة أهل العلم قاطبة
أبو البقاء محب الدين يشهد لى^(٥٦)

والمجال الثقافى الآخر الذى برز فيه شاعرنا هو التاريخ وأيام العرب الماضية ، سواء ما كان يختص بتاريخ بلاده وأسرته أو التاريخ العربى والاسلامى عموما فهو يذكر فى قصائده الشئ الكثير من هذه المعلومات التاريخية مما يشهد بتبريزه فى هذا المجال^(٥٧) . ولا شك أن الملمه بالتاريخ أفاده فى ترصيع مدائحه لأمرأه أسرته وغيرهم بذكر مواقفهم السالفة والاشادة بها .

وكذلك له بعض الاقتباسات من القرآن الكريم تشهد بأنه استقى من هذا النبع العظيم كمصدر للثقافة من ذلك قوله :

ولا تهنوا واستشعروا الصبر جنة
وعزما فما للحرب الا اعترامها

(٥٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٨٢ ، الشاؤ : المدى والغاية ، فارط الأول : بعيدة .
(٥٧) راجع الديوان ص ٢١٩ ، ص ٣٥٠ ، ص ٥٢٦ .

فانكم ان تألموا فعدوكم
كذلك وللأمر العظيم عظامها (٥٨)

وقوله :

المابد المهيي قيناما ليله
اذ ناشئات الليل أقوم قبيلا (٥٩)

وكما قلنا فان كثرة رحلات الشاعر وتقلباته في مجالس الأدب والعلم كان مصدرا آخر من مصادر اكتسابه العلم والخبرة ، والاحتكاك بالناس زوده بالتجارب التي انعكس أثرها على شعرب فصقلته وزادته قوة على قوة . وهكذا فان ابن مقرب أخذ من ثقافة عصره وزمانه أوفائها وأعظمها ، وبرز في نواحيها المختلفة بشهادة علماء عصره وأهل زمانه ، وبشهادة شعره الذي بين أيدينا ، والذي يعطينا الدليل تلو الدليل على طول باع صاحبه في مجال الثقافة والأدب كلاهما .

شخصيته وخلقته :

ان من يقرأ شعر ابن مقرب يتبادر الى ذهنه لأول وهلة أن وراء هذا الشعر شخصية متميزة تأسر القارئ وتفرض نفسها عليه ، ولالحق فان شعره يمثل نفسيته أوضح تمثيل ، ويعبر عن حقيقته أصدق تعبير ، ان هذا الشعر يمثل صاحبه من ناحية العزة والقوة وسمو القدر وصدق الرجولة وبعد الهمة ، كيف لا وهو القائل :

لا صاحبتي نفس لا تبلغني
مراتب العز لو في ناظر السبع
سيمحب الدهر مني ماجد نجد
لو داس عزنين أنف الموت لم يرع

(٥٨) الديوان — ص ٤٦٣ ، ولا تنهوا : لا تضعفوا ، وجنة : وقاية ١٦

(٥٩) المصدر السابق ص ٤٠٨ .

وبين جنبه عزم وهم لا يسمعها هذا الدهر :

وبين جنبى عزم يقتضى همما
لو ضمها صدر هذا الدهر لم يوسع^(٦٠)

وعنده صبر الكهول والقدرة على تحمل نوائب الدهر :

كم عاين الدهر منى صبر مكتهل
اذ ليس يوجد صبر العود فى الجذع
وكم سلقانى من كأس على ظمأ
أمر فى الطعم من صاب ومن سلع

ومن شيمه الوفاء للأخلاء والصفح عن المسيئين :

سل الأخلاء عنى هل صحبتهم
يوما من الدهر الا والوفاء معى
ألقى مسيئهم بالبشر مبتسما
حتى كأن لم يخن عهدا ولم يضع
وكل ذنبه عندهم أنه يتورع عما يفعلون من سيئات الأمور :
لقد تفكرت فى شأنى وثأنهم
فبان لى أن ذنبى عندهم ورعى^(٦١)

ومن صفاته البارزة نفوره من الظلم وأنفته من الذل والاستكانة
للضيم :

وللموت أحيا من حياة بلدة
يرى الحر فيها الغبن من لا يشاكلة

(٦٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٣ — ناظر السبع : عينه
النجد : الشجاع ، عرنين الأنف : ما صلب من عظمه ، لم يرع : لم يخف .
(٦١) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٢٧٤ ، والمكتهل : المتفانى
والعود : المسن من الابل ، والجذع صغيرها ، الصاب : شجر مر ، والسلع :
نوع من الصبر .

وما غربة عن دار ذل بغربة
لو أن الفتى أكدي وغث ماكله (٦٣)

وهو تقى حليم يؤدى الفروض والنوافل :

ألست أوفاكم عهدا وأحلمكم
عقدا ، وأقومكم بالفرض والنفل (٦٣)

مما تقدم يتضح لنا بعض جوانب شخصية ابن مقرب فلقد كان
عزيزا في نفسه ، عاليا في همته ، طموحا الى المجد ، تواقا الى المعالى ،
أنوفا عن الذل ، صبورا على حوادث الدهر مع كثرة ما ابتلاه به دهره
فهو كما قال :

منيت من الزمان بعنقـفـيز
قليل عندها حـز الشـغار
فراق أحبة ، وذهاب مال
وضيم أقارب ، وأداة جار
فلا والله لا وجد كوجدى
ولا عرف اصطبار كاصطبارى (٦٤)

وهو يرى أن المعالى تتاديه وتطالبه بالنهوض ، فاذا أراد ذلك
قعدت به أسباب خارجة عن ارادته ، منها قلة المال وكثرة الأعداء ، وعدم
مناصرة أبناء العم :

كم تقاضانى المعالى عزمة
يهتف الشادى بها فى كل ناد

(٦٢) المصدر السابق — ص ٣٣٠ ، الغبن : الظلم ، لا يشاكله :
لا يشابهه .

(٦٣) نفس المصدر — ص ٣٨١ .

(٦٤) الديوان — ص ٢١٥ — والعنقـفـيز : الداهية ..

فاذا رمت نهوضا قمـدت
بى أمور أنا منها فى جهاد
قلة المال وكثر فى العدى
وابن عم رأيـه غير السداد^(٦٥)

ولكنه يقسم بالله الذى أجرى الماء رزقا للعباد أنه لن يخضع للذل
والاستكانة فهو ذو قلب شجاع فينبغى على العدو ألا ينخدع بهدوئه
الظاهر :

أحذار الموت أبقى هكذا
لا ومجرى الماء رزقا للعباد
ان ترى شخصى لأمر ساكنا
فلعمري ان قلبى فى طراد
رب ذى هم تراه مطرقا
وهو فى اطراقه حية واد

ويقول معبرا عن شجاعته ومضاء صارمه :
ما اعتذارى والوغى تعرفنى
والعوالى والمواضى والهـوادى
قد تساوى فى مضاء صارمى
وسنانى ولسانى وفؤادى
فارم بى ما شئت واعلم أننى
ليث غاب ، وشهاب ذو اتقاد^(٦٦)

ان ابن مقرب كثير الحديث عن نفسه ، شديد الاعجاب بمواهبه
وبنسبه وبشجاعته ، كما أنه مؤمنا أشد الايمان بعدالة قضيته ، وبالرغم
من أن قومه ناصبوه العداء وأبعدوه وتحذوا مشاعره وضايقوه فى

(٦٥) المصدر السابق — ص ١٧٨ .

(٦٦) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ١٨١ .

معيشته ، إلا أنه ما نسى صلة القرابة وحق العشيرة ، وكان لهم اللسان
الذرب المبر عن أمجادهم ، المنافع عن حوزتهم بشعره وبيانه فكان لهم
بمثابة الناطق الرسمي أو الصحافة اليومية الحزبية ، حتى أن أطول
قصيدة في ديوانه وعدد أبياتها (١٥٠) بيتا ، قالها كلها في غرض واحد
هو الاقتحار بآبائه وأهل بيته ومطلعها :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما^(٦٧)

وكان في غربته حفيا بأبنائهم ومسئلا عن أحوالهم ، وكان يبخل
بمودتهم عن قطع الرحم ، معتدا بالواحد منهم ، يحسبه سيفه البتار
في مواجهة الحياة والناس :

وانى حفى عنهم ومسائل
بهم حيث يثوى السفر أو ينزل الركب
وانى بقومى للضنين واننى
على بعد دارى والتنائى بهم حذب
ولى فيهمو سيف اذا ما انتضيت
على الدهر أضحى وهو من خيفة كلب^(٦٨)

فاذا عرفنا هذا الوفاء من ابن مقرب لعشيرته مع ما لاقاه منهم
من جحود وجفاء ، أدركنا نبل أخلاقه ، ومدى التصاقه بصفات أسلافه
النجباء الذين اعتزوا بآبائهم وأهلهم بالرغم من كل شيء .

ومن صفات ابن مقرب وأخلاقه عطفه على الضعفاء وإحسانه الى
المحتاجين على الرغم مما علمت عن ظروفه وقسوة الحياة عليه :

(٦٧) المصدر السابق — ص ٥٢٦ ، فقم الخطب : عظم .

(٦٨) الديوان — طبعة الإحصاء — ص ٣١ ، السفر : الجماعة
المسافرون ، ويثوى السفر : يقيم ، أضحى من خيفة كلب : أى انى اذا
استعنت بأقاربنى على الدهر فانه سيخافنى .

فلا رعى الله أرضا لا أكون بها
سما لمستكف غيثا لمنتجع^(٦٩)

والمنتجع هو طالب الكلأ أو المعروف ، أى أن الشاعر يدعو الله
على أرض لا يكون — إذا حل بها — غوثا وعونا لطالب العون وذو الفاقة
المحتاج ، ومن ذلك أيضا قوله وهو يتحدث عن قبيلته :

ولست بهجلم على ما يسوءها
ولا ناطق بالعيب منى لها فم
ولا قابضى فضل الغنى عن فقيرها
ولا باسط كفالها حين أعدم
وانى لأقصاها إذا ثاب مغنم
وانى لأدناها إذا ناب مغرم^(٧٠)

ويقول ابن مقرب انه لا يتحدث عن أهله بسوء ، ولا ينطق لسانه
عنهم بعيب ، وإذا أسعفه الدهر بغنى وسعة في المال فهو لا يمكك بفضل
هذا المال عن فقير من أهله ، وإذا حدث وأصابته فاقة وعدم فلا يمد يده
بالسؤال وطلب النوال لأحد منهم ، ثم ان البيت الثالث يذكرنا في معناه
بقول الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا الأنصار رضوان الله عليهم:
« انكم لتثقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

ولو أردنا الاستطراد وراء الشواهد الكثيرة من شعره لكى ندل على
صفاته وأخلاقه فلن ننتهى الى حد لكثرة ذلك في ديوانه ، ولكن نختم
هذه الفقرات بقول أحد شراح ديوانه القدماء عن مناقبه وخلاله :

(وقد أعطى الله الأمير الأجل جمال الدين أبا عبد الله على
ابن مقرب... — من هذه الحلة أفضل الانصبا وخصه بخصائص لم ينلها

(٦٩) المصدر السابق — ص ٢٧٤ .
(٧٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٤٩ ، أعدم : افتقر ، أقصاها :
أبعدها ، ثاب مغنم : عاد واجتمع .

أحداً من الأدباء ، حتى صار فريد دهره ، ومقدما في هذا الشأن على كثير من سابقى عصره ، وشهد له بالنسب كل ناقد أريب ، وملكه زمام الفضل كل فاضل أديب ، مع ما يناسبه الى هذه الرتبة الجلية من شرف البيت ، وجميل الأحدوثة والصيت ، وكرم النفس المتوافر ، ونزاهتها ومجدها المتكاثر ، والتمسك بالدين والعفاف ، وحسن الخلق والانصاف ، قلم يقصر عن الكمال بقوت فضيلة ، ولا دنس عرضه بارتكاب رذيلة ، بل كمل فضلا وخلقا ، وأخذ من كل نفيس خطا وحقا (٧١) .

فابن مقرب حقا كما قال عن نفسه :

هل جاء قومي وأخذاتي الذين هم
ان ارم من قبل الرامين لا قبل
بأننى لم أرد وردا أعاب به
ولم أقف ذات يوم موقف الخجل ؟ (٧٢)
هذه هي أخلاق ابن مقرب وصفاته .

معتقده :

ابن مقرب مسلم سنن المعتمد ، ولا مجال لن يرى من مؤرخي الشيعة أنه شيعي المعتمد لجرد أن ديوانه احتوى على قصيدة قالها في آل البيت ، وهي قصيدة تترخ بثنت من صور التشيع ، وفيها استرسال في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنهما ووصف لمقتله في موقعة كربلاء ، وفيض من اللعنات على قاتليه ، وكثير من النذب واللفافات والأحزان والحسرات عليه ومطلعها :

يا باكياء لدمنة وأربع
ابك على آل النبى أودع (٧٣)

(٧١) المصدر السابق — ص ٤ .

(٧٢) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٤ .

(٧٣) المصدر السابق — ص ٢٥٩ .

اذ أغلب الظن أن هذه القصيدة مقحمة على الديوان ، لأن روح القصيدة يخالف الطابع الفكرى لابن مقرب كما هو فى باقى شعره ، وأيضا لأن ابن مقرب وأسرته وأبناء عمه العيينيين ساروا فى معتقدهم وفى أحكامهم وتطبيقاتهم لحدود الشريعة وفق مذهب أهل السنة ، وكانت أهم مواقف خالدة فى احياء ما اندرس من السنة ، يقول أحد شراح ديوانه حول القصيدة آنفة الذكر شاكا فى نسبتها اليه : (وهى قصيدة أكبر الظن أنها مقحمة على الديوان منسوبة الى الشاعر ، والا لسرى هذا اللون الى قصائده كلها ، أو الى كثرتها ، ويؤيد هذا الظن ما نجده فى نهاية القصيدة من نسبتها الى الشاعر بطريقة تقوى الشك فيها) (٧٤) ، والذي أشار اليه من طريقة نسبة القصيدة الى الشاعر ما قاله الناظم فى آخرها :

يا ايكم نفثية مصدور أتت
من مقحم الشاعر الى مضجع
مقربى ، عربى طبعه
ونجسه ، وليس بالمدرع (٧٥)

فنسبتها اليه بهذه الطريقة هو سبب آخر للشك فيها .
وعدا هذا فان هناك أسبابا أخرى تجعلنا نجزم بأن هذه القصيدة ليست من نظم ابن مقرب بل هى ملصقة بديوانه مقحمة عليه ومنها :

(أ) أن القصيدة انفردت بها نسخة خطية واحدة دون سائر نسخ الديوان المخطوطة الأخرى على كثرتها .

(ب) ليس فى شعر ابن مقرب على سعته وكثرته أى صورة من صور التشيع ، وهذا من شأنه زيادة الشك فى نسبة القصيدة اليه ،

(٧٤) الديوان — طبعة الاحشاء ، ص ١٢ .

(٧٥) المصدر السابق — ص ٢٦٦ .

اذ لو كانت القصيدة من شعره حقيقة لرأينا في قصائده الأخرى شيئا من سمات هذا اللون الذى اتصفت به القصيدة .

على أن من نسبوا اليه التشيع استدلوا على ذلك بأدلة أخرى فى زعمهم ، منها رحلاته المتتابعة الى العراق ، وهناك كما هو معلوم مشاهد الشيعة المقدسة ، ومنها أيضا أنه مدح آل البيت رضوان الله عليهم فى شعره ، وهى حجج واهية فى أغلبها ، ذلك أنه كما علمنا لما وقعت الجفوة بين ابن مقرب وبين قومه للأسباب التى ذكرناها ، لم يجد غير بلاد العراق ملجأ وملادا لأنها أقرب البلدان الى وطنه ، ولأن فى العراق من الولاة والأمراء من يلتجئ الى حماهم ويلوذ بكنفهم ، ولأن بغداد لا تزال العاصمة — ولو رمزا — للعالم الاسلامى ، ولا يزال بنو العباس فيها يتوارثون منصب الخلافة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان التاريخ لم يثبت لنا اطلاقا أن ابن مقرب قد عرج على الأماكن المقدسة عند الشيعة ، اذ لو حدث ذلك لظهر أثره فى شعره بكل تأكيد . أما مدحه لآل البيت فان حبههم ليس وقفنا على الشيعة دون أهل السنة ، فان أهل السنة يجلون أهل البيت ويكون صادق الحب لهم واذا كانت السياسات والحكام فى بعض فترات التاريخ قد عملوا على أن يكبت الناس حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدورهم خوف الاضطهاد فان هذا لا يعنى أن هذه العاطفة مقصورة على طائفة الشيعة وحدهم ، وزيادة على ذلك فان صلة ابن مقرب بعلماء السنة ومدائحه الكثيرة لهم تنفى عنه أيضا تهمة التشيع ، وكذلك مدائحه للأمير باتكين لأنه أحيا سنن الامام مالك وأبى حنيفة والشافعى . كل هذا ينفى الشك فى معتقد الشاعر ويؤكد ما قلناه عنه فى هذا الموضوع وما ذهبنا اليه .

ومن وصفه لمعاهد العلم التى أنشأها الأمير باتكين فى البصرة
قولـه :

أحيى بها للشافعى ومالك
وأبى حنيفة أحرفا وفصولا

وبجامع بذ الجوامع كلها
حسنا وعرضا في البناء وطولا (٧٦)

وكذلك مدح علماء السنة ومنهم الشيخ محب الدين الواسطي وكان
علما خيرا دنيا ، وله معرفة تامة بمذهب الامام الشافعي أصولا وفروعا ،
فقال يودعه عند خروجه الى الحج :

ألقت اليك مقادها الأيـام
وأمدك الاجال والاعظام
ومشى اليك الدهر مشية خاضع
وقضى بما تختاره العلام
وبقيت ما بقي الزمان مخلدا
في حيث تقعد والأنام قيام

ومدحه بأنه أحيأ بزهد ذكرى بعض الأولياء الصالحين من أمثال
بشر والجنيد وعامر وكلهم كانوا على طريقة أهل السنة والحديث فقال :

بك يا محب الدين طالت فاعتلت
شرفا على الخطيئة الأقدام
أحييت بشرا والجنيد وعامرا
زهدا وكل اذ يعد امام
وبأنه عمل على اظهار واشهار المذهب الشافعي بما أقام له من
حجج :

وأقمت للقرشي في آرائه
حججا يقصدونها النظام (٧٧)

(٧٦) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٤١٠ ، وبذ : فاق .
(٧٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٥٦٩ — والقرشي هو الامام
الشافعي رضى الله عنه .

أجد المؤلفين من القرن العاشر الهجرى فى احدى المخطوطات التاريخية
« وذكر انه مر بتلك القرية وهو فى طريقه الى الهند » (٨٣) •

ومهما يكن من اختلاف حول سنة وفاة الشاعر ، فانه توفى بعد
عمر لا يقل عن سبعة وخمسين عاما ، قضاها — أو أكثرها — فى صراع
مرير مع دهره ورجالاته ، واذا كان هذا الصراع قد أرهق صاحبه
— وهذا لا شك فيه — فانه من ناحية أخرى عاد على الأديب العربى بشروة
شعرية كبيرة ، وانتاج بيانى ضخم •

نبذة تاريخية عن وطن الشاعر وأسرته :

البحرين هى وطن الشاعر ابن مقرب العيونى ، فيها مولده ونشأته ،
وهى وطن آبائه وأجداده ، فقد سكنتها فى الجاهلية قبائل عبد القيس
البحرانية التى تنسب اليها أسرة الشاعر (٨٤) ، وكان لهم فى معظم
الأحيان السيادة والملك ، واذا كان بعض المؤرخين ينسب ابن مقرب الى
غير البحرين فهذا خطأ (٨٥) • فابن مقرب احسائى من البحرين من قرية
العيون ، وهى فى الطرف الشمالى للاحساء ، وسنحاول فيما يلى أن نلم
ببعض تاريخ البحرين حتى نلقى الأضواء على حياة الشاعر من جميع
جوانبها •

البحرين فى الاصطلاح التاريخى — يطلق على البلاد الواقعة على
الساحل الغربى للخليج العربى ، من البصرة شمالا حتى عمان جنوبا ،
وكانت عاصمة البحرين قديما (هجر) أو الاحساء ثم تلاشى اسم البحرين
عن هذه المناطق الواسعة تدريجيا مع الزمن ، وأصبح اطلاقه مقصورا
على مجموعة من الجزر الصغيرة أكبرها جزيرة (أوال) ولا زالت تعرف
بهذه التسمية حتى يومنا الحاضر •

(٨٣) مخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ — دار الكتب المصرية ، ص ٣٥٨ •

(٨٤) محدود بهجت سنان — البحرين درة الخليج — ص ١٣ •

(٨٥) جاء فى النسخة المخطوطة الموجودة بمكتبة محافظة الاسكندرية
(هذا ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى) •

وقد تحدث عنها جغرافيو العرب القدماء في كتبهم • فقال عنها « ياقوت الحموى » في معجم البلدان (البحرين اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر ، الواقع بين جزيرة العرب وبلاد فارس ، تمتد من البصرة شمالا الى عمان جنوبا ، ومن الدهناء غربا الى البحر شرقا^(٨٦)) وقال « الأزهرى » عن سبب تسميتها بهذا الاسم :

(وانما سموا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الاحساء وقرى حجر ، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ)^(٨٧) وقال عنها الادريس في كتاب « نزهة المشتاق » : (وسميت الجهة بالبحرين ، بجزيرة أوال ، وذلك أن جزيرة أوال بينها وبين فارس مجرى ، وبينها الى بر العرب مجرى ، هي ستة أميال طولا ، وعرضا كذلك)^(٨٨) •

والبحرين غنية عن التعريف فهي بلاد عريقة في الحضارة ، حتى يقال أحد المؤرخين بأن الخليج العربى هو مهد الحضارة الانسانية بل مهد الجنس البشرى نفسه ، وأن سكان جزره وساحله العربى هم أول من رفع شراعا فى البحر ، واقتحموا لججه وأخطاره ، فكانت بلادهم بمثابة حلقة اتصال بين الشرق والغرب وقال بعض المؤرخين أن الفينيقيين هم من هذه الربوع ، وأنهم سكنوها قبل نزوحهم الى سواحل لبنان على الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وقد نقلوا معهم مبادئ الأبجدية وجوانب خالدة من الحضارة^(٨٩) ، والحق أن بالبحرين اليوم من الأدلة المادية الملموسة ما يثبت « فينيقية الخليج » والفينيقيون عرب فى أصح الروايات ، ولأغراض تجارية حاول كثير من ملوك آشور

(٨٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان ، وانظر تاريخ الاحساء ، لحمد عبد الله الانصارى ص ٣ •

(٨٧) الأزهرى — تهذيب اللغة — ٥ — ٤٠ •

(٨٨) العرب — مجلة شهرية تصدر عن دار اليمامة بالرياض — عدد

مايو — يونيو ١٩٧٩ — ص ٩٨ •

(٨٩) البحرين ذرة الخليج — بهجت سنان ، وانظر دراسة عمران

العمران عن ابن مقرب ، ص ٣٨ •

وبابل واليونان اخضاعهم لنفوذهم ، ومن هؤلاء الاسكندر المقدونى الذى جهز أسطولا هائلا طمعا فى الاستيلاء عليها ، ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه ، ومنذ قديم الأزل التقى على أرض البحرين الهندى والافريقى والكلدانى والفارسى والبابلى والآرامى والفرعونى والاغريقى وأجناس غيرهم مما يدل على مجدها التجارى والحضارى .

وكانت السيادة فى العصر الجاهلى فى البحرين للعرب ، وزعم بعض مؤرخى الشعوبيين أن الفرس قد استعمروها بعض الوقت قبيل الاسلام وفى السنوات الأولى للبعثة ، ولكنهم اعترفوا بأن ولايتها كانوا من العرب .

وبعد ظهور الاسلام ، أرسل عرب البحرين وفدا برئاسة الأئجج من عبد القيس ليفاوض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى اقنعهم بدخول الاسلام ، فعادوا الى البحرين وأسلم كثير من أهلها^(٩٠) ، ثم قدم عليهم العلاء الحضرمى معلما ومرشدا ، ولما بلغ أهل البحرين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب ، ارتدت طائفة منهم بضاحية البحرين ، فجهز لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمى^(٩١) ولكنه لم يتمكن من اخضاعهم ، فجاءه المدد من اليمامة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه ، بعد أن قمع بنى حنيفة ، ففر المرتدون الى جزيرة دارين وتحصنوا بها ، وهناك أطبق عليهم العلاء بجيوشه ، فأخضعهم وردهم الى الاسلام . وظلت البحرين اسلامية تحت حكم الخلفاء الراشدين ثم الأمويين حتى عهد عبد الملك بن مروان ، حتى ثار أحد الخوارج بجزيرة أوال ، ولكن جيوش عبد الملك تمكنت من اخماد الثورة فى المهد ، وفى سنة ٨٦ هـ ، تمكن مسعود بن أبى زينب العبدى من غلبة العامل الأموى ، والاستيلاء على البحرين

(٩٠) تاريخ الاحساء — للشيوخ عبد الله الانصارى — ص ٦٠ .

(٩١) انظر تاريخ الطبرى — ج ٢ — ص ٥٢١ .

لمدة تسعة عشر عاماً ثم استعادها الأمويون ، وأنجبت البحرين أثناء
العصر الجاهلي عدداً من فطاحلة العقل والشعر أمثال سعيد بن مالك
والمرقشان والمتلمس وطرفة بن العبد ، وفي أثناء العصر الإسلامي
والأموي عدداً من رجال الفكر والشعر أشهرهم قطري بن الفجاءة
والصلتان العبدى وعيسى بن فاتك الخطي ، ثم دخلت البحرين في حوزة
بنى العباس حتى سنة ٢٤٩هـ ، حيث استولى عليها صاحب الزنج الذي ادعى
النبوة لنفسه ، وبعد حروب دامية قتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ ،
فعادت البلاد إلى الخلافة العباسية مرة أخرى .

وخلال هذه الفترة ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في البحرين ،
وبرز علماء أفذاذ في الفقه واللغة والفلسفة كالشيخ كمال الدين
ميثم^(٩٢) وغيره ، كما برز آخرون في نقد الشعر وتاريخ الأدب مثل موفق
الدين الأربلي ، وكان للشعر في هذا العصر ذؤلة سامقة الفروع ساعد
على ازدهارها شعراء مجيدون أمثال ، معاذ الأزرق ، وأحمد بن منصور
القطيفي وغيرهما .

ظهور القرامطة ودور العيونيين في القضاء عليهم :

أشرنا فيما سبق إلى أن أسرة الشاعر وأجداده العيونيون هم
الذين قضوا على القرامطة بقيادة جده الأعلى عبد الله بن علي
العيوني^(٩٣) وعن ذلك قال ابن مقرب مفتخراً :

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقوا ، وغادرهم بعد العلا خدما
من بعد أن جل بالبحرين ثأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما

(٩٢) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربي — ص ١٣٨ .

(٩٣) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ .

وبعد أن وصف معارك جده مع القرامطة قال :
 فسلم الأمر أهل الأمر وانترحوا
 عن سورة الملك لأزهدا ولا كرما
 وأصبحت آل عبد القيس قد ثلجت
 صدورها ، فتزى الموتور مبتسما (٩٤)

والوقوف على تفصيل هذه الأمور يستلزم منا الرجوع الى بداية ظهور القرامطة في البحرين وما أحدثوه فيها وفيما جاروها من أحداث وانتهاك لحرمت الله حتى نهايتهم وتخليص الناس من شرورهم .

فبعد القضاء على حركة صاحب الزنج بفترة من الزمن وبالتحديد سنة ٢٨٩هـ (٩٥) ، ابتدأت حركة القرامطة في البحرين على يد رجل يسمى أبو سعيد الجنابي ، وكان سبب ظهور أبي سعيد أن رجلا يعرف يحيى ، ابن المهدي نزل البحرين وأظهر التشيع في بداية الأمر ، ثم أعان أنه المهدي المنتظر ، فظهر أمره وأجابه عدد كبير من الناس ، وكانت الدولة العباسية قد بدأت في مراحل ضعفها ، وشغلت بالكثير من المشكلات والجنود هم الذين يسيطرون عليها ، ولا يهتمهم سوى مصلحتهم وتأمين أهوائهم والسير وراءها ، وباقي الناس في ترف فكري ، مشتغلين بعام الكلام ، وزاد ترفهم القعود عن الجهاد وإهمال الحكام لهم ، لذا كان البوأم يسيرون وراء كل من يحقق لهم مصالحهم أو يدعى أنه يفعل ذلك ، وكان من الذين اتبعوا يحيى بن المهدي أبو سعيد الجنابي ، وهو ينتسب الى « جنابه » من قري فارس ، وقد نزل البحرين منفيًا من بلاده ، ويعمل بالفراء ، وينتقل من البحرين الى سواد الكوفة ، وصحب أبو سعيد يحيى مدة من الزمن وتأثر به ، حتى اذا أفشى أمرهما الى البوالم هرب أبو سعيد الى (جنابه) مستقط رأسه ، وهناك بدأ يدعو

(٩٤) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ .

(٩٥) تاريخ الاحساء — ص ٨٤ ، (القرامطة) لمحمود شاكر — طبعة بيروت ص ٦٦ .

الى القرامطة^(٩٦) . وعندما تجمع حوله عدد من الاتباع ، بدأ يعيث هو ورفاقه في الأرض فسادا ، فقتلوا وسبوا في بلاد الاحساء خلقا كثيرا سنة ٢٨٧ هـ ، ثم سار الى القطيف فقتل من بها ، وأظهر أنه يريد البصرة ، فجهز اليهم الخليفة العباسي جيشا كثيفا ، جعل عليه (العباس ابن عمر الغنوى) فانتصر عليه القرامطة ، وأسروا الجيش كله ، ثم استمر نشاطهم حتى سنة ٣٠١ هـ حيث قتل أبو سعيد الجنابي على يد خادمه في الحمام^(٩٧) ، وكان قد عهد من بعده لابنه الأكبر (سعيد) الا أنه كان ضعيفا ، فغلبه على ذلك أخوه الأصغر (سليمان) الذي يكتى بأبى طاهر ، وكان فاتكا جريئا ، ودخل أبو طاهر هذا البصرة ، سنة ٣١١ هـ ، في ألفين وسبعمائة رجل فقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وبقي فيها ثمانية عشر يوما يحمل منها ما يقدر على حمله من الأموال والأمتعة ، والنساء والصبيان ثم رجع الى بلده ، وفي سنة ٣١٢ هـ قطع أبو طاهر على الحجاج طريق عودتهم ، وأخذ منهم أزوادهم وأمتعتهم ، وترك من بقى منهم بلا ماء ولا طعام فمات أكثرهم ، ثم دخل الكوفة سنة ٣١٣ هـ ، وبقي فيها ستة أيام نقل خلالها أكثر ما فيها من مختلف المتاع ، ثم عاد ودخلها في العام التالي وفعل فيها مثلما فعل في السابق ، كما استولى على مدينة الأنبار وعين التمر ، وفي سنة ٣١٧ هـ سار أبو طاهر القرمطي الى مكة ودخلها يوم التروية (٨ ذى الحجة) فقتل الحجاج في المسجد الحرام ، ونهب أموالهم ، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بسيفه على بابها وهو يقول :

أنا بالله ، وبالله أنا
يخلق الخلق وأفنيهم أنا^(٩٨)

(٩٦) ينتسب القرامطة الى رجل يدعى (قرط) ولقب بهذا اللقب لقصد كان فيه — راجع المصدر الأخير ص ٥ .

(٩٧) تاريخ اخبار القرامطة — لابن سنان — تحقيق سهيل زكار — ص ٣٦ .

(٩٨) تاريخ الاحساء — الشيخ الانصارى ، ص ٩٠ .

وخلع الحجر الأسود وأخذه معه الى (هجر) ، ومات أبو طاهر سنة ٣٣٣ هـ ، فخلفه اخوته الثلاثة (سعيد أبو القاسم) و (أحمد أبو العباس) و (يوسف أبو يعقوب) ، وكانت كلمتهم متفقة ، وفي سنة ٣٣٩ هـ رد القرامطة الحجر الأسود الى مكانه بعد أن بقى عندهم اثنان وعشرين سنة .

وامتد نفوذ قرامطة البحرين^(٩٩) الى نجد ، وكانت الدولة الأخيضية هناك تحت اشرافهم ، كما أخضعوا الحجاز لهم ، ووصلوا الى بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ ، وكان أمرهم آنذاك الى الحسن بن أحمد ابن بهرام ، وقد دخل دمشق وولى عليها (وشاح السلمى) ، وعاد اليها مرة أخرى سنة ٣٦٠ هـ . ومنها سار الحسن الى الرملة ثم اتجه الى القاهرة ، الا أن جوهر الصقلى ردهم عنها وأخذ منهم دمشق بعد ذلك . ومات الحسن سنة ٣٦٦ هـ ، وقام على أمر القرامطة من بعده ابن عمه جعفر بن الحسن بن بهرام . وبدأ وضع القرامطة يضعف تدريجيا ، ولولا ضعف الدولة العباسية لانتهى أمرهم منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، الا أن التفكك الذى أصاب الدولة قد جعل أمرهم يطول ، أما الآن فقد أصبحت أوضاعهم مهلهلة ، والمناطق التى سيطروا عليها قد تجزأت ، حتى اذا كان العقد السادس من القرن الخامس ونتيجة ضعف القرامطة من ناحية ، ولما كان يعانى منه أهل البحرين من عسف وجور وامتهان للمشاعر والمقدسات من ناحية أخرى سنحت الظروف وأصبحت الفرصة مواتية للانقضاض والثورة وهب لقتال القرامطة ثلاثة من رجالات العرب بالبحرين وهم :

- ١ — الأمير عبد الله بن على العيونى ، فى الاحساء .
- ٢ — يحيى بن العياش فى القطيف .
- ٣ — أبو البهلول محمد بن يوسف الزجاج فى جزيرة أوال .

(٩٩) هناك ايضا قرامطة العراق وقرامطة اليمن .

أما الأمير عبد الله بن علي العيوني فقد كاتب أبا الفتح جلال الدين السلجوقي ببغداد شارحا له أحوال البلاد وطالبا منه العون ، فأرسل اليه القائد اكسك سالار في جيش كبير قوامه سبعة آلاف فارس ، فتم لعبد الله بمساعدة هذه القوة تخليص الاحساء من براثن القرامطة بعد حروب طاحنة انتهت سنة ٤٦٨ هـ ، وأما أبو البهلول فقد استطاع منذ البداية أن يسحق قوة القرامطة في جزيرة أوال وأن يطرد منها عمالهم ، وأن يخضعها لنفوذه بضع سنوات .

ونهب يحيى بن العياش في القطيف وطرد منها عمال القرامطة ، وأخضعها لنفوذه ثم طمع في جزيرة أوال وأراد أن ينتزعها من أبي البهلول فلم يتمكن ، ولما مات خلفه ابنه زكريا الذي واصل خطة أبيه في الاستيلاء على جزر أوال فظفر بأبي البهلول وقتله واستولى على أوال وضمها الى ملكه في القطيف ، ثم انه فكر بعد ذلك في الاستيلاء على الاحساء آملا في توحيد البحرين تحت تاجه ، فالتقى جيشه مع جيش الأمير عبد الله بن علي العيوني فانهمزم ابن العياش في الموقعة الأولى ثم قتل هو نفسه في الموقعة الثانية ، وتفرق جنده ، وتم استيلاء عبد الله ابن علي على القطيف وجزيرة أوال وتم توحيد البحرين تحت علم الامارة العيونية .

وقد أشار ابن مقرب الى حروب جده الأمير عبد الله بن علي مع ابن عياش في معرض الافتخار فقال :

ولم ينج (ابن عياش) بمهجته
يم ، اذا ما رآه الناظر ارتشاما

أتى مغيرا فوافي جو (ناظرة)
فعاين الموت منا دون ما زعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبيل السلامة الا السوط والقيدها

فانصاع نحو (أوال) بيتنى عصما
 اذ لم يجد فى نواحى (الخط) معتصما
 فأقضم البحر منا خلفه ملك
 ما زال ، مذ كان للأهوال مقتحما
 فجاز ملك (أوال) بعد ما ترك
 (العكروت) بالسيف للغبراء ملتزما
 فصار ملك (ابن عياش) وملك
 (أبى البهلول) مع ملكنا عقدا لنا نظما
 من ذا يقاس بعبد الله يوم وغى
 فى بأسه أو يبارى جوده كرم^(١٠٠)

ولما استقر الأمر لعبد الله بن على على الاحساء قطع ما كان لرؤساء
 بنى عامر من العوائد والجرایات التى أجريت لهم أيام القرامطة فأجمعوا
 على حربه ، وأقبلوا ومعهم خلق كثير من البوادی يسوقون الابل أمامهم
 وهم خلفها ، وصاحوا عليها فكانت تدق الجموع ، وخرج عبد الله
 ابن على لقتالهم ، ولما رأى ما تفعله الابل بالناس ، أمر بضرب الدباب
 والأبواق فى وجوهها فنفرت ورجعت على أعقابها ، قحطت من خلفها
 فانهزموا ، وحمل عليهم عبد الله بن على وقتلهم قتلا ذريعا ، ولم ينج
 منهم الا جماعة قليلة هربوا الى العراق ، ثم ان عبد الله بن على جهز
 نساءهم وذريعتهم والضعفة منهم ، ووجههم الى عمان ، واستقر له
 الحكم بعد ذلك على البحرين كلها متينا ، قوى الأركان والدعائم .

(١٠٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٥٣٨ ، ارتسما : كبر وتعوذ ،
 ناظره : كتابان رمل شرقى الهفوف ، العكروت : أحد قادة ابن عياش
 الشجعان .

الدولة العيونية :

استمر عبد الله بن علي في الحكم مدة ستين سنة وتوفي على رأس عام الخمسمائة تقريبا بعد أن حكم البحرين هذه المدة الطويلة ، وخلفه من بعده ثلاثة من الأبناء هم : الفضل ، وعلي ، وضبار .

وقد تعاقبوا على أريكة الحكم من بعدد الدهم هم وأبناؤهم وأحفادهم وسنعرض فيما يلي لسيرة البعض منهم حتى نهاية الدولة العيونية .

الفضل بن عبد الله بن عزي العيوني :

تولى الحكم بعد أبيه وكان شجاعا كريما بعيد المهمة كثير الأسفار والتنقلات والتجول في البراري ، لتعقب المفسدين ، والأخذ على أيدي الأعراب الذين يرتشقون من قطع الطرق وسلب المارة ، فأمنت البلاد في عهده ، وقد حمى لابله وابل المستضعفين من رعيته من منطقة (ثاج) شمالا ، الى منطقة (بيرين) جنوبا ويروى أنه كان يتجول مرة في الصحراء التي حماها فرأى أعرابيا يرعى غنمه في الحمى ، وإذا أعرابي آخر يقول له : أما علمت أن هذا حمى الفضل فقال :

وأين امرؤ في (زاد برد) محله

وأغنام سودى بعيد مذهب^(١٠١)

فما أتم البيت حتى ظهر عليه الفضل ، فبهت الأعرابي ، إلا أن الفضل اكتفى بتحذيره من العودة ثانية ، وقد أشار ابن المقرب الى ذلك بقوله :

وان تفتخر بالفضل ، فضل بن عبدل

فيا بأبى أعراقه ومناسبه

(١٠١) زاد برد : موضع في جزيرة أوال فيه تصور للأمير الفضل .

همام حمى البحرين سبعا ومثلها
 سنين ، وسارت فى الفيا فى مواكبها
 ولم يرع من (ثاج) الى (الرمل) مصرم
 على عهد الا استبيحت حلائبه
 زمان يقول العامرى لمن غدى
 يحدثه عنه وذو الحمق غالبه
 متى يلتقى من زاد برد محله
 وآخر سودى بعيد مذهبها
 فلم يستتم القول حتى اذا به
 يسايره والدهر جم عجائبها
 فقال له الآن التقينا فأرعدت
 فرائصه ، والجهل مر عواقبه (١٠٢)

ومن كرمه أن تجارا ركبوا البحر فغرق مركبهم بين أوال والقطيف،
 فذهب ما كان معهم ، فأمر الفضل أن يكتب كل رجل ما غرق له ففعلوا ،
 فأعطى كل رجل ما يقابل ماله من نقود ، ودام ، حكم الفضل سبع
 سنين ، وقيل أربع عشرة سنة (١٠٣) ، ومات مقتولا فى جزيرة تاروت على
 يد خدمه .

محمد بن الفضل :

يكنى أبو سنان ، وكان يسكن جزيرة أوال ، وعرف بالكرم ، وكان
 ابن مقرب كثير الافتخار به وبشعره ، ويعتبر من أبرز أمراء الدولة
 العيونية وأشدهم قوة ومنعة ، واستمر حكمه ثمانية عشر عاما ، وكان

(١٠٢) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٥٧ ، ثاج : قرية بالبحرين ،
 والرمل : رمل خارج بطريق عمان ورجل مصرم : صاحب عدد من الأبل .
 (١٠٣) المصدر السابق — ص ٥٨ — وانظر أيضا الديوان طبعة
 دمشق ص ٣٣ ، منشورات المكتب الاسلامى .

له وزيراً خاصاً يسمى الحاج على بن الفارس الكازرونى ، ومات أبو سنان ، مقتولاً على يد عميه أبى المنصور وأبى على ، وبعد مقتله بايع أهل القطيف والجند الذى فيه غرير بن محمد ، وبايع أهل الاحساء والجند الذى فيه على بن عبد الله لأنه أكبر أفراد الأسرة المالكة ، فتجهز غرير بن محمد لغزو عمه بالاحساء بجيش كبير ، فاستعد الأمير على ويكنى أبا منصور للحرب ، وفتح خزائن الأطمعه ، وفرقها على السكان ، وأعطى كل أهل بيت ما يكفيهم سنة ، وخرج أبو منصور بمن معه من الجنود لصد الأمير غرير ، فالتقى الجمعان بموضع فى الاحساء يعرف (بالسليمات) واشتد القتال ، وأخيراً قتل أبو منصور ، وانهزم جنده وقتل منهم ثمانون رجلاً وأسر خمسمائة وعشرون ، وتحصن أهل الاحساء بها ، ورجع غرير إلى القطيف ، وبايع أهل الاحساء شكر ابن على •

شكر بن على بن عبد الله بن على العيونى :

يكنى أبو مقدم ، وكان عالماً ، ورعاً وشاعراً مجيداً ، وفارساً شجاعاً ، وضع المكوس عن جميع رعيته ، وحينما تولى الاحساء خرج رجل يسمى (حماد النائلى) وجمع جمعا كثيراً من البوادرى ، وأقبل يريد الاحساء ، وحاصرها ثلاثين يوماً ، ثم حمل هو ومن معه على المدينة حملة شديدة واقتحموا أبوابها ، وكاد يتم لهم الظفر ، فتلقاهم أبو مقدم ومن معه من الجند وأهل البلاد فردهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، حتى أنتت الأرض وسمى ذلك الموضع (الخائس) ، وفى عهد شكر بن على استقل آل على بن عبد الله بحكم الاحساء ونواحيه ، بينما اقتصر حكم آل فضل على القطيف ونواحيه ، ولكن سرعان ما استعاد آل فضل حكمهم لعموم البحرين •

ومع أن الشاعر لم يكن على وفاق تام مع آل فضل ، فإن مدائحه لهم قد سببت زيادة التوتر أيضاً فيما بينه وبين بنى عمه الآخرين ،

ويدل على ذلك ما جاء في القصيدة التي عاتب بها الأمير مقدم ابن ماجد
— وهو من آل فضل — ومطلعها :

أسكت عن مولى الورى أم أعاتبه
وأهمل وعدى عنده أم أعاتبه ؟؟
وفيها يقول :

فلولا هواكم ما شقيت ولا غدا
يصك برجلى القيد من لا أشاغبه^(١٠٤)

ونأخذ من هذا أن من أسباب العداء المستحكم بين ابن مقرب وبين
حكام عهده ناشئا من كونه قد مدح آل فضل بن عبد الله الذين ظلوا في
صراع مستمر مع بنى عمه الآخرين .

ولا يعنى اقتصار النزاع بين هذين الفرعين من الأسرة أن الفرع
الثالث الذى ينتمى اليه الشاعر لم يتول أحد منهم الحكم في البحرين
فقد كان منه أمراء من أشهرهم الأمير الحسن بن غريب بن ضبار وابناه
المبارك (أبو شكر) ومقرب ، الذى هو الأب الثالث للشاعر ابن مقرب ،
ومات شكر بن على رحمه الله بعد منتصف القرن السادس .

محمد بن أحمد المكنى بأبى الحسين بن عبد الله بن على :

وكان هذا الأمير على الهمة ، صلب الارادة وفى أيامه استفحل
ملك العيونيين ، وامتد نفوذهم الى نجد وبادية الشام ، وعهد اليهم
الخليفة العباسى الناصر لدين الله بخفارة طريق الحجاج من بغداد حتى
مكة ، وفى مقابل ذلك خصص الخليفة للأمير العيونى عوناً مادياً يدفع
له كل عام ، وقد قام الأمير محمد بن أبى الحسين بهذه المهمة خير قيام،
وعمل على تأديب بادية الشام الذين اعتدوا على قوافل الحاج فأوقع

بهم ايقاعا شديدا ، كما غزا بنى مالك على ماء الدجاني — فى غرب
الدهناء — لخروجهم على طاعته سنة ٦٠١ هـ ، ويصف الشاعر هذه
الموقعة الأخيرة بقوله :

ألم يجلب الجود العتاق شوازيا
من « الخط » تتلوها المطايا المراسل
الى أن أناخت « بالدجاني » بعدما
برأها السرى والأين فهى نواحل
فصبحن حيا لم تصبح حلاله
قديما ولا رامت لقاء الجافل
فكم قرم قوم غادرته مجدلا
نقط شواه الخامعات العواسل
وكم من مال نحام من القوم أصبحت
تقسم غصبا جله والعقائل
وكم عاتق لم تترك الخدر ساعة
تقايب كفيها له وهى تاكل (١٠٥)

وقد كان عهد محمد بن أبى الحسين عهد أمان واطمئنان نتيجة
حزمه وضربه على أيدي المفسدين ، وقد قتل هذا الأمير على يد أجد
أصهاره وهو راشد بن عميره بن غفيلة رئيس بنى عامر وبمساعدة ابن
عمه غريب بن شكر بن على العيونى ، ورثاه ابن مقرب بتصيدة مطلعها :
ضننت حسودى حين غالت غوائله
يرىع الى البقيا وتطوى حبائله (١٠٦)

(١٠٥) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٣٥٤ ، الشارب : الخشن ،
الخط : موضع بالبحرين ، الأبل المراسل : السهلة السريعة ، الدجاني : اسم
ماء فى الجانب الغربى من الدهناء ، الشوى : أطراف الانسان ، الخامعات :
الضباع والذئاب ، العواسل : المضطربة والنحام : البخيل .
(١٠٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٢٦ ، أراع الى البقيا :
رجع ، حبائله : ما ينصبه مكرًا وخديعة .

وكان للأمير محمد ثلاثة من الأبناء : الفضل وهو أكبرهم وماجد وأحمد ، فكتب الفضل للخليفة الناصر بذلك وطلب منه النصرة حتى يأخذ بثأر أبيه ، فبادر الخليفة بانجاده وأرسل له الأموال والأسلحة ووعد به إرسال الجنود إذا احتاج إليها ، فبذل الفضل الأموال لرؤساء العشائر وكثر جمعه ، فنتبغ قتلة أبيه وأعدم أكثرهم ، ومنهم غريب الذي لم يتمتع بحكم القطيف غير سنة واحدة .

فضل بن محمد بن أحمد أبي الحسين بن عبد الله بن علي :

في سنة ٦٠٦ هـ ، عقد الأمير فضل بن محمد صلحا بينه وبين ملك جزيرة « قيس » غياث الدين شاه بن تاج جمشيد ، على أن يكون للملك قيس جزيرة « أكل » وجزيرة « الجارم » وجزيرة « الطيور » وجميع مساكر الأسفاك ، مضافا إليها مقاسم تاردت « الحسيني » و « الحساس » ومقسم القصر ، وبستان القصر ، وبستان المشعري ودالية الدار ، والفايديّة ، ونصف طراز الغاصة ، من مقاسم القطيف ، وخمسة وثلاثون بهارا عوضا عن بستان المصفاة بالأحساء ، وخمسمائة دينار تدفع له كضريبة سنوية ، وأن تكون المقاسم والخراج والحلقة وطراز الغاصة والطيور والعشور ، مناصفة بين ملك قيس وملك العرب محمد بن الفضل .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط كانت مجحفة للغاية إلا أنها كانت بمثابة هدنة أوقفت الغارات التي — تشن على جزيرة أوال وعلى الحدود وإذا تأملنا في هذه الاتفاقية نفسها نجد أنها مجحفة جدا بالنسبة لدولة عربية ذات سيادة ، ويخيل لنا أن السيطرة الأجنبية قد فرضت نفسها حتى في الشؤون الداخلية كما تنص بنود تلك الاتفاقية .

وهنا يقف ابن المقرب منددا بهذه المعاهدة التي لمس فيها الضعف والهوان والتدخل المباشر في أمور الدولة ، ويعاتب الأمير الفضل ويغظ له القول حتى أدت النتيجة الى تردى العلاقات بينهما فأبعده عنه ، ومما قاله في ذلك :

إذا خائنك الأدنى الذى أنت حزبه
فواعجبا أن ساءلتك الأبعاد

ومنها :

وان وطن سائك أخلاق أهله
فدعه فما يغضى على الضيم ماجد
فما (هجر) أم غذتك لبانها
ولا (الخط) ان فارقتها لك والد

ومنها :

فلا تتكل يا فضل فى الفضل والندى
على سالف أسداه جد ووالد
فلا حمد الا بالذى يفعل الفتى
ولو كثرت فى أولياه المحامد (١٠٧)

وبقى عمال ملك جزيرة قيس فى بلاد البحرين يجيئون الضرائب
حتى نهض على بن ماجد بن محمد بن الحسين ثائرا على الأوضاع السيئة
التي انتهت اليها الدولة فى عهد عمه الفضل ، وبمساعدة قبيلة (العمائر) ،
استطاع تنحية عمه عن العرش ، وتولى مقاليد الحكم ، فاستتب الأمن
فى البلاد وساد الاستقرار ، لاقت ثورة على بن ماجد صدى طيبا فى
نفس ابن مقرب فمدحه بقصيدة منها :

لله درك يا على فلم يعد
الاك فى هذا الزمان مهذب
أضحت بك الاحساء ساكنة وقد
خفت بمن فيها وكادت تقلب

لو لم تداركها وترأب صدعها
لغدت بها خيل الهلاك توثب
أحييتها بعد الممات وبغدا
قامت بواكيها تنوح وتندب^(١٠٨)

ثم ان ابراهيم بن عبد الله بن أبى جروان أحد رؤساء بنى
عبد القيس قام بمؤامرة للقبض على الأمير على بن ماجد الذى اضطر
بدوره للهرب خارج البلاد ، فتم تنصيب مقدم بن غرير العيونى ، الذى
نشأ نشأة بدوية جاهلا بشؤون السياسة حيث استغله رؤساء العشائر
لسوء ادارته ، فأطلق لأيديهم العنان يتحكمون فى مقدرات الشعب ،
وعند وصول ابن مقرب الى مدينة القطيف أطلقها صرخة مدوية ، وبعث
بقصيدة الى ابن أبى جروان بالاحساء وهو الذى كان السبب فى تنصيب
مقدم جاء فيها :

أرجال عبد القيس كم أدعوكم
فى كل حين للعلا وأوان
لا تسقطوا من هامكم وأنوفكم
همم الرجال وغيره الفتيان
وذروا التحاسد والتنافس بينكم
فكلاهما نزع من الشيطان
لم يبق مال تتقون به العدى
لربيعه فيها ولا قحطان

ثم خاطب ابن أبى جروان نفسه فى هذه القصيدة :
أتراك ترضى أن يحدث جاهل
أو عالم ، من نازح أو دان

فيقول كان خراب دار ربعة
بعد العمير بنو أبي جـروان
يأبى لك الطبع الكريم ونخوة
عربية شهدت لها الثقلان^(١٠٩)

ثم رأى أهل الحل والعقد من الوزراء والرؤساء أن يولوا الأمر :
محمد بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين فنوذي به ملكا على البحرين،
ومدحه ابن مقزب بقصيدة مطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب
لنسأل ذلك الحي ما صنع السرب^(١١٠)

غير أن محمد بن ماجد لم يلبث في الحكم طويلا ، اذ ثار عليه ابن
عمه محمد بن مسعود وقتله ، واستولى على البلاد ، ثم أعقبه من بعده
ابنه الفضل ، وفي عهد هذا الأخير زالت الدولة العيونية .

وتقصيل ذلك أن جلساء الأمير المذكور ثواطئوا مع رؤساء قبيلة
عقيل بن عامر على أن يثبنوا على البلاد حزبا ويحاصروها ، وهم بعد
ذلك يشيرون على الأمير بطلب الصلح ، وإذا طلب الصلح منهم يجيبونه
أنى ذلك بشرط أن يعطيهم جميع القصور والبساتين الخاصة بالأسرة
المالكة ، وإذا استشارهم أشاروا عليه بذلك ، فنفذ رؤساء بنى عقيل
خطة المؤامرة ، وحاصروا الاحساء ، وأفسدوا ثمارها وزروعها ، وكان
ذلك وقت الأرطاب ، فضاق الأمير بذلك ذرعا ، وجعل يتلمس رأى من
الجلساء والمستشارين ، فأشاروا عليه بطلب الصلح ، فأرسل الأمير الى
رؤساء بنى عقيل وهم بنو عصفور يطلب منهم الصلح ، فأجابوه على
شرط أن يسلم اليهم ما يرغبون فيه من القصور والبساتين الخاصة
بالأسرة المالكة ، فنقل عليه الشرط ، وعرض الأمر على أولئك نفر الذين

(١٠٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٣٧ — ٦٤١ .

(١١٠) المصدر السابق — ص ٢٦ .

دبروا المؤامرة ، فأشاروا عليه بقبول الشروط ، وقالوا ان ذلك أيسر من ذهاب البلاد كلها ، فقبض على جميع ما أرادوا من البساتين والقصور ، وسلمه الى رؤساء بنى عقيل ، وفكوا الحصار ، ودخلوا البلاد دخول الفاتحين ، وأصبحت الأسرة المالكة فقراء معدمين •

وقال ابن مقرب يصف هذه الفاجعة :

بعض الذى نالنا يا دهر يكتفينا
فامن ببقينا وأودعها يدا فينا
ان كان شأنك ارضاء العدو بنا
فدون هذا به يرضى معاديننا
الحمد لله حمدا لا نفاد له
اذ لم يكن ضعفنا الا بأيدينا^(١١١)

وهى قصيدة طويلة يظهر فيها كيف أن الأسرة المالكة قد حقدت على الملك لأخذه قصورهم ، وبساتينهم وتسليمها لرؤساء بنى عقيل ، فنفضت يدها من مناصرته ، فتلاشت سلطته وتقلص نفوذ العيونيين منذ ذلك الحين ، وانتقلت السطة الى بنى عصفور من رؤساء بنى عقيل ، وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى •

هذا وقد دام حكم العيونيين على البحرين قرابة القرنين من الزمان ، وكانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، ولولا الخلافات بين أفراد هذه الأسرة العربية ، ولولا الشقاق والنزاع بين بعضهم البعض الأمر الذى أدى الى الاستعانة بالأجانب والأعداء والطامعين ، لكان لهذه الدولة شأن وأى شأن، ولكن الدول — كما يقول ابن خلدون — تنهرم وتقفى نحبها ، وهذه سنة الحياة فى كل شىء ، ولا يبقى الا وجه الله ذو الجلال والاكرام •

الفصل الثالث

« مصادر شعره »

أهم مصدر لشعر ابن مقرب هو ديوانه الذى ضم أغلب شعره — وان لم يكن كله — أما ما ورد له من أشعار قليلة فى ثنايا التراجم التى أشرنا اليها فهذا لا يعول عليه كثيرا ، وديوانه المطبوع لا يقل ضخامة عن دواوين عليّة الشعراء ، وفيه ما يربو على المئة قصيدة ، ويحتوى على أكثر من ٥٣١٤ بيتا .

وقد حفل بمقدمات وايضاحات تاريخية لأكثر القصائد لا كلها ، وأغلب الظن أنها من عمل شراح الديوان القدماء ، وقصائد الديوان مرتبة حسب الحروف الأبجدية للقوافى ، هذا وللديوان عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة نستعرضها فيما يلى حسب ترتيبها الزمنى :

أولا : النسخ المخطوطة (١) :

(أ) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٢٦ — أدب) وعدد أوراقها ١٦٩ ورقة ، مكتوبة بخط واضح ، وقد كتبها بقلمه أمين حسن أبو القاسم وذلك فى سنة ١٠٦٧ هـ ، وسمى النسخ شاعرنا محمد بن المقرب ، ولكنه فى آخر صفحة من المخطوطة يعود فيسميه على ابن محمد بن المقرب العيونى .

(ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠٩١ — أدب) وفى صدرها : « ديوان الشيخ الرئيس السامى جمال الدين على ابن المقرب النعمانى ، كافاه الله بما هو أهله ، وقد دخل تحت تصرف ابراهيم بن عبد الله باشا بن ثنيان آل سعود ، والاعتماد على الرب » . وتاريخ كتابة هذه النسخة سنة ١١٣٠ هـ فى ٤١ ورقة ، وتكمن أهميتها فى تسجيل بعض حوادث الجزيرة والخليج العربى فى القرون الأخيرة على الصفحات الأولى منها .

(ج) نسخة بالمكتبة الماجدية بمكة المكرمة ، وهي تطابق نسخة الديوان المطبوعة في الهند من بعض الوجوه ، الا أن في المخطوطة بعض الزيادات على ما طبع ، ومع ذلك فانها تنقص في عدد أبياتها عن عدد أبيات الطبعة الهندية وقد سقطت المقدمة من هذه النسخة ، ومعظم القصيدة الأولى التي مطلعها في الديوان :

كم أرجع الزفرات في أحشائي
وآلام في دار الهوان ثوائى

وهي تبدأ في المخطوطة كالتالى :

فلكل شاوى وراعى هجصة
جاف حديث العرف كالکشحاء

وسقط منها حوالى (٢٥) بيتا الأولى ، كما سقط من آخر النسخة بعض ورقات ، وهذه النسخة بخط ناصر بن حمد بن لاحق من تلاميذ الشيخ صالح العتيقى — من أهالى مدينة (الجمعة) بنجد وقد نسخها ابن لاحق بالاجازة من شيخه العتيقى ، وتعد هذه النسخة من أتقن نسخ الديوان المخطوطة ، وتم نسخها سنة ١١٩٤ هـ .

(د) نسخة خطية محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (٢٠٢٨ — ج) وهى مكتوبة بقلم عادى سنة ١٢٨٤هـ، وبلغ مجموع أبياتها ٤٨٣٧ بيتا ، وقد ألفت السوس كثيرا من أبياتها ، وهى خالية من المقدمة، وكتب فى صدرها : « ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى » ، وكتب فى صدر الصفحة الأولى منها : « هذا ديوان الشاعر الأديب ، والفصيح اللبيب ابن معشوق البغدادى عليه رحمة الهادى ، وهو من كتب الأدب المعتبرة فى البلاغة وغيرها ، ولله دره . ونسبة الشاعر بهذا الشكل تجعلنا نجزم بأنه خطأ من الناسخ لا شك .

(هـ) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٢٢ — أدب)
مكتوبة بخط واضح سنة ١٢٨٩ هـ ، في ١٢٥ ورقة ، وهذه النسخة تعتبر
أكثر النسخ شمولاً لشعر ابن مقرب .

(و) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٠١٧ — أدب)
وكتابتها واضحة وعلى ورق جيد ، وكتبت سنة ١٢٩٣ هـ ، في ١٢٢ ورقة ،
بقلم خليل الشبكثي ، وهي منقولة من النسخة (أ) .

أما باقى النسخ المخطوطة فهي غير مؤرخة ونذكرها فيما يلى :

(ز) ذكر الأستاذ محسن جمال الدين فى مجلة (الأديب) —
البيروتية عدد يونيه سنة ١٩٥٥ ، أنه عثر على مخطوطة لديوان شعري
باسم ابن المقرب فى اسبانيا ، وهو من الحجم المتوسط ، وقد سقطت
أوراقه الأولى ، وليس له مقدمة ، وذكر أن الديوان غير مبوب أو مرتب
على الحروف الهجائية ، وتحفظ به المكتبة الأهلية بمدرىد تحت رقم
٥٢٤١ ، وأول القصائد فيه :

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد^(٢)

وأخر الديوان :

ما أنصف الطلل العافى بماوانا
لم نشجه يوم سلمنا وأشجانا

(ح) ذكر الدكتور داوود الحلبى فى (مخطوطات الموصل) ص ٤١ —
أن فى مكتبة المدرسة الاسلامىة التابعة للنادى العلمى فى الموصل
نسخة من ديوان (ابن مقرب العبدلى الأمير جمال الدين أبو منصور على
ابن عبد الله بن المقرب) .

(٢) القصيدة موجودة فى الديوان — طبعة الاحساء فى ص ١٤٠ ..

(ط) توجد في مكتبة الحرم المكي نسخة مخطوطة تضم طائفة من أشعار ابن مقرب تبلغ (١١٣١) بيتا •

(ي) نسخة بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، وفيها كثير من الأبيات وبعض قصائد لم ترد في النسخة المطبوعة في الهند ، ونسبة الخطأ فيها قليلة •

(ك) نسخة بمكتبة فيض الله باسطنبول — بتركيا •

(ل) نسخة بمكتبة المتحف البريطاني — بلندن •

(م) نسخة بمكتبة برلين — ألمانيا^(٣) •

ثانيا : طبعات الديوان :

الطبعة الأولى :

طبع الديوان لأول مرة بمكة المكرمة في أيام العثمانيين سنة ١٣٠٧هـ ، وهذه الطبعة خالية من الشرح والضبط ، وهي رديئة وسقيمة وغير محققة ، ولذا جاءت مشحونة بكثير من الأخطاء المطبعية والاملائية وعدم الدقة والاتقان في اخراجها ، ولا يمكن الاعتماد عليها •

وقد كتب على صدرها : « هذا ديوان الشاعر اللبيب الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن علي بن المقرب بن المنصور بن مقرب بن علي ابن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد القليوني الاحسائي بل الله ثراه » ، ومقدمة النسخة مبتورة ، وقد زيدت عليها اضافات تخرج بها عن موضوع الديوان ، وقام بطبعها على نفقته عبد الله بن سعيد باخطمة •

(٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب — ص ٣٣ .

الطبعة الثانية :

وكانت بالهند بمطبعة ديرت ساد سنة ١٣١٠ هـ ، وهى أوفى من الطبعة المكية ومشروحة ولكن شارحها مجهول ، ويقال أن الذى جمع قصائدها هو الشيخ حمد بن خليفة العيوني ، وليس من المؤكد ما اذا كان هذا الشخص ينتسب الى أسرة الشاعر أم انها مجرد نسبة الى بلدة العيون بالاحساء^(٤) ، وهذه النسخة طبعت على نفقة الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، وكانت بخط رئيس المحررين بالهند يومذاك ملا محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكينى الشافعى ، ورغم أن هذه الطبعة أيضا لم تخل من الأخطاء وعدم العناية الا أنها فى هذا الجانب أخف من الطبعة الأولى ، فهى مثلا لم تستكمل بعض قصائد الشاعر ، فالقصيدة البائية التى مطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب

لنفسال ذاك الحى ما صنع السرب^(٥)

ليس موجودا منها بطبعة الهند سوى (٥٨) بيتا ، بينما بلغت فى الطبعة المكية (٨٣٠) بيتا ، على أن مجموع أبيات الطبعة الهندية يبلغ (٤٥٧٠) ، والطبعة المكية نحو من نصف هذا العدد ، وزيادة على ذلك فإن الطبعة الثانية تمتاز باجتوائها على مقدمة تاريخية تلقي بعض الضوء على حياة الشاعر وأخلاقه ورحلاته ، وعلى معلومات تاريخية عن منطقة البحرين عامة وأسرة الشاعر خاصة ، فهى من هذه الناحية عظيمة الأهمية .

(٤) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ، ص ٣٠ .

(٥) موجود بالديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٦ .

الطبعة الثالثة :

وهى على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثانى — حاكم قطر السابق — وذلك سنة ١٣٨١ هـ ، ويشرح الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، ونشرها المكتب الإسلامى بدمشق ، وهذه الطبعة بدورها لا تخلو من الأخطاء اذ سقطت منها أبيات كثيرة ، الا أن الناشر أتبعها بملحق ضم أكثر ما سقط منها من أبيات ، ووعد الناشر فى المقدمة أن يعيد طباعة الديوان مرة أخرى بصورة أكثر اتقاناً من سابقتها ، ووفى بوعده ، وأعاد طباعة الديوان سنة ١٩٦٨ م ، ولكن للأسف لم يصدر منه الا الجزء الأول فقط وضم حوالى (٥٣) قصيدة فقط ، وقال الناشر فى آخر صفحة من هذا الجزء : « انتهى الجزء الأول من ديوان ابن المقرب ويليه الجزء الثانى وأوله قافية اللام » الا أن هذا الجزء لم يصدر حتى الآن .

الطبعة الرابعة :

وهى بشرح وتحقيق الأستاذ محمد الحلو ، وطبع الديوان ونشره (مكتبة التعاون الثقافى) بالاحساء على نفقة صاحبها الشيخ عبد الله الملا ، سنة ١٩٦٣ م ، وهذه الطبعة جيدة وبذل فيها المحقق جهداً ملحوظاً ، وقام بتحشية الديوان ببعض الشروح وعمل له مقدمة ، ولكنه اعتمد فى الشرح على النسخة المطبوعة فى الهند ، وأنا شخصياً اعتمدت فى دراستى لابن مقرب على هذه الطبعة اعتماداً كبيراً هى وسابقتها وعندما قمت بمقارنة الطبعتين ببعضهما اتضح لى بعض الفروق والاختلافات بينهما وهى :

١ — احتوت طبعة دمشق على قصيدتين على قافية الحاء ، خلت منهما طبعة الاحساء احدهما مكونة من (١٠) أبيات ومطلعها :

شرف الدين خـدين السـماح

علام ذا الاعراض والاطراح^(٦)

والثانية مكونة من (٤٣) بيتا ومطلعها :

الام أروم الصبر والصبر نازح

وأرجو احتباس الدمع والدمع سافح^(٧)

٢ — خلت طبعة دمشق من قصيدة عينيه مطلعها :

يا باكيًا لدمنة وأربع

ابك على آل النبی أو دع^(٨)

وهي موجودة في طبعة الاحساء وعدد أبياتها (٧٦) بيتا .

وفيما عدا ذلك فان النسختين تتفقان في المقدمات التاريخية والايضاحات لمناسبة بعض القصائد ، أما عن سقوط بعض الأبيات من نسخة أو تقديم بعضها على بعض في النسخة الأخرى ، فأغلب الظن أن ذلك يرجع الى تعدد النسخ المخطوطة للديوان واختلاف الباحثين في النقل عنها .

وعلى كل حال فلا شك أن تعدد طبعات ديوان ابن مقرب بهذه الصورة وتوالى نسخه بهذه الكثرة — لا شك — أن ذلك يعتبر مؤشرا على قوة شعره وأصاله موهبته ، والا ما اهتم الناس به ، وما حرصوا

(٦ ، ٧) الديوان ، طبعة دمشق الأولى ، ص ٨٨٦ — ٨٨٧ .

(٨) القصيدة موجودة في الديوان ص ٢٥٩ .

على تداول هذا الشعر وسماعه من حين لآخر ، بل وحفظه في الصدور حتى لا يبلَى أو يضيع ، وعن هذه الناحية يقول أحد الذين كتبوا عن ابن مقرب : « ونظراً لما يمتاز به شعره من قوة وحيوية وصراحة ، فقد اهتم الناس بحفظ أشعاره وتناقلوها ، حتى أن صيوانه طبع في العصر الحديث عدة طبعات .. وهذا ما لم يحظ به شاعر آخر في الخليج من اهتمام ومكانة^(٩) . »

.....

(٩) محمد جابر الأنصاري — المحات من الخليج العربي — ص ٣٢ —
الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

الفصل الرابع

« أغراض شعره وتحليلها »

« تمهيد »

قصة الشعر لدى شاعرنا ابن مقرب قصة ولدت معه منذ نعومة أظفاره ، ونمت مع أيام عمره ، والرواة يؤكدون أنه بدأ قرض الشعر ولما يبلغ الحول العاشر من عمره^(١) .

والواقع أن مثل ذلك ليس بغريب أو فريد في تاريخ العرب الأدبي فقد حدثنا هذا التاريخ مرارا عن شعراء قالوا الشعر موهبة وفطرة في مثل هذه السن المبكرة ، ومما يؤسف له ضياع شعر الطفولة هذا الذي قاله الشاعر في سن مبكرة ، الا أن شعره الذي بين أيدينا ينبىء أن قائله تمرس بنطق الشعر منذ أمد بعيد ، وبأنه عالج فنونه — ولو بشكل ساذج — منذ أيام الشباب .

والقارئ لشعره يحس في قرارة نفسه بأن وراء هذا الشعر رجلا عملاقا ، وشاعرا له خطره وأثره ، ويدرك لفوره بأن في معانيه من البعد والالتقان وصدق الشعور ، ما لا يقل بحال عما في معاني كثير من شعراء المضاد المبرزين .

ولعل مما يزيد من مكانة ابن مقرب الشعرية نشأته في زمن تصدعت فيه دولة البيان وتداعى فيه صرح الشعر ، وأفل نجم الأدباء والشعراء ، بالإضافة الى أن شاعرنا قد نشأ وعاش في أرض الجزيرة العربية في ربوع البحرين ، وهى أرض كان الشعر الجيد الرصين قد هجرها منذ أمد بعيد ، فلم تعد صعيدا لفحول الشعر ، ونستطيع القول أن عصر ابن مقرب — القرن السابع الهجرى — عصر أقفر من الشعراء الحقيقيين ، ولذا كان ابن مقرب في وطنه وزمنه أمة في عالم الشعر ،

فهو شاعر مجيد تتمثل في شعره الأصالة والبراعة ومثانة الفكر وسمو الغاية ، كما تتمثل فيه قوة العزيمة ، وجبروت النفس وصدق التجربة ، كما أنه طويل النفس في معظم قصائده ، وسنلاحظ من خلال استعراضنا لأقوال من ترجموا له ثناءهم على شعره ووصفهم له بالجلود وحسن السبك .

فمنهم (ابن مأكولا) الذى وصف ابن مقرب بأنه : شاعر محسن^(٢) ووصفه بعض متقدمى عصره بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمه ، كثير الأمثال فى نظمه) وأنه (لم يتسكنب بالشعر لعطايا ، ولم يمتدح ذى ثروة من البرايا ، وانما كان بمدح أكثره فى أهل بيته وعشيرته وهم ملوك البحرين وله فيهم المدايح والمعائب والنصائح)^(٣) ، وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شاعرا مجيدا طريح الشعر)^(٤) ، وقال عنه ابن الفوطى : (كان شاعرا مسترفدا جزل الألفاظ)^(٥) ، ومن امتدحه كثيرا ابن الشعار الموصلى فقال عنه : (كان شاعرا مجددا منتجعا ، كثير المدح قليل الهجاء ، جيد القول متين ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصفين المشاهير فى عصرنا المعروفين ، أقر له الحذق أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ وابداع المعانى)^(٦) .

وعلى أية حال فابن مقرب فى معظم قصائده — ينهج نهج متقدمى الشعراء ويسير على منوالهم ويت رسم خطاهم وسننهم ، حيث يبدأ القصيدة بغرض خارجى بعيد عن غرضها الأساسى ، ثم ينتقل الى غرض

(٢) الاكمال — لابن مأكولا .

(٣) مخطوطة مجهولة المؤلف — دار الكتب — رقم ٦٣٧ تاريخ .

(٤) التكملة لوفيات النقلة .

(٥) ابن الفوطى — تلخيص مجمع الاداب .

(٦) ابن الشعار الموصلى — ثلاثه الجمان فى شعراء الزمان .

آخر وربما إلى أكثر ، حتى ينتهي به المطاف إلى التخلص في براعة وحسن من تلك الأغراض إلى الغرض الرئيسى في القصيدة ، على أنه قد يستهل قصيدته بالغرض المشود رأسا وبدون أية مقدمات ، ومن تحصيل الكلام أن نقول أن القصيدة عنده ليست وحدة قائمة ، وإنما اثبتت في الغالب هو الوحدة ، فهو يجيء مستقلا بذاته عما قبله وعما بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب .

وفيما يلي سندرس أهم الأغراض التى قال فيها ابن مقرب شعرا وسنحاول أن نبين قدر الامكان الظواهر التى تميز بها هذا الشعر مع ايراد الأمثلة بقدر المستطاع للتدليل على ما نقول .

١ - المديح :

استنفذ غرض المدح من شعر ابن مقرب أكثر من نصف قصائد الديوان ، وبالتحديد حوالى (٥٢ قصيدة) — من أصل مائة قصيدة موجودة بالديوان^(٧) ، وقد صرف معظم هذه القصائد المدحية في أبناء عمه الأمراء العيونيين وذلك بغرض استرداد أملاكه وأمواله التى اغتصبوها منه جورا وظلما ، وباقى مدائحه قالها في غيرهم من الأمراء والأعيان غير العيونيين الذين كانت تربطه بهم علاقات ود وصداقة ، وهو كما قال عن نفسه لم يمدح من لم يستحق المدح فهو لم يمدح قدما في حياته .

وليس في الشعر من فضل يطول به
مثلى ولو فاق أعلى سبعها الطول
بل فضل مثلى أن يسمو بهمته
عن مدح قدم عن العليا في شغل^(٨)

(٧) الديوان — طبعة دمشق — الطبعة الاولى .

(٨) الديوان — طبعة الإحصاء — ص ٣٨٣ .

ويمكننا بعد ذلك تقسيم ممدوحى ابن مقرب الى قسمين :

القسم الأول :

ويضم أبناء عمه الأمراء العيونييين ، وهؤلاء — كما قلنا — نالوا نصيب الأسد من مدائحه ، ونلاحظ على مدائحه فيهم أنها تمتاز غالبا بالفخر ، وهذا ليس بالغريب اذا علمنا أن ابن مقرب عندما يمدحهم فانما يمدح نفسه وانه عندما يفخر بهم ، فانه يفخر بماضى آبائه وأجداده لأنه منهم وبهم ، وما يصيبهم من قوة أو ضعف سيعود عليه حتماً وسيؤثر به . ومن الملاحظات الأخرى أيضا على مدائحه في هذا القسم حرارة العاطفة وصدق الشعور وقوة الاندفاع في الاشادة بمآثر الممدوحين وصفاتهم من شجاعة وكرم وشبه ذلك .

القسم الثانى :

ويشمل كل من مدحهم ابن مقرب من غير الأسرة العيونية وأهمهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن المستضى ، والأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة ، وقد تضمن الديوان حوالى (٧) قصائد قالها في مدح هذا الأمير وحده مما يدل على قوة الصلة التى كانت تربط بين الرجلين . كما مدح الشاعر كثير من الأعيان والولاة ولكن فى قصائد قليلة .

ومدائحه فى أصحاب هذه المجموعة — وان كان لا ينقصها الصدق — الا اننا نلاحظ عليها افتقاد الروح المندفعة التى نلاحظها على مدائحه فى القسم الأول ، كما نفتقد فيها حرارة الشعور وفيض العاطفة .

ومن أمثلة مدائحه فى أبناء عمه الأمراء العيونييين قوله يمدح الأمير

محمد بن ماجد بن محمد العيوني المالك الاحساء من البحريين في قصيدة
طويلة منها (٩) :

وانى بقسومي للضنين واننى
على بعد دارى والتئائى بهم حذب
ولى فيهم سيف اذا ما انتضيتيه
على الدهر أضخى وهو من خيفة كلب
على أن حد السيف قد ربما نبا
وفل ، وهذا لا يفلى ولا ينبو
همام علت هماته فكأئما
يحاول أمرا دونه السبعة الشهب
علاكل باع باعه وتواضعت
لمزته ، وانقادت العجم والعرب
سليل علا من دوحة طاب فرعها
وطالت ذرى أغصانها وزكى الترب
بييت مناويه يساور همه
ويقضى عليه قبل أن يقضى له نصيب
سما للعلا من قبل تبقييل وجهه
فأدر كها والمأثرات له صحب
هو البدر لكن ليس يستر نوره
حجاب ونور البدر يستره العجب

(٩) الديوان - طبعة الاحساء - ص ٣٢ . ونبا السيف : لم يقطع ،
فل : ثلم ، بقل وجه الغلام : خرج شعره ، الترب : ادخال السيف فى
الفسراب .

هو الليث لكن غايه البيض والقنا
هو النصل لكن كل متن له قديره

هو الموت لكن ليس يقتل غيلة
هو البحر الا أن مورده عذب

رما غالبته منذ كان كتيبة
لتظهره الا وكان له الغلب

وما هابت الأملاك بكرا من العلا
لعزتها الا وكان له الخطب

أتانى من الأبناء عنه غرائب
فلذت بها الأسماع واستبشر القلب

بعطف على ود العشرة صادق
ورفض عداها لا محال ولا كذب

وتجميها من كل أوب حمية
عليها فزال الخوف والتأم الشعب

فنلاحظ في هذه الأبيات ما سبق وقلناه من صدق العاطفة وحرارة
الشعور نحو قومه فهو ضنين بهم على رغم الأقدار التي رمت به بعيدا
عنهم والظروف التي اضطرت له للابتعاد عن وطنه وهجران داره ، وهو
يؤكد هذا الشعور مرة أخرى عندما يبين قوة صلته بالأمير المدوح
ويشبه هذه العلاقة ، بعلاقة السيف بحامله والتصاقه بيده ، وليس أقرب
من هذه العلاقة ولا أقوى من هذا التصوير ، الذى ان دل على شيء فانما
يدل على قوة وفائه لعشيرته على رغم ما أصابوه به من كوارث ونوازل
وحرمان .

ثم ان الشاعر يصف المدوح بعلو الهمة ، حتى انه لعلو همته بيدو
وكأنه يحاول الوصول الى أمر دونه كواكب السماء العالية البعيدة وأنه

لقوته وعزته واتساع ملكه الذى خلق كل الأملاك قد أذعنت له العرب والعجم ، وما ذاك إلا لأنه سليل عزة تقوى الأصل ، طيب الأرومة ، من دوحة طاب فرعها ، ومن آباء كرام طالما رفعوا راية العزة ، وكان لهم النصر والغلبة ، وأنه من شدة هيئته يبيت عدوه خائفاً منه يساور همومه ، ومخاوفه ، فيقضى عليه من شدة الهم قبل أن يحين أجله !! ثم يقول عنه بأنه (سما للعلا من قبل تبكيل وجهه) أى من قبل أن يخرج الشعر فى وجهه ، وهذا كناية عن تطلعه الى غلظائم الأمور منذ حداثة سنه وهو لما يبلغ بعد مبلغ الرجال •

ثم يشبهه فى جمال وجهه بالبدر الذى لا يستتره ساتر ولا يحجبه حجاب ، وفى شجاعته بالأسد وفى مضائه بالنصل المشرع دائماً وليس له قراب ، وفى شدة فتكه بالأعداء بالموت ، إلا أنه لا يقتل غيلة — بل يأتى أعداءه جهارا نهارا ، وهذا أول على شجاعته ، ويشبهه فى كرمه بالبحر الذى عذب ملوؤه • ثم يعكس الشاعر أنه سمع عن الممدوح أنباء لذ بها سمعه واستبشر بها قلبه ، وهى عطف الأمير على عشيرته التى هى عشيرة الشاعر ، وبأنه عفل على توحيد أمرها ، ولم يشملها ، ورأب صدع تفرقها ، حتى زال الخوف ، وعاد الأمن والاجتماع بعد التفرق والتشتت ، وكل هذه المعانى يرددها الشاعر فى أغلب مدائحه لأبناء عمه ، لأنه كما ذكرنا منهم وبهم ، وهذا يلاحظه بجهد بسيط كل من يقرأ مدائحه الكثيرة فيهم •

ومن أمثلة مدائحه فى القسم الثانى قوله يمدح الأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة من قصيدة لامية طويلة ويكنيه بأبى شجاع (١٠) •

(١٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٠٩ . انذاك لا نظرا ولا معقولا
 أى لا نظرك ليدك ولا غفل ، مشكوكا ، متعبدا ، والشكال : حبل تشد به قوائم
 الدابة ، أبرم امره : قضاه أو جمعه واحكمه ، تميل ميلا : أى منع الأعداء
 أن يميلوا عليها أى ميل فحسنها بذاك ، ند الجوامع : أى فاقها بحسنه
 وفخامته ، وغفا : اندثر .

يا عادلا بأبى شجاع غيره
أترك لا نظيرا ولا معقولا

تأبى مكارم باتكين بأن ترى
أحدا له في ذا الزمان عديلا

جرت الملوك فلم تشق غباره
وجرى فشق غبارها مشكولا

لو لم يكن بالبصرة انقلبت بمن
فيها وجربها الخراب ذيولا

كانت سوادا قبله فأعادها
مصرأ تروكك ممسئا ومقيلا

بالتبر والأنبال والسور للذى
منع الأعداى أن تميل مميلا

والربط بين مذارس ومشاهد
شرفت وفضل أهلها تقضيلأ

أحى بها للشافعى ومالك
وأبى حنيفة أحرفا وفصولا

وبجامع ند الجوامع كلها
حسنا وعرضا فى البناء وطولا

لولا اتفاق حريقه فى عصره
لعفا وعطل رسمه تعطيلأ

كم من رواق زاد فيه وجصره
زادت الى ترفيله ترفيلا

وبنى به للمسلمين مقرمدا
ترك الخورنق فى العيون ضيئلا

ولقد مضت حجب بها وسراتها
نهيب فأنقذ ثلواها الماكولا

أفعاله لله خالصة فما
تلقى لمعتقد الرياء مثيلا
لو كان في الأمم الخوالى مثله
ملك لما بعث الاله رسولا

فصفات الأمير الممدوح من الكرم والشجاعة تأبى أن تجد له ندا
أو مثيلا ، ومن يفكر أن يعدل به غيره في خلاله الكريمة فهو لا نظر له
ولا عقل ، ولو لم يتول أمر البصرة لتحولت الي خراب ، ولكنه بحسن
سياسته أعادها بلدا جميلا تزوق للنظر صباحا ومساء ، وحصنها من
الأعداء فباتت آمنة ، وبات أهلها آمنين سعداء ، ولكنه لم يكتف بذلك
بل بنى المدارس ومعاهد العلم يدرس فيها العلماء تلاميذهم مذهب
الأئمة الكبار كأبى حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم فأحيى بذلك العمل
سفن الاسلام وشرائعه ، ثم ان ابن مقرب يمدح الأمير باتكين بأنه بنى
بالبصرة جامعا كبيرا بذ الجوامع كلها في الحسن وفي ضخامة البناء ،
ويستطرد في ذكر أوصاف هذا الجامع ويقارن بينه وبين قصر الخورنق
الذى بناه النعمان الأكبر فيقول ان هذا الجامع ترك قصر النعمان ضئيلا
بجانبه ، ثم يخلص من ذلك كله الى القول بأن أفعال الأمير باتكين خالصة
لله وليس للرياء فيها نصيب ، ثم يقول مادحا له ومبالغا في مدحه بأنه لو
كان يوجد أحد يملك مثل صفاته ، وخلال له ومناقبه لما احتاج الاله الي
ارسال رسول !!

وبالرغم من هذا الحشد الهائل من المدائح والمبالغات وذكر مآثر
الممدوح وأعماله ، فاننا نفتقد فيها حرارة العاطفة وصدق المشاعر التي
نجدها في مدائحه لأبناء عمه ، على أننا من جهة أخرى نقف بمثل هذا
الشعر على مدى ما وصلت اليه البصرة في عهد الأمر باتكين من الناحية
التاريخية من تطور وازدهار ، وما أنشأه فيها هذا الأمير من اصبـ

وأعمال عمرانية جعلت شاعرنا يلهج بمدحه والثناء عليه . وهذه ناحية سنعرض لها بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن ظاهرة السرد التاريخي في مدائح ابن مقرب ان شاء الله .

ابن مقرب الشاعر التقليدي :

يمكن القول بأن أوصاف ابن مقرب لمدوحيه وتشبيهاته لهم ، تدور في معظمها — وكما رأينا في المثالين السابقين — حول المعاني التقليدية المتداولة من حيث وصف المدوح بالشجاعة وتشبيهه بالأسد في الشجاعة وبالبدر في الكرم ، وبالبدر في جمال الوجه وبالسيف في مضائه وقوته ، إلى آخر هذه المعاني التي صاغها ابن مقرب على طريقة الشعراء المتقدمين ، فهو يبدأ قصيدته بالغزل بالمحبة ثم يصف رحلته إلى المدوح ويذكر ما تكبدها من مشاق وما لقي من غت . وينتقل بعد ذلك إلى عرض آخر من الأغراض وهكذا حتى يخلص إلى مدح المدوح وذكر مآثره والاشادة بمواقبه الحميدة وخصاله العظيمة .

هذا من ناحية المعاني ، ومن ناحية الألفاظ فهو كما رأينا يتميز بقوة الألفاظ ورصانتها وجزالة اللغة وفخامتها ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنه درج على نهج الشعراء العرب الأقدمين سواء من ناحية الألفاظ أو المعاني .

هذا وقد صنفه أحد النقاد المحدثين^(١١) تحت قائمة الشعراء التقليديين ، وقارن بينه وبين شاعر آخر من عصره هو الشاعر (الأبيوردى) فقال أولا عن الأبيوردى : (والأبيوردى الشاعر العربي ، خاش بأصبهان وكان ينتسب إلى بنى أمية وعبد شمس ، وكان كثير الاعتزاز بنسبه هذا في شعره ، كما كان دائم الفخر بعروبته ، وكان

(١١) انظر الادب في العصر الأيوبي — د. محمد زغلول سلام —

ينهج منهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعا) ، ثم يقول
عن ابن مقرب : (وقريب من روح الأبيوردى وطريقته ابن مقرب
الاحسائى ، وهو شاعر بدوى وطنا وروحا ، وهو صاحب نفس طموح
كصاحبه ، يسعى الى المجد وبلوغ أمل بعيد يظل طول حياته يعمل
لبلوغه) (١٢) .

ومن نماذج شعر ابن مقرب التقليدى الذى يظهر فيه اتباعه لمناهج
الأقدمين فى الصياغة والوقوف على الدمن والآثار فى مستهل قصيدة
المدح قوله : (١٣)

أمن دمنة بين اللوى والدكاذك
شغفت بتذارف الدموع السوافك
غفت غير آرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصى بالموجفات الحواشك
كان فؤادى ناطه ذو سخيمة
قاييل التنحى فى صدور النيازك

ثم ينتقل من وصف الديار الى الحديث عن أهلها المزمعون على
الرحيل ومن بينهم صاحبه التى يتغزل بها فيقول : (١٤)

وفى الجيرة الغادين لا عن ملالة
ظباء على تلك الهجان البوائك

(١٢) انظر الألب فى العصر الأيوبرى — د. محمد زغلول سلام —

نص ٢٥٢ .

(١٣ ، ١٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٥ — ٣٠٧ .

خماس الحشا حم الشفاء كأنما
يلثن مروط العصب فوق العوائك
ويسمن عن نور الأقاحى لم يزل
يغذى بدرات الذهب الرقائق
وفيهن من ذهل بن شيبان غادة
يطيب رياها عبر المداوك
كأن على فيها سلافة قرقف
وقد غورت أم النجوم الشوابك

وبعدها ينتقل الى الفخر بنفسه وعلو همته ومضاء عزمه : (١٥)

فوالله ما أدري أاعراض بغضة
لنا أو دلال فافصحى عن مقالك
فلى هممة عليا ونفس أبيبة
تمج وصال اللالويات المواعك
ولنى عزمة ان ساعد الحظ أشرفت
ونافت على شم الرعان السواك

ثم بعد عدة أبيات يخلص الى المقصود بالمدح فيقول : (١٦)

يضى سناها بالدجى متممر
على الدهر مودى البرك رحب المبارك

(١٥ ، ١٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٨ — ٣٠٩ — ومج
الشيء : كرهه ، والمعك : المكال ، ناففت : أشرفت ، والرعان : جمع رعن
وهو أنف الجبل ، والسواك : الطوال . البرك : الإبل الكثيرة ، موبها :
ناحرها ، المستاثرات : السيوف الماثورة ، البوائك : القواطع ، العبد ليون :
نسبة الى عبد القيس ، الأبواب : الكثير الرجوع الى الحق . والباعك : الاحق .
البين : الفراق ، والخط : مرمأ بالبحرين قديما .

أغمر نماء كل حمام ممانع
عن المجد بالمستأثرات البوائك
من العبدلين الألى فى أكفهم
حياة لأواب وموت نباعك

ومثال آخر من قصيدة يبدؤها بالحماسة ، ويحث نفسه على
النهوض فى طلب العلا : (١٧)

بينى فما أنت من جدى ولا لعبى
مالى بشىء سوى العلياء من أرب
لا تكثرى من مقالات تريد ضنى
ما الخط أمدى ولا وادى الحساء أبى
فى كل أرض اذا يمتتها وطن
ما بين حر وبين الدار من نسب

ثم ينمى على القاعدين من قومه الراضين بالذل والمهانة : (١٨)

يا ساكنى الخط والأجزاء من هجر
هل انتظاركم شيئاً سوى العطب
بحجت مما أنادىكم وأنديكم
لخير منقلب عن شر منقلب

(١٧) المصدر السابق ص ٧٤ .

(١٨) الديوان — طبعة الإحصاء ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ .

الأجزاء : جمع جزع وهو منعطف الوادى ، والعطب : التلف ، بح صوته :
خشن وغلظ ، فرس ذبال : طويل الذيل ، سابغة : واسعة . سيف ذو شطب :
حاد ، والناقاة العبيدية : من كرام الإبل ، ناجية : سريعة ، والشدة : العدو ،
والجنب : ضرب من العدو ، والخمس (بالكسر) : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام
وترد الرابع ، والدوية : الغلاة : والرالة : ولد النعام ، وذى نجب : موضع .

فسكوتى بقول لا تقسّون به
قيد صرت أرضى بوعد منكم كذب

ثم ينتقل الى الافتخار بنفسه وبطموحه ويصف ناقته بالسرعة
وقوة التحمل: (١٩)

إذا الديار تغشاك الهوان بها
فخالها لضعيف العزم واغترب
حسبى من المال ذيال وسابغة
وصارم مرهف الجدين ذو شطب
وحرة من بنات العيد ناجية
لا تعرف السير غير الشد والخبب
تخالها بعد خمس الركب رائجة
دوية فقدت رألا بذى نجب

ويخلص من كل ذلك الى وصف المهدوح: (٢٠)

تقول لى هممى خيل المقام وقم
فانما راحة الأبدان فى التعب
وارغب بمدحك إلا فى سليل علا
ينمى الى الغر من آبائك النجب
متوج عبدلى حين تنسبه
لخير جد اذا يدعى وخير أب

ولا يعنى ما قلناه عن الروح البدوية فى شعر ابن مقرب أن الصفة
الحضارية منفية عنه وعن شعره ، بل ان شعره يزخر عمومًا وأما ديجته

بشكل خاص بالصور الحضارية ، التي يسبغها على ممدوحيه ، والولاء
منهم بالذات لما أحدثوه في أمصارهم من عمران وازدهار وتطور ، كمدائحه
للأمير باتكين مثلاً ، وقد مر بنا شيئاً منها فيما سبق •

مقدمة قصيدة المدح :

نهج ابن المقرب في قصيدة المدح نهج الشعراء الجاهليين
والمتقدمين ، وذلك في أغلب قصائد المدح ان لم يكن كلها ، فهو يبدأ
القصيدة — كما رأينا — بغرض خارجي عن الغرض الأساسي ، ثم ينتقل
إلى غرض آخر وهكذا حتى يصل إلى الغرض الأساسي من القصيدة •
على أنه ربما استهل قصائده بالدخول إلى الغرض المنشود مباشرة ودون
مقدمات كقوله :

بمعاديك لا بك الأسـواء
ولحسادك الثرى لا الثراء (٢١)

وقوله :

رماح الأعداى عن حماك قصار
وفي حـدها عما تروم عـثار (٢٢)

وقوله :

رويدك يا هذا المليك الحلال
فما المجد الا بعض ما أنت فاعل (٢٣)

الا أن هذا قليل في شعره •

(٢١) الديوان — طبعة الإحصاء ص ٢٣ •

(٢٢) المصدر السابق ص ٢٠٧ •

(٢٣) نفس المصدر ص ٣٤١ •

على أنه يمكننا تصنيف مقدماته في قصيدة المبدح الى الأنواع المكررة المعروفة وهى اما مقدمات غزلية أو حماسية أو مقدمات يقف بها على الديار ، والدمن ، وييكى الطلول ومنازل الأحبة أو مزيجا من كل ذلك ، وكل ذلك تطرق اليه الشعراء المتقدمون وهو معاد ومكرر ، يقول ابن رشيق عن عادة الشعراء فى ذلك :

« والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما أنضى من انركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهده ، وطول النهار وهجيره ، وقلة الماء وغؤوره ، ثم يخرج الى مدح المقصود ، ليوجب عليه حق القصد وذمام القاصد ، ويستحق منه المكافأة » (٢٤) .

وتتجلى عناية ابن مقرب بمقدمات قصائده وتمهيده بها للغرض الأساسى فى تطويل بعض هذه المقدمات حتى يصل بعضها الى (٥٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٨٠) (٢٥) بيتا ، وأخرى الى (٣٣) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٥٨) بيتا (٢٦) ، وأخرى الى (٢٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٦٤) بيتا (٢٧) ، وغير ذلك .

كما عنى ابن مقرب بتجويد مطالعه لأنها أول ما يقرع أذن السامع وبها يستدل على بضاعة الشاعر من أول لحظة ، ف جاء مطلع قصيدته كما طالب به ابن رشيق الشعراء أن يكون « حلوا سهلا وفخما جزلا » (٢٨) .

(٢٤) ابن رشيق — العمدة — ص ٢٢٦ .

(٢٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٠١ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٥٨٥ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٤٥٠ .

(٢٨) العمدة — لابن رشيق — ص ٢١٨ .

ومن أمثلة مطالع ابن مقرب الفخمة الجزلة قوله في الحماس :

سققها ولو ذهب السرى بسرزاتها
كم ذا ترد النفس عن عزماتها^(٢٩)

وقوله :

أقيما على حر المدى أو ترحلا
فلمست براض منزل الهون منزلا^(٣٠)

وقوله :

عنى اليك حوادث الأيام
ما كل يوم يسطاع خصامي^(٣١)

ومن مطالعه الغزلية قوله :

أرتها المآقى ما تكن الجوانح
فبح فالعننى بالصباة بائح^(٣٢)

وقوله :

تخفى الصباة والألحاظ تبديها
وتظهر الزهد بين الناس تمويهها^(٣٣)

(٢٩) الديوان طبعة الاحساء — ص ١٠٥ ، والسرى : سير عامة الليل ، والسرقة : أعلى كل شيء .

(٣٠) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

(٣١) نفس المصدر ص ٤٩٨ .

(٣٢) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٣٣) نفس المصدر ص ٦١٩ .

حسن التخالص :

على أن براعة ابن مقرب حقا تظهر في حسن تخلصه وانتقاله من غرض الى غرض بطريقة تبقى الكلام على سلاسته وانسيابه فلا يحس القارئ بأى انقطاع أو طفرة قد تغير من مجرى الكلام أو تحول أنره في النفس .

ومن نماذج حسن تخلصه قوله يمدح الخليفة العباسي المستنصر بالله :

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب في أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حيننا وآونة
تبث أضوائها حولى وتنتحب
فحين أكثرت التهويل قلت لها :
هذا التهول جد منك أو لعب ؟
حسبى أبو جعفر مما يدل على
وجه البسيطة أو يعتر أو يثب (٣٤)

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير حسن بن مسعود : (٣٥)

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحى من أيمن الحما
مرب يوارى الهضب دانى ربابه

(٣٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٩٣ ، الدوية : البرية ، القذف : المظلة ، يجب : يخفق ، المستر من الرجال : الشرير .
(٣٥) المصدر السابق ص ١٠١ : السحاب الأبيض ، واللها : الكثير من العطاء .

كجود ابن مسعود الفتى الواهب
الله ، ومخجل منهل الحيا في انسكابه

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير محمد بن عبد الله بن سنان: (٣٦)

أماننا لعبت أهل الفساد بها
فدمروها بلا فكر ولا نظر
لم يبق في خيرها فضل ولا سعة
عن العدو لذى نفع ولا ضرر
أما ولولا ابن عبد الله لا كذبا
لاستهلكت بين ناب الشر والظفر

وقوله يمدح فخر الدين بن هبة الله الدوامي ببغداد وكان أسدى
له معروفا :

يقولون مات الأكرمون وأصبحت
بحار الندى قاعا من الخير صفصفا
ولم يبق في هذا البرية ماجد
يلاذ به ان ريب دهر تعجرفا
فقلت لهم أخطأتم ان للندى
وللجود بحرا يقذف الدر مردفا
فما دام فخر الدين يبقى ونسله
فلا تسألوا عمن مضى أو تخلفا (٣٧)

ومن قصيدة له يستعجز الأمير أبا ماجد محمد بن علي ما كان وعده
من رد أملاكه قوله :

فقلت لهم ما ذاك نجم ترونه
 بناحية الخضراء ذات الحباءك
 فقالوا : فماذا ؟ قلت : نار بربوة
 تشب لأبناء الهموم الضرابك
 يضيء سناها بالدجى متمر
 على الدهر مودى البرك رحب المبارك
 أغر نماءه كل حمام ممانع
 عن المجد بالمستأثرات البواتك^(٣٨)
 ومن شعره في الأمير باتكين قوله :^(٣٩)

فثم تلاقوا الملوك بنى أبى
 ويكثر عنى حينذاك سؤال
 فقولوا لهم انا تركنا أخاكم
 بحيث مال الراغبين مال
 لدى ملك لا يبلغ الوصف مدحه
 وان أظنب المداح فيه وقالوا

الى آخر ما قاله من حسن انتقال وبراعة في التخلص ، رأينا أن
 نقصر على ما ذكرناه ففيه الكفاية ، وفي ديوان الشاعر مزيدا لمن شاء
 أن يستريد .

(٣٨) المصدر السابق ص ٣٠٩ والخضراء ذات الحباءك : السباء
 المتشابكة ، الضرابك : الفقراء ، المستأثرات : السيوف ، البواتك : القواطع .
 (٣٩) الديوان ص ٤٣٦ .

محتوى قصيدة المدح :

درسنا فيما سبق قصيدة المدح عند ابن مقرب من ناحية المطالع والمقدمات ومثلنا لذلك ببعض الأمثلة ، ثم رأينا — بالأمثلة أيضا — كيف أن الشاعر يجيد حسن التخلص ، والانتقال من المقدمة الى غرضه الرئيسى وهو المدح ، وعندما يصل الى هذه المرحلة يحرص على الاجادة فيها حرصه على مطالعه ومقدماته ، فيبدأ أولا بذكر مناقب المدوح وصفاته من شجاعة وكرم ، ويوضح شخصيته وما تتميز به من خلال عظمة ، ثم يتبع ذلك بمقاطع يشيد فيها بأباء المدوح وأمجادهم ، وقد يذكر بين ذلك أو ما قبله صلته بالمدوح اذا كان من بنى عمه وقربته ، ويفرغ من ذلك بعض المقاطع فى الفخر بالعشيرة العيونية، مادام المدوح يمت اليه بصلة القرابة اذ الفخر فى النهاية راجع لكليهما ، ولكن بدون أن يطغى ذلك على مدح المدوح ، وقد يستطرد بعد ذلك فى وصف موقعة أبلى فيها المدوح بلاء حسنا فيصف شجاعته وما ألحقه بأعدائه من الرعب والفرع والهزيمة والتشتت ، أما اذا كان للممدوح يدا عليه فيذكر كرمه ويشيد بسخائه ويعلو نداءه على من سواه ، وقد يمدح المدوح بعد ذلك بطريقة غير مباشرة من خلال رثاء والده فيستطرد فى ذكر مناقب هذا الوالد الراحل ومناقبه ويخلص من ذلك الى القول بأن هذا الشبل من ذاك الأسد • وربما مدح المدوح بهجاء أعدائه وبأنهم قصرُوا عن الوصول الى صفاته النادرة وعجزوا عن مثل أعماله العظيمة •

وهذا الكلام يجرنا الى ملاحظة ظاهرة هامة على قصيدة المدح عند ابن مقرب أيضا وهى :

ملاءمة القصيدة للمدح :

فبالإضافة الى الأمراء العيونيين مدح ابن مقرب أصنافا من الناس منهم الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم من الأعيان المعروفين في زمنه ، ومدح كل طائفة بما يلائمها وذكر لكل شخصية ما يناسبها من صفات وخلال تعرف بها .

فهو حين يمدح بنى عمه نراه يكرر معان بعينها . فيفخر بطيب أصلهم وأرومتهم وشجاعتهم وكرمهم واقدامهم في الحروب ، كل ذلك في معان قوية وألفاظ جزلة رنانة تناسب مقامهم ومكانتهم كملوك لبلاد البحرين وحين يمدح الخليفة العباسي يمدحه بلغة فخمة تناسب مكانته في مركز الخلافة ، وغالبا ما يميل الى المبالغة والغلو في ذلك مع الاشادة به في حفظ أمن البلاد وصلاح الأمة وفي تقواه وحسن اسلامه .

من ذلك مدحه بأنه امام هدى ينتسب الى آل هاشم ، وبأن الملوك تطوف بفنائهم كما يطوف المحرم بالركن اليماني :

ففى شاطيء الزوراء من آل هاشم
امام هدى يؤوى اليه فيعصم^(٤٠)
تطوف الملوك الصيد حول فنائهم
كما طاف بالركن اليماني محرم
ترجى به دنيا وديننا لأنه
الى الله في الدنيا وفي الدين سلم

وهو ينتسب الى رهط النبي صلى الله عليه وسلم الذي سيشفع للناس يوم الميعاد :

وهل مثله يوم المعاد وسيلة
الى الله الا رهطه المتقدم
أبوتنه اما نبى معظم
الى الله يدعو أو امام مكرم^(٤١)

وبأنه الذى ألفت اليه الناس مقاليد أمورها من عرب وعجم وصار
الناس والأملأك عبيدا له :

وألفت اليه بالمقادير بلغر
وعرب وأكراد وترك وديلم
وما الناس والأملأك الا عبيده
صريحهم ان ينسبوا والمخضرم^(٤٢)

وبه قوى الاسلام وأنه حرت أعداؤه وذلك بسبب قوة جيش
الخليفة :

وأضحى به الاسلام غضا وأصبحت
عيون الأذى عن سربه وهى نوم
وقد حفت راياته وبنوده
فوجه بلاد الشرك بالضم يلطم^(٤٣)

وعندما يمدح الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يمدحه بما يناسبه
كوال من ولادة الخليفة ، ويذكر الناس برضا الخليفة عليه :

وحسبه مفخرا أن الامام به
بر وأن لديه شأنه جال

(٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) الادبوان — طبعة الإحصاء — ص ٤٥١ — ٤٥٢ .
بلغر : مدينة الصقالبة . والديلم : أهل قزوین . صريح النسب : خالصة .
والمخضرم : المختلط النسب .

أمامنا الناصر الهادي فما اختلفت
فيه العباد وما جاءت به الرسل
خليفة قسما لولا محبته
لما تقبل من ذي طاعة عمل
هو الذي افترض الرحمن طاعته
ومن سواه فلا فرض ولا نفل^(٤٤)

وعندما يمدح الشيخ محب الدين الواسطي وهو من علماء واسط
المشهورين بالورع والزهد يمدحه بعبارات تلائم مكانته هذه ويقارن بينه
وبين أمثاله من الزهاد المشهورين ، فيقول مادحا له بأن القلم علا شرفا
على الرمح الدال على الشجاعة بسببه وبسبب مكانته العلمية :

بك يا محب الدين طالعت فاعتلت
شرفا على الخطية الأقدام^(٤٥)

وبأنه أحيا زهد بشرا والجنيد وعامر وكلهم أئمة في الزهد والعلم:

أحييت بشرا والجنيد وعامرا
زهدا وكل اذ يعد امام^(٤٦)

وأقام للإمام الشافعي القرشي حججا في آرائه :

وأقمت للقرشي في آرائه
حججا يقصر: دونها النظام^(٤٧)

(٤٤) الديوان ص ٤٤٦ .

(٤٥) ، (٤٦) المصدر السابق ص ٥٦٩ .

(٤٧) المصدر السابق .

ولو جدد العظماء فضله فان المساكين والأيتام يقرون بفضله عليهم
واكرامه لهم ، فهو يتصدق على الأرمال في الخفاء بعدا عن الرياء :

ان يجدد العظماء فضلك فيهم
فبنو السبيل تقرر والأيتام
لك حين يعتكر الظلام صنائع
تغشى الأرمال والعيون نيام^(٤٨)

واذا اعتبرنا الرثاء نوعا من المدح كما يقول بعض النقاد فلا بن
مقرب شعرا رثى به القاضي محمد بن ابراهيم المستورى ، وذكر من
خلاله مناقبه وما يناسبه كفاض اتصف بالورع والعدل والاغضاء عن
النفوات : (٤٩)

ولو شاء جازى بالعقوبة قدرة
ولكن له من خشية الله رادع
يصد عن العوراء حتى كأنما
به صمم عما يقول المقاذع

وله الحكم المأثورة في مجالس الملوك واذا تحدث غلب غيره من
الخطباء المشهورين :

له حكم مأثورة حين تلتقى
بآرائها عند الملوك الجامع

(٤٨ ، ٤٩) المصدر السابق ص ٥٧٠ ، ص ٢٨٠ . المقاذع : الرامى
بالفحش وسوء القول .

يقول فلا يخطئ إذا ما تأخرت
عن القول سادات الرجال المصاقع (٥٠)

ويتسم بالتواضع والعدل فلا يفرق في أحكامه بين قريب
وبعيد (٥١)

جميل السجايا كلما ازداد رفعة
تواضع حتى قيل ماذا التواضع ؟
سواء عليه في القضية من دنت
به الرحم القربى ومن هو شاسع
ومعذ نشأته لم يعرف الجهالة ولا ملاحاة الناس وسبابهم (٥٢)

نشأ مذ نشأ لم يدر ما الجهل والخنا
وسناد بنى أيامه وهو يافع
ولا عرف العوراء يوماً ولا انتحى
الى خطة يبغي بها من يقاذع

وحينما يمدح ابن مقرب أخذ آل نبيث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو النقيب تاج الدين اسماعيل العلوى الحسنى يشيد بالبيت
النسوى الذى ينتسب له الممدوح ، ويذكر مآثرهم فى الجاهلية
والاسلام (٥٣)

(٥٠ ، ٥١) المصدر السابق ص ٢٨١ . الرجل المصقع : البليغ .
السجايا : الطباع . والشاسع : البعيد .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ٢٨٠ . والجهل : ضد الحلم . والخنا :
الفسوق . واليافع : من ناهز البلوغ .

(٥٣) الديوان ص ٦٥٥ .

سادوا قریشا علا فی جاهلیتها
ومن یسامی قریشا أو یباریها
وکل علیاء فی الاسلام فهی بهم
تبنی وقطب الرحی منهم وهادیها

ولا یسمو الی مجد بن حسن أحد من الناس مادام عنصرهم من
رسول الله صلى الله علیه وسلم ومن الامام علی رضی الله عنه فأیادیهم
لا تحصى ولو أحصى تراب الأرض: (٥٤)

یا من یسامی الی مجد بنی حسن
عدمت رشدك هل خلق یسامیها
قبیلة من رسول الله عنصرها
ومن علی فتی الدنیا ومفتیها
ان القروم السوامی من بنی حسن
یحصى التراب ولا یحصى آیادیها

وهكذا فابن مقرب أعطى كل ممدوح ما یناسبه ویلائمه من معانی
المدح والافتخار .

ظاهرة العرض التاريخی فی مدائح ابن مقرب :

أكثر ابن مقرب من ذكر الأحداث التاريخية فی مدائحه للأشادة
بالممدوح وأمجاده وأبائه وقبیلته ، فأعطى نفسه بذلك مجالا
أوسع فی المدیح ، وزخرف قصیدته المدحیة بألفاظ فخمة ضخمة زادت
هذه الحوادث روعة وجلالا ، علی أن أكثر ما تتبدى هذه الناحیة فی
مدائحه نبئی عمه الأمراء العیونیین ، ولا غرو فی ذلك ، فكون الشاعر

فرد من الأسرة العيونية حتم عليه أن يدرس ماضيها ويطلع على أمجادها
ووقائعها التاريخية منذ نعومة أظفاره عن ظهر قلب • ومن ثم صاغها
في شعره وترجمها الى صور فنية تحييها في النفوس ، وتخلدها في
الأذهان ، ويتذاكرها الأحفاد جيلا بعد جيل •

نرى مثال ذلك في مدحه للأمير محمد بن أحمد بن أبي الحسين فقد
ذكر بعض وقائعه التاريخية حين تجمعت على حربه قبائل أهل القطيف
وآل حجاب وآل شبانه ، فهزمهم وشتت شملهم :

يا سائلي عنه رويدك هل ترى
يخفى الصباح على ذوى الأذهان
سائل به يخبرك كل مقلص
نهـد وكل مثقف ويماني
لما أتت أهل القطيف بجحفل
متوقـد كتوقـد النيران
في آل حجاب وآل شبانه
مثل الأسود بحاقتى خفان
نزلاوا على صفواء صبحا وابتتوا
فيها القباب وأيقنوا بأمان
وتسربلوا حلق الحديد وأقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فعدت فوارسهم لما قد عاينت
هربا ولم تعطف على النسوان
فرمى الأمير جموعهم فتمزقت
كالثـماء اذ جفلت من السرخان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا ، فوق معاقد التيجان

وحوى ضعائهم وأحرز ما لهم
غصبا وأنزلهم بشر مكان^(٥٥)

وغير هذا كثير مما يبرز به شعر ابن مقرب في بنى عمه على الخصوص وفي غيرهم عموما ، وسنعرض مرة أخرى عندما نتحدث عن غرض الفخر عند الشاعر لهذه الناحية التي تميز بها شعره والتي خلد فيها قومه وما أثرهم على مر الزمن ، ولولا ذلك لما عرفنا قليلا أو كثيرا عن هذه الدولة العربية الأصيلة ولاندثرت أخبارها كغيرها من الأمم الغابرة .

ومن الناحية الفنية تميز هذا العرض التاريخي بذكر الأحداث العامة دون الدخول في التفاصيل التي قد تخل من روعة شعره وفخامته .

ظاهرة الفخر بالتصيدة :

يرى ابن رشيق أن من آداب الشاعر ألا يكون معجبا بنفسه مثنيا على شعره « وان كان جيدا في ذاته حسنا عند سامعه ، فكيف ان كان دون ما يظن » على أنه — ابن رشيق — جوز هذا الفخر اذ أراد الشاعر وترغيب المدوح أو ترهييه ، فيثني على نفسه ويذكر فضل قصيدته^(٥٦) وفخر الشعراء بشعرهم قديم متداول ، وقد خصص الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز فضلا واسعا لوصف الشعر والادلال به لعدد من الشعراء أمثال كعب بن زهير وحسان بن ثابت وبشار والفرزدق ، وأكثر من ذكر الأوصاف التي وصف بها أبو تمام شعره وتشبيهه القلادة والبرد المنعم ،

(٥٥) الديوان — ص ٦٢٠ ، قلص : وثب ، غرس نهـد : ارتفعت مراكله ، المتقف : الريح ، اليهاني : السيف ، خفان : مأسدة ، الصنفاء : الحجارة الصلدة . والصفاء : نهر بالبحرين قديما ، تسريل : لبس السربال ، والعقاب : طائر جارح ، جفلت من السرحان : خافت من الذئب ، والضعينة : المرأة على اليهودج .

(٥٦) العمدة ، لابن رشيق ص ٢٠١ .

أو أنها منقوشة كنقش الدنانير وأن صاحبها سهر الليل الطويل في
إبداعها ، ويذكر ابن رشيقي في العمدة أن أبا تمام كان أكثر الشعراء
وصفا لقصيدته وروعتها وفخامتها ، كما عرف البحتری فخورا بشعره
ينتظر مشاركة الآخرين إعجابه بقصيدته^(٥٧) . وكان المتنبي يعتبر
قصيدته جزءا من مفاخره الشخصية يدل بها ويفخر ويعلن توحده في
دنيا الشعر ، فالدهر من رواه قصائده ومن يقول بعده إن يأتي إلا بالمعنى
المكرر :

أجزنى إذا أنشدت شعرا فانما
بشعري أتك الملاحون مرددا
ودع كل صوت بعد صوتي فاننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى^(٥٨)

وظاهرة الفخر بالقصيدة نراها كثيرا في نهاية القصيدة المدحية عند
ابن مقرب ، وهو عندما يعجب بشعره فهو لا يفعل ذلك لينال به الفخر
مثل غيره من الشعراء ، وإنما هو الرجل الماجد الذى يكفيه فخرا مكانته
ومكانة قومه بين الناس :

اليك يا ابن رسول الله شاردة
بكرا يطول رواة الشعر روايها
من ماجد لا يرى فخرا بقافية
أذ كان فخر رجال من قوافيها^(٥٩)

وكثيرا ما يشبه ابن مقرب قصيدته بعقد الجواهر التى يضمن بها

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٠٤ ج ١ .

(٥٨) ديوان المتنبي ص ١٤ ج ٢ شرح البرقوقى .

(٥٩) الديوان ص ٦٥٦ .

على غير المدوح ، والتي يقصر عن ترصيعها كبار الشعراء كالفرزدق
والاعشيان والحطيئة :

اليك كمال الدين عقد جواهر
أضن بها عمن سواك وأبخل
يقصر عن ترصيعها في عقودها
أخو دارم . والأعشيان وجرول^(٦٠)

وفي قصيدة أخرى يقول :

اليك عماد الدين عقد جواهر
تتاهى فما يؤتى بعقد يشاكلة^(٦١)

ويذكر أحد ممدوحيه من بنى عمه بقيمة قصائده في الاشادة
بأمجادهم ، واعلاء كلمتهم :^(٦٢)

فكم لى فى عيناكم من غريبة
يظل مساميكم لها متضائلا
نتائج فكر غادرت كل فكرة
نتوج لما يحلو من الشعر حائلا
ويفخر بأنه خلد قومه فى شعره وكساهم به ثوبا من المجد يبقى
جديدا على مدى الأيام :

كسوت قومى والبحرين ثوب علا
يبقى جديدا بقاء الحوت والحمل^(٦٣)

(٦٠) المصدر السابق ص ٤٣٣ .

(٦١) نفس المصدر ص ٣٤٠ .

(٦٢) نفسه ص ٤٠٤ .

(٦٣) الديوان ص ٣٨٢ .

وعنده لهم من قصائد المدح ما يعجز عنه جرير وفحول الشعراء
الأوائل: (٦٤)

وعندي من المدح الذي ما اهتدى له
جرير ولا تلك الفحول الأوائل

ويصف قصيدته وعذوبة ألفاظها بالنور الذي يغشى البلاد فتضىء
سطورها كالدرر ، ولو سمعها جرير لقام لها جلالا واستعادها: (٦٥)

فدونك عذبة الألفاظ جاءت
بنور ساطع يغشى البلاد
تريك سطورها والليل داج
مزيد الدر مثنى أو فرادى
لو اجتازت بسامعتي جرير
لقام لها جلالا واستعادا

الدعاء للممدوح :

وغالبا ما يختتم شاعرنا قصيدته بالدعاء للممدوح داعيا له بالبقاء
وطول العمر وعلو المجد ، وعلى عدوه بالخمول وسوء الذكر ، وهذا
الختام يأتي منسجما مع باقى أجزاء قصيدة المدح عند ابن مقرب كما
استعرضناها جزءا جزءا فيما سبق .

يقول في نهاية قصيدة يمدح بها أحد أبناء عمه ، داعيا له بدوام
السعادة: (٦٦)

(٦٤) المصدر السابق ص ٣٤٨ .
(٦٥) نفس المصدر ص ١٩٠ .
(٦٦) الديوان ص ٦٣ .

وأكرم أبناء الملوك سجيّة
كريم متى عاتبتّه لان جانبّه
بقيت وأعطيت السعادة ماشدا
حمام ، وما لاحت ليل كواكبّه
ويدعو للخليفة العباسي المستنصر بالله بأن يبارك الله في أيام دولته
ويبقىها على الدوام :

فيارك الله في أيام دولته
وجادها كل رجاس له لجب
فان أيامها طرز الزمان اذا
عدت ، وتاج به الأعياد تعتصب
ولا أراننا اماما غيره أبدا
فمالننا في امام غيره أرب^(٦٧)

وللأمير حسن بن مسعود بقتل أعدائه وأن يعتز الاسلام به
وتحوطه رعاية الله :

فلا زالت الأعداء قتلى سيوفه
وأقلامه في أرضها وحرابه
عز به الدين الحنيف وحالت
محارم دار الشرك حمر قبابه
ولا برحت عين الاله تحوطه
وتحفظه في مكه وذهابه^(٦٨)

(٦٧) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٦٨) الديوان ص ١٠٤ .

ويدعو للامير باتكين بطيب العيش ولأن يكيد به بالبؤس والذل
وسوء المعاد :

عشت يا باتكين المجد ما غرد
حاد وما ترنم شاد
في نعيم وخفض عيش وفي عز
عزيز باق على الآباد
ورمى الله من يكيدك بالبؤس
وذلك الحيا وسوء المعاد (٦٩)

وقبل أن نختم حديثنا عن غرض المدح عند ابن مقرب يلزمنا هنا
أن نجيب على سؤال يتوارد الى الذهن وهو : هل كان ابن مقرب يمدح
للفرد وطلب النوال ؟ أم كان مدحه لسبب آخر ؟ ان معظم من كتبوا عنه
أجابوا بالنفى ، وقالوا بأن مدحه في معظمه أنصب في أمراء قومه
وعشيرته وله يظفر باسترجاع حقوقه المغتصبة ، وهي ما دامت حقوقه
فلا ضير عليه بعد ذلك أن يتملقهم ويشيد بهم في سبيل استردادها
واعادة الحق الى نصابه ، كما أنهم أهله وقرباته ، قوته بقوتهم ، وعزته
بعزتهم ، فلو هجاهم لهجا نفسه ، ولو عاداهم لانفرد بين الناس وسقط
نجمه ، وأحسب أننا نستطيع الوقوف على دوافع المدح الحقيقية عنده
من مثل قوله : (٧٠)

ولست بمهد للرجال مدائحي
وإن قل مال أو تغير حال
ولكن نعمى حركتني وصحة
وود ، وهذا للكرام صقال

إذا فاعترافه بالجميل والصحبة الحسنة والصدقة وجفظ الوداد ،
 هي التي دفعته لمدح من مدح ، وليس السؤال أو طالب الرشد ، وهذا
 ليس غريبا على أمثاله ، فهو كما علمنا ذو نفس أبية تأبى الذل والخنوع
 وصاحب همة يجاوز مداها أنجم السماء العالية ، وهذا واضح من شعره
 الذي يظهر عليه في معظمه عزة النفس وقوة الشكيمة ، والشعور بجليل
 المكانة بين الناس ، أليس هو القائل :

ولست وإن أودى الزمان بثروتي
 وزاحمتني منه بخضم ممالك
 بمهد ثنائى والمنادىح جمّة
 الى حوتكى أبشع اللؤم راعك
 يرى مورد الآمال حول فنائه
 بعين نوار تلمظ الشيب فارك
 ولا ضارع طوع المنى يستفزنى
 الى مقرف رجم الظنون الأوافك
 ولست بمفراح بمال أفيده
 لعمري ولا آس على أثر هالك
 ولا ماحد إلا سرة بنى أبى
 جمال المعالى بل ليوث الممارك^(٧١)

(٧١) الديوان - ص ٣١٤ . أودى الزمان بثروتي : ذهب بها ،
 والممالك : اللجوج الحسن الخلق ، والمندوحة : السعة ، والحونكى : القصير
 الضاوى . النوار : المرأة تنفجر من الريبة ، والفارك : الميغضة لزوجها ،
 المقرف فى النسب : الهجين ، والإفك : الكذب ، والآس : الحزين .

الفخر والحماس :

يأتى غرض الفخر بعد المديح مباشرة ضمن أغراض الشاعر من حيث كثرة الشعر الذى قيل فيه ، فقد أكثر ابن مقرب من الافتخار بقومه وبنفسه وبطبيب أهله ومحتده وأرومته ، ولا غرابة فى ذلك فهو أمير ابن أمراء حكموا البحرين فترة ليست بالقصيرة ، وهو من قبيلة عبد القيس التى تنتفع من ربيعة ، والتى ترجع بدورها الى معد بن عدنان أصل العرب جميعا (٧٢) .

فالمواد (الخام) التى يستمد منها الشاعر — أى شاعر — فخره وحماسه متوفرة فى عشيرة ابن مقرب ، ويزخر بها تاريخها المجيد ، وتفيض بها أيامها ، فالسيادة فى شرق الجزيرة العربية كانت لها ، انتزعتها انتزاعا من أيدي خصومها بعد معارك وصولات حاصدة طاحنة .

واستطاعت الأسرة العيونية أن تفرض هيبتها على الآخرين ، فوقفت سدا منيعا ضد عبث البادية وهجمات قطاع الطرق ، ويكفى الدولة العيونية فخرا أن يكون انهاء دولة القرامطة على يديها ، هذا الى ما عرف به أمراؤها من أصالة فى الفضل ، وعلو فى الخلق ، وغيرة على المحارم والمصالح (٧٣) ، الأمر الذى أنطق لسان شاعرها ، وجعله يلهج ويشيد بكل هذه المناقب ويعدد تلك الصفات والمآثر .

وقد اتجه ابن مقرب فى افتخاره اتجاهين رئيسيين :

أحدهما : الافتخار بالأسرة العيونية وبأمجادها وماضيها التليد .

الثانى : الافتخار بنفسه وبصفاته من شجاعة وكرم وغير ذلك ، كما افتخر بشعره فى قصائد غير قليلة أوردنا شيئا منها عندما حللنا قصيدته المدحية .

(٧٢) إبراهيم الإيبارى — الموسوعة القرآنية الميسرة ج ١ .

(٧٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ١٠٣ .

(١) الفخر بالأسرة العيونية :

افتخر الشاعر بقومه فأكثر من ذلك ، وأضفى عليهم من الصفات ما يجعلهم سادة الأرض وحدهم ، وأن من عداهم فضله ، ليس له من صفات الخير شيئاً ، وقد بالغ في كثير من الأحيان في ذلك ، إلا أن الخط الذى سار عليه هو نفس الخط الذى سار عليه الشعراء قبله في الفخر بأمجاد قبائلهم وآبائهم من ناحية المبالغات والتهويل ، فلم لا يفخر هو أيضاً بآبائه على نفس المنوال ، ما داموا يملكون من المجد والسؤدد ما يؤهلهم لذلك ؟ لنسمع اليه وهو يقول فيهم : (٧٤)

هم الناس ، كل الناس ، والناس فضلة
إذا ناب أمرأط من حملة الصلب
بهم يدرك الثأو البعيد وعندهم
للتمسى المعروف ذو مربع خصب
وفيههم رباط المكرمات وراثه
يورثها المولود والده الندب
ولولا أياديهم وفضل حلومهم
لزلزلت الأرضون وانقضت الشهب !
خفاف الى داعى الوغى غير أنهم
ثقال ، اذا خفت مصاعبيها الهلب

(٧٤) الديوان — ص ٢٩ ، أط : صوت ، المصاعيب : الفحول من الإبل والهلب : الكثيرة الشعر ، القنا : موضع باليمن ، والشعر : ساحل البحرين بين عمان وعدن ، والنقب : بلدة البهامة ، السعيب : ولد الناقة ، درع دلاص : ملابس لينة ، والتبعيات : نسبة الى تبع ، والعصب : ما يشد الى الجسم ، الصلاء : الشواء والوقود . قطننا : اسم فعل بمعنى كفتنا ، العدان : جمع العتود ، وهو الحولى من اولاد المعز . والسديف : سنام الإبل ، المتالى : الإبل لم تنتج ، الوطب : وعاء اللبن . شمارخة : جمع شمراخ وهو أعلى الجبل ، والغلب : جمع الاغلب وهو الغليظ العنق .

إذا الجار أمسى نهبة عند جاره
فأموالهم للجار ما بينهم نهب
أطاعت لهم ما بين مصر الى القنا
الى حيث تلقى دارها الشحر والنقب
وجاشت نفوس الروم حتى ملوكها
إذا ذكرت أملاكها هزها الرعب
تحسن الى ذات النوال أكنهم
حنينا كذات السقب فارقتها السقب
فأكثر ما تلقاهموا ولباسهم
حيبك الدلاص التبغيات لا العصب
لهم أبدا ناران : نار بها الصلا
تلذ ، ونار لا يقاومها الهضب
وأيامهم يومان : يوم لنائل
يقول ذوو الحاجات من فيضة حسب !
ويوم تقول الخيل والهيض والقنا
به والعدى : قطنا فلا كانت الحرب
وان ضمن بالعدان كان قراهم
سديف المتالى لا عتود ولا وطب
أولئك قومي حين أدعو وأسرنى
وينجبني منهم شمارخة غلب !

فقوم ابن مقرب هم الناس كل الناس ، ورباط المكرمات فيهم
وراثه ، ولولا كرمهم وحملهم لزلزلت الأرض وانقضت الشهب ! وأموالهم
مستباحة لجازهم ولذوى الحاجات ، وقد هابتهم العرب والروم
لشجاعتهم وقوتهم ، وامتد نفوذهم من مصر الى اليمن .

وانظر الى قول الشاعر مصورا كرم قومه وكثرة عطائهم في صورة اليد التي تحن الى البذل والفوال بصوت يشبه صوت الناقاة التي تحن الى ولدها ، وهذه الصورة فيها كثير من البراعة .

وأطول قصيدة في ديوان الشاعر مكونة من (١٥٠) بيتا قالها في الافتخار بقومه وتعداد مفاخرهم ومآثرهم ، وهى تعد بحق سجلا تاريخيا للدولة العيونية وأعمالها ، ورصد مفاخرها وبطولات رجالها ، ومطلع هذه القصيدة : (٧٥)

قم فاشدد العيس للترحال معترما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما
ومنها يقول :

أنا ابن أركان بيت المجد لا كذبا
والنازليين ذرى العلياء والقمما
قومى هم القوم فى بأس وفى كرم
ان ادعى غيرهم ما فيهم وهما
فى الجاهلية سدننا كل ذى شرف
بالمآثرات وسدننا العرب والعجما
وصار كل معدى لنا تبعنا
يرعى بأسيا فنا الوسى حيث هما
حطنا نزارا وذدنا عن محارمها
ولم ندع لناوى عزها حرما

(٧٥) الديوان — ص ٥٣٠ .

الوسى : أول مطر الربيع ، هـى المذر : سال لا يثنيه شىء ، وممدى نسبته الى معد بن عدنان ، ارم : والد عاد الاولى ، شطى جماعهم : كسرها .

حتأتى الله بالاسلام وافتتحت
كل البلاد وأضحت للأنام سما
وفضل آخرنا عن فضل أولنا
يغنى ولكن بحرا هاج فالتظما
شدنا من المجد بيتا لا تقاس به
ذات العماد ولكن لم نكن ارما
سل (القرامط) من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

وبعد أن افتخر ابن مقرب بأبائه وأجداده وسيادتهم على العرب
والعجم في الجاهلية ، مضى في باقى القصيدة يشرح ما فعله القرامطة
ببلادهم من تقتيل للأنفس البريئة وتعطيل للشعائر الدينية ، مبينا أفضال
قومه العيونيين في مناهضة هذه الطائفة وبلاءهم البلاء الحسن في
محاربتها . حتى تحقق على أيديهم ، ما كان أهل البلاد يصبون اليه من
عزة وكرامة واستقلال ، ثم عطف بعد ذلك — في نفس القصيدة — معددا
مفاخر بعض أفراد عشيرته البارزين بأسلوب قوى جزل جذاب جارى
به فخر كبار الشعراء العرب .

فمن افتخاره بالأمير فضل بن عبد الله بن على العيونى قوله :

من الذى قام سلطان العراق له
جلالة والمدى والبعد بينهما

يشير بهذا البيت الى حكاية تاريخية طريفة تشهد بكرم الأمير
فضل ، وتتلخص في أن جماعة من التجار كانوا على ظهر سفينة بقرب
شواطئ البحرين ، فهبت عليهم ريح شديدة حطمت السفينة ، ففر هؤلاء
بأنفسهم من شبح الموت الى البر . تاركين بضاعتهم للفرق ، وما أن
سمع الأمير الفضل بالأمر حتى بعث من يغوص على الأموال لاستخراجها

من قاع البحر ، وقد تم العثور على معظمها ، وحينئذ أحضر الأمير التجار لديه وسألهم عن أموالهم المفقودة وعن علامتها وصفتها فأخبروه بذلك فدفعها إليهم . ثم ان أحدهم سافر الى العراق ، وهناك في سوق الجواهر عرض بعض جواهره مما كان مستخرجا من ساحل البحرين فما أن علم سلطان العراق يومذاك بأمر الجواهر المعروضة في السوق حتى استولى عليها ، ودفع لصاحبها ثمنا بخسا ، فلم يأبه التاجر بالأمر ولم يعره مزيد اهتمام ، بل زاد قائلا للسلطان : خذ ما تشاء بلا قيمة ، فان هذا كله هبة من عربى كريم ، وانتبه السلطان وقال : ويلك ! ومن هو هذا العربى ؟ فقال التاجر : انه الأمير العيونى الفضل بن عبد الله سيد البحرين وقص عليه القصة ، وهنا وقف السلطان ، وطلب كأسا من شراب — كما تقول الرواية — وقال : انما احتسى هذا واقفا من باب الاقرار بفضل سيد البحرين وبفضل اريحيته ، وبعد ذلك أمر بدفع قيمة تلك الجواهر كاملة من غير نقصان .

ومن افتخاره بالأمير أبى سنان محمد بن الفضل بن عبد الله ابن على قوله :

من الذى حين عد الألف خازنه

لضيفه قال ضاعفها أرى أمما (٧٦)

وذلك أن أبا سنان وفد عليه وافد ، فأمر صاحب خزانته باحضار ألف دينار فلما أحضرها الخازن وألقى عليها أبو سنان نظرته تحرك عامل الكرم في نفسه وقال للخازن : زد عليها ألفا آخر ، وسلم الألفين للرجل .

واغتخر أيضا بالأمير أبى شبيب جعفر بن الفضل بن عبد الله ابن على العيونى فقال :

منا الذى أنهب اصطبلاته كرما
وهى الجياد اللواتى فاقت القيما
وكان ان سار فالعقيان تتبعه
لسائل رد أو مسترفد حرما (٧٧)

وذلك أن الأمير أبا مقدم مات له جواد ، فبلغ الخبر أبا شبيب
فأمر له بأربعين جوادا خلفا في جواده ، فلما جاء بها الرسول أخذ
أبو مقدم واحدا منها فقط ، فأعادها أبو شبيب ثانيا — الى ثلاث
مرات — وأخيرا نادى أبو شبيب فيمن حوله بنهبها وبتهب كل ما في
الاصطبل ، ومن حاز شيئا فهو له • أما البيت الثانى فيشير به الى أن
أبا شبيب هذا كان — كما يحكى — اذا أزمع الركوب أمر أحد غلمانه
بأخذ شيء من الذهب من لدن الخازن وجعله في أوراق على مقادير
مختلفة ، فكان وهو في الطريق يوزعها على السائلين والمسترفدين ، واذا
تبقى منها شيء أمر بدفعه لمن على الباب من العيونيين ، فان لم يوجدوا
كان من نصيب الخدم •

وأشاد بأنسانية الأمير أبى منصور على بن عبد الله بن على
العيونى وحده وعطفه على الرعية عند حلول النكبات الجائحة فقال :

منا الذى فض أموال الخزائن في
غوث الرعية لا قرضا ولا سلما
وأهمل الدخيل ذاك العام فانتعشت
به الرعية حتى جازت القحما

وقصة ذلك أن جموعا كبيرة من البدو هجمت على الاحساء ، فنهض
أهل البلاد لصدهم ، وفي موضع قريب من (السليمات) وقعت بين

الطرفين واقعة عظيمة انتهت بهزيمة أهل البلد هزيمة منكرة ، حيث قتل ثمانون رجلا وأسر خمسمائة وعشرون ، وقبيل هذه الواقعة أصيبت الزروع والثمار بمرض وارتفعت أسعار المعيشة ، فتوالى على الاحساء المصائب والنكبات فنهض الأمير أبو منصور وفتح أبواب خزائنه وفرقها على الناس تخفيفا للكرب ، كما أعلن أن الزكاة مطروحة عنهم ذلك العام ، وما زال حادبا عليهم حتى كثرت معاشهم ، وصلحت ثمارهم وعادت الحياة العامة كما كانت .

وأشاد بمؤازرة الأمير أبى الحسن بن عبد الله بن على — أمير القطيف — لقوم التجأوا بحماه فهون من مصابهم وهدأ من روعهم فكان لهم فيه خير عزاء فقال :

منا الذى جعل الاقطاع من كرم
ارثا توزعه الوراثة مقتسما

وجاد فى بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلق اللجما

وهؤلاء القوم هم (الرياشمة) — وهم فخذ من عبد القيس — ومن المناوئين للأمير أبى المنصور ، وعندما حكم الاحساء خشوا من بطشه بهم فخرجوا هاربين صوب القطيف وكانوا سبعين فارسا ، وهناك احتموا بأمرها أبى الحسن ، فاستقبلهم أحسن استقبال ، وأمر لكل واحد منهم بدار ومحتاج وزاد وأوان وخدم وكل ما يكفل لهم الراحة ، كما وهبهم الكثير من النخيل والبساتين ، فتوارثها أبناؤهم من بعدهم ، ومن أخبار هذا الأمير أيضا أنه حضر فى مجلسه ذات يوم أربعون فارسا فأمر لكل شاعر بفرس .

وتصيب نواحي الاحساء سنة ممحلة لم ير أشد منها قحطا ، حتى هجرت الطيور القفار الى المدن ، وكان أمير الاحساء آنذاك أبا مقدم

شكر ابن أبى المنصور على بن عبد الله على العيونى ، وقد بلغ من كرمه — كما يقول الراوى — أن جعل لكل جنس من الطير شيئا من طعامه ، فلفغراب مثلا — التمر — ، ولففواخت وغيرها القمح وشتى الحبوب وجعل ينثر طعامها فى مواضع تجمعها ، ومنع هواة الصيد من اقتناصها ، وقد سجل شاعر القبيلة ذلك فى سجل الشرف فقال :

ومطعم الطير عام المحل فاسم به
منا اذا صر خلف الغيث فانصرما

وعندما حمل عبد الله بن على العيونى لواء الكفاح ضد القرامطة وأحلافهم ، احتاج الى مزيد من المال ، وخوفا من ضعف مركزه وانتقاص الأمر عليه ، أمدّه الأمير أبو يوسف على بن يوسف بن ضبار — وكان ثريا — بأموال طائلة ، وحكى أن الذهب كان يحمل اليه فى مسوك — وهى رقاب من جلود الابل — فكان ذلك من أسباب انتصار عبد الله ، فقال شاعرنا فى ذلك :

منا الذى انفق الأموال عن عرض
حتى رأى شعب شمل العز ملتئما
ملء المسوك قناطرا مقتطرة
ما خاف فى جمعها حوبا ولا أثما

كما يروى أن الأمير محمدا بن أبى الحسين بن أحمد بن محمد ابن الفضل بن عبد الله بن على كان شجاعا فارسا ، مشهورا بالكرم والعطف على المحتاجين ، وله فى كل يوم من ينادى على سطح قصره كل مسكين وجائع الى الطعام ، وقد سجل ابن مقرب هذه المفخرة الانسانية بقوله :

منا الذى كل يوم شوق دارته
داع ينادى اليه الجائع الضرما

وأشاد بالأمير أبى على الحسن أمير القطيف ، الذى ما كاد يترك
سمعه نبأ قدوم الأمير أبى منصور عليه حتى استقبله ماشيا ، وأقطعه
بأدا تسمى « الظهران » (٧٨) ، فنزل بقصرها ، وحرّم أن توقد بها أى
نار للضيافة غير ناره هو حتى توفى فسجل الشاعر ذلك مفتخرا :

منا الذى لسم يدع نارا بساحته
تذكى سوى ناره للضيف أن قدما

وأراد مرة عقيلة بن شبانة زعيم بنى عامر ، المقيض فى القطيف ،
فصده عن ذلك أميرها أبو سنان محمد بن الفضل ، فتطور الأمر الى
القتال فتشتت جموع عقيلة ، وأخذت حلقه ، واقتعلت أطلاب بيته ، ورمى
به فوق الأرض ، وانتهاز عقيلة فرصة انشغال جند أبى سنان بالسلب
والنهب ، فأحاط مع جماعته بأبى سنان ، غير أن هذا استطاع تفريقهم ،
وشق طريقه الى الباد دون أن يجرؤ أحد على متابعته ، ونزح عقيلة عن
القطيف فورا وفى هذا كله قال ابن مقرب :

وصاحب البيت منا حين تنسبه
لو لم نجد غيره سدنا به الأمما

وافتخر كذلك بالأمير أبا مقدم شكر بن على بن عبد الله بن على
العيونى فقال :

منا الذى عام حرب (النائلى) جلا
يوم (السبيع) ويوم (الخائس) النعما

ويعنى بذلك ما جرى من حماد النائلى الذى طمع فى ملك الاحساء ،
فسار اليها مغيرا ، وكان ملكها أبو سنان نازلا ، القطيف وموليا على

الاحساء أبا مقدم ، وقد تمكن حماد من دخول الاحساء بعد حربها ثلاثين يوما وفي حالة انشغاله مع قومه بالنهب حمل عليهم أبو مقدم مع بنى عمه وعشيرته وجنده ، وعادت الهزيمة على حماد النائلى ، وقتل عدد كبير من جموعه ، و « الخائس » موقع كثر به تقتيل جماعة النائلى ، فأنتن من شدة العفن ، و « السبيع » هو ولد غفيلة ، وقد قتل فى الخائس .

وقال عن الأمير أبى ماجد بن منصور بن على بن عبد الله بن على العيونى :

منا الذى منع الأعداء هيئته
حرب البلاد فما شدوا لهم حزما
ومات يطلب يوما يستلذ به
يطبق الأرض نقعا والحضيض دما

وذلك أن لأعراب المناوئين للاحساء ، التفوا حول أمير عقيل شبانة ابن عقيلة ، وشكوا اليه شدة الأمير أبى منصور وجبروته ، وأغروا شبانة بالحرب ، فحدد لهم ميعادا يراجعونه فيه ، فلما اجتمعوا ورأى ميلهم للحرب سألهم : كم فى الاحساء من فارس مبرز ؟ فعدوا له أربعين فارسا لا يطاق لهم الغزال ، فقال : وأبو ماجد عن أربعين فاصبروا .

وطول حياة الأمير أبى ماجد لم يجزؤ هؤلاء على حرب الاحساء ، وكان أبو ماجد يقول : وددت أننى أطارد خيل عامر الى الليل يوما كاملا ، فمات قبل ذلك ، فقد كانوا يذلون عن حربه .

وافتخر كذلك بالأمير محمد بن أبى الحسين بن أحمد بن أبى الفضل ابن عبد الله بن على فقال :

منا الذى ضربت حمر القباب له
بالمشهدين وأعطى الأمن وانتقما

لولا عياذ بنى الجراح منه به
لصاحبت (دهمشا) أو ألحقت (درما)

ويتلخص موضوع البيتين في أن أمراء ربيعة وهم بنو الجراح
جمعوا قبائل طيء وزبيد والخلط وعرب الشام مع دهمش بن سند
ابن أجود سيد عربيه ، وقصدوا بنى عقيلة ، وهم عامر وعائذ وخفاجة
ومن خالطهم من قيس ، وكان الأمير ابن أبى الحسين رئيسا على قبائل
الاحساء ، فلما سمعت خفاجة ومن معها بأمر الغزو بعثوا الى الأمير
يخبرونه ، وهم على خوف فما فعلت تلك الحشود بطريق مكة من غضب
الحاج على ما أرادت ، وشكا الحاج الى الخليفة الذى حث الأمير على
النهوض للتكامل بدهمش ومن معه غضب الحاج ، فاستنهض الأمير عرب
البحرين ، وقصد العراق ، فانضمت اليه عربها ، فلقى بنى ربيعة وأتباعهم
قرب الكوفة ، فأوقع بهم الهزيمة وطلب بنو ربيعة الصلح مع الأمير ،
فصفح عنهم وأجارهم ، ولكنه لم يجز دهمشا ، فدخل هذا مشهد على
مستجيرا ، فأقام الأمير الحراس على أبواب المشهد ، وبعث الى الخليفة
يسأله الرأى ، فطلب منه الخليفة ارسال دهمشا اليه ، وهناك استتابه ،
فتاب فخلى سبيله وأكرمه .

ومن مآثر الأمير محمد بن أبى الحسين أيضا في هذه المعركة يقول
الشاعر :

منا الذى ركز الرمحين ضاحية
وجوز العرب العرباء بينهما
حتى احتوى ما اصطفاه من عقائلها
غصبا وهان عليه رغم من رغما

وقصة ذلك أن الأمير محمد بن أبى الحسين بعد أن نكل بربيعة
وبأصحاب دهمش ، اجتمعت القبائل التى كانت معه لاقتسام الغنيمة ،

فأمر الأمير غلمانه أن يركبوا رمحين وقال : لا يجوز أحد لمغنمه الا من بين الرمحين غاديا ورائحا ، ووقف على فرسه وصار كل من مر به أخذ بما حصل له من المغنم ، فاذا استحسن شيئا أمر غلمانه بضمه اليهم ، فيضمونه عندهم له ، حتى جازت تلك القبائل كلها من بين الرمحين ، ومن لا يجوز أخذه أصلا ، فجمع يومئذ من الابل والخيول والخدم والأمتعة ما لا يحصى عدده ، وغنم من أراد ، وخيب من أراد ، لأنه صار يأخذ من كسب هذا ويعطيه هذا فلا يقدر أحد على الإنكار .

وعن حروب العيونيين مع ملوك الفرس الطامعين في البحرين سجل لنا ابن مقرب في الفخر قوله :

ويوم (ستره) منا كان صاحبه
لاقت به شامة والحاك الرقما

الفين غادر منهم مع ثمان ماى
صرعى ، فكم مرضع من بعدها يتما

ويعنى بذلك الأمير أبا على الحسن بن عبد الله بن على العيونى وذلك أن الملك أبا كرزاز بن سعد بن قيصر صاحب جزيرة (كيش) كان قد حارب البحرين ، فسار اليها فى المراكب حتى بلغ جزيرة أوال من البحرين ، فأنحدرت من مراكبه الجموع بستره — فى ناحية من جزيرة أوال — وكان الأمير أبا على قد بعث أخاه الأمير أبا مقدم شكر بن أبى على حين سمع بتجهيز الملك أبى كرزاز العساكر الى جزيرة أوال ، وبعث عنده عسكرا الى القطيف ، وأمره عليهم ، فحين انحدرت جموع الملك وخلصوا بستره ، مشى عليهم الأمير الحسن بن عبد الله بمن معه فاقتتلوا ، وحمل عليهم الأمير حملة مهواة صبروا فيها ساعة ثم انكسفوا ، فضرب فيهم بالسيف حتى جمد الدم على كفه وعلى ذراعه وعلى قائم سيفه ، فما تخلصت يده حتى سخن لها ماء وصب عليها فذاب الدم وانحل وتخلصت يده ، ولم يسلم منهم الا عدة يسيرة شردت الى المراكب ،

فكان عدة القتلى من أصحاب المذكور أبى كرزاز ألفين وثمانمائة قتيل ،
وأسر يومئذ (نام سار) أخو الملك أبى كرزاز ، فأطلقه الأمير وأعادته
الى كيش •

وافتنخر بالأمير أبا الفضل محمد بن حواری وشجاعته فقال :

منّا الأمير أبو فضل متى اختصمت
بنو الوغى كان في أرواحها الحكما
ما قابل الألف الا واثنت هربا
كأنها الوحش لاقت ضيغما قرما

وكان هذا الأمير فارسا جوادا يعد عن ألف فارس ، وكان سبب
قتله أنه لحق رجلا في قتال عامر ، فحقره فكف عنه وعف عن سلاحه ،
فأما تقدمه على فرسه زرقة ذلك الرجل برمحه ففضى عليه بتلك الزرقة •

ويكثر افتخاره بشجاعة العيونيين كقوله أيضا :

منّا الثلاثة والفرد الذين لقوا
كتائباً كأبى السيال حين طمأ
تدعو عجيبه أحياناً وآونة
أم العجرش والحجاف بينهما
يوم الجريعاء ما خاموا وما جبنوا
بل كلهم يصطلى نيرانها قدما

وهؤلاء الرجال الأربعة المذكورين كلهم أولاد أبى مقرب الحسن
ابن عزيز ، وعجيب وأم العجرش والحجاف مجموعة قبائل أغارت على
البلاد في مكان يسمى الجريعاء ، فلقبهم هؤلاء الأربعة فقاتلوهم حتى
دفعوهم عنه ، وأقام بينهم القتال نهرا ، وامتنعوا منه بعد أن ترجأت

الفرسان مع الرجالة ، وزحفوا لهم فلم يقدرُوا أن يدفعوا الأربعة عن مكانهم ، وبعد مدة طويلة خرجت اليهم النجدة من البلد •

ويستمر الشاعر على هذا المنوال معددا أفضال عشيرته ومناقب قومه فردا فردا، حتى ليخيل اليك أن الأسرة العيونية — لم تخلق الخلال والمزايا الخلقية والانسانية الا لتتحلى بها ، وكأن من عداها من الناس باتوا صفرا من النشيم والمروءات ، خلوا من الرجولة المكتمة والخلق السامى وذلك بلا شك يعد براعة واقتدار من الشاعر امتلك ناصيتها بكل جدارة • وقد تعمدت التطويل بعض الشيء فى ايراد هذه الأمثلة ، لأبرهن على ما قلته سابقا من أن هذه القصيدة تعد سجلا ضخما خلد الشاعر فيه مآثر قبيلته وأمجادها على مر التاريخ ، والدارس لهذه القصيدة دراسة عميقة يستطيع أن يستخلص منها صفات وصفحات طوتها الحقب وعفت عليها السنون من تاريخ الاحساء خاصة والبحرين عامة فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، لذلك فهي تعتبر مصدرا هاما من مصادر التاريخ السياسى لهذه الناحية من جزيرة العرب •

والشاعر يخبرنا فى نهاية قصيدته أنه مع هذه المآثر والأعمال التى عددها ، فان ما عده لا يبلغ عشر مفاخر قومه ومآثرهم ، اذ أن هذه المفاخر تفوق فى كثرتها عدد تراب واحة (بيرين) — الموجودة فى الربع الخالى من جزيرة العرب — فقال فى ختام القصيدة :

أبياتنا لذوى الآمال منتجع
إذا الزمان يرى كالعير أو عرما

وما عددت عشيرا من مناقبنا
ومن يعد ثرى (بيرين) مرتكما

ترى ماذا كان سيقول ابن مقرب لو عدها كاملة ؟ •

الفخر الذاتى :

أكثر ابن مقرب من الافتخار بنفسه بأبيات قوية ، وأطرى شجاعته وقوته وبأسه على الأعداء ، وكرمه ونخوته ، وعدد الكثير من صفاته الذاتية التى ورثها عن آبائه الكرام الانجاد وأظهرها الهمة العالية والطموح الذى ليس له حد ، وأنفته من دار الذل والهوان وجب المخاطرة والأسفار ولنسمع اليه وهو يقول : (٧٩)

أتدرى الليالى أى خصم تشاغبه
وأى همام بالرزايا تواتبه
تجاهل هذا الدهر بى فتكتبت
على بأنواع البلايا كتائبه
وظن محالا أن أدين لحكمه
لتبك على عقل المعنى فوادبه
وانى وان أبدى اصعرا بخده
وأوجف بى وازور للبغض جانبه
لأغضى على بغضائه وازوراره
وأعجب من حر كريم يعاتبه
وأسقبل الخطب الجليل بثاقب
من العزم يعلو لاهب النار لاهبه

فهو خصم عنيد لا يأبه بنوازل الدهر وكوارثه : بل يستقبلها باسمها غاضا عنها جانبه ويعجب للحر الكريم الذى يعاتب الدهر على حوادثه

(٧٩). الديوان — ص ٥٢ ، تكتبت : تهيأت ، صعر خده : أماله تكبرا * واليهفوف : الجبان .

وقوارعه مع علمه أنها شيء مكتوب على الانسان ، ثم انه ذو عزم ثاقب
يستقبل به الخطب الجليل فيعلو به عليه .

ثم يفخر ابن مقرب بسداد رأيه وقوة شخصيته : (٨٠)

ورأى متى جردته وانتصيته
وجدت حساما لم تفلل مضاربه
ولست بيهفوف يرى رأى عرسه
متى أركبته مركبا فهو راكبه
يظل اذا ما ناباه الأمر محجرا
يخاطبها في شأنه وتخطبها

وفي أبيات أخرى يذكر همته العالية التي يستعين بها على ركوب
الخطر : (٨١)

على م وفي م ظلما تلحياني
ذرائي لا أبا لكما ذرائي
وحسبكما فما سمعي بمصنغ
ولا واع لما تتحدثن
فلى همم اذا جاشت أرتقى
قرى عمان ميلا من عمان
اذا سولتما فتناسيانى
وان أسلمتما فتذكرانى

(٨٠) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٨١) نفس المصدر — ص ٦٢٣ ، لجاه : لامه ، عمان (بالتشديد) :
عاصمة الأردن ، وعمان إمارة بالخليج العربي ، صفا : مال ، ونوب الزمان :
حوادثه ، نى عنانة عن الأمر : رجع عنه .

فمثلى من يقيم صفى الأعادى
ويستعدى على نوب الزمان

وما ذكر المنية عند أمر
أحباؤه بثان من غناني

فهتمه تقرب له الأمور البعيدة وتسؤل عليه الصعاب ، ثم انه
لا يباى بالموت لايمانه بالقدر ولعلمه أن للانسان يوم اذا حان فلا مفر
منه وهذا ما يشجعه على المخاطرة :

اذا يومى أظبل فما أبالى
بسيف كان حتفى أو سنان

ومن يك عمره المكتوب تسعا
فسلا يخشى المنية فى الثمان (٨٢)

ثم انه يحقر من حقره ولو كان عظيما ، ويعامل الناس بالمثل
ولا يواصل من جفاه وعاداه :

عظيم الناس فى عينى حقير
اذا بالقللة الخوصا رآنى

محال أو أواصل من جفانى
وأسمح بالوداد لمن قلانى (٨٣)

ويقول معتدا بكرامته :

ولست اذا تشاجرت العوالى
بغمر فى اللقاء ولا جبان

(٨٢) الديوان — ص ٦٢٤ .

(٨٣) الخوص : غرور العين ، والقلى : البغض .

ولكنى حديا كل يوم
تلاقى عنده خلق البطان

أخو الكرم العتيد وذو المقال
السديد ومدره الحرب العوان^(٨٤)

والتعبير بجملة (أخو الكرم) يفيد أن الكرم يلازمه ملازمة الأخ
لأخيه ، فهو معه حيثما حل وارتحل ، وعزز هذا المعنى بكلمة (عتيد)
ليبين أن هذا الكرم من طبعه ومن شيمه .

ومن أصلته وكرمه أنه يأنف الإقامة بأرض لا يكون فيها كالسم
للأعداء والغيث للأصدقاء :

فلا رعى الله أرضا لا أكون بها
سما لمستتكتف عيثا لمنتجع^(٨٥)

وهو صبور صبر الكهول وقد عاين الدهر منه ذلك لطول تجاربه
معه :

كم عاين الدهر منى صبر مكتهل
اذ ليس يوجد صبر العود في الجذع
وكم سقانى من كأس على ظمأ
أمر في الطعم من صاب ومن سلع
ومما رمتنى بكر من نوائبه
الا صككت بصبرى هامة الجزع^(٨٦)

(٨٤) الحديا : المنازعة والمباراة ، الحرب العوان : التى قوتل فيها
مرة بعد أخرى ، ودره عنهم : دفع ، والمدره : المقدم فى القتال .
(٨٥) الديوان — ص ٢٧٤ ، المنتجع : طالب الكلا والمعروف .
(٨٦) المكتهل : المتناهى فى الشيب ، العود : المن من الابل والشاء ،
والجذع : صغيرها ، الصاب : شجر مر والسلع كذلك ، الجزع : ضد الصبر .

وهو، وفي لخلانه اذا صحبهم: ، ويلقى مسيئهم بالبشر ، حتى ولو
نقض عهد الصداقة وضيع حقها :

سل الأخلاء عنى هل صخبتهم
يومما من الدهر الا والوفاء معى
ألقى مسيئهم بالبشر مبتسما
حتى كأن لم يخن عهدا ولم يضع
وسلهم هل وفى لى من ثقاتهم
حر ولم يشر فى نقضى ولم يبيع
وكل ذنبه عندهم أنه انسان ورع عما يخوضوا فيه فلذلك حنقوا
عليه :

لقد تفكرت فى شأنى وشأنهم
فبان لى أن ذنبى عندهم ورعى
ويفتخر بأنه الانسان العالم الذى سبق بعلمه من تقدمه سنا وشهد
له بذلك العلماء :

لقد تقدمت سبقا من تقدمنى
سنا وأدرك ثأوى فارط الأول
بذاك قدوة أهل العلم قاطبة
أبو البقاء محب الدين يشهد لى
هو الامام الذى كل اه تبع
من كل حاف على الدنيا ومنتعل
ولم يقل وحده ما قال بل شهدت
به الأفاضل من بغداد عن كمل (٨٧)

ويخاطب قومه مفتخرا بجملة من صفاته :

ألست أوفاكم عهدا وأحلمكم
عقدا وأقومكم بالفرض والنفل
أليس بيتكم في العز مركزه
بيتي فما كان من فخر فمن قبلي
ألست أطولكم في كل مكرمة
باعا وأحملكم للحادث الجلل

ويفخر أخيرا بأنه لم يرد وردا يعاب به ولم يقف موقفا يخجل منه:

هل جاء قومي واخواني الذين هم
ان أرم من قبل الرامين لا قبلي
بأننى لم أرد وردا أعاب به
ولم أقف ذات يوم موقف الخجل

الفخر بشعره :

افتخر ابن مقرب بشعره كثيرا ، وقد أوردنا بعض الأمثلة على ذلك
عند تحليلنا لقصيدة المدح ، ولا بأس أن نورد هنا مزيدا من الأمثلة
للتدليل على كثرة هذا الافتخار من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا هنا
نتناول هذا الفخر لغرض مستقل وغير مرتبط بغرض آخر ، يقول
ابن مقرب معاتبا نفسه لأنه أهدى شعره من لا يستحقه :

لكن على درر تزهو جواهرها
في عقد كل نظام غير منقطع
ترجتيا معشرا لا أبتغى عرضا
عنها وانى في قومي لذو قنع

وكنيت أولى بها منهم وكنم ممن
ضاعت ، وما فانت يمضى بمرتجع
فلو تكون الى الأصداف نسبتها
لكان لى كـزم ينهى عن الهلع
لكنها الجوهر الطبيعى قد أمنت
من التشظى مدى الأيام والطبع^(٨٨)

فابن مقرب لا يكتفى بأن تكون قصائده لآلىء منظومة مما حوت
الأصداف ، وهى لو كانت كذلك فقط لكفاه حسبا وكرما ، ولكنه يبصر على
أنها جواهر طبيعية ، وصلبة غير قابلة للتشظى والتناثر ، وهذا كناية عن
أن قصائده خالدة على مدى الزمن وكرور الأيام .

وقال فى موضع آخر :

اليك جوهرة من طبع قائلها
تبقى على غابر الأزمان والحقب^(٨٩)

وقد يبالغ فى الفخر بقصيدته فيجعلها تحوى جميع أنواع الأحجار
الكريمة ، بل يزيد عليها المسك فيقول :

فهاكها يا عماد الدين حاوية
درا ومسكا وياقوتا ومرجانا^(٩٠)

وهذه الجواهر يعجز عن نظمها كبار الشعراء كالفرزدق ومزردا
فيقول :

(٨٨) الديوان — ص ٢٧٦ ، التشظى : الانشقاق ، والطبع (بالتحريك) :
الوسخ الشديد من الصدا .

(٨٩) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٩٠) الديوان — ص ٦١٠ .

واليك من در الكلام جواهر
يعينى الفرزدق نظمها ومزردا^(٩١)

ومن صورته الجميلة فى الفخر تشبيهه لها بالجواهر التى صدره
بحرها وفكره هو الغواص الذى غاص عليها فاستخرجها من ذلك البحر ،
وهذا من براعة الشاعر واقتداره فى التصوير والتمثيل :

اليك أبا المنصور عقد جواهر
قلمها صدرى وغواصها فكرى
نفسى بها عمن سواك وسقتها
اليك لعلمى أنها أنفست الذخر^(٩٢)

وقد يصور عمل الفكر فى انتاج القصيدة بأنه مثل النساج، والقصيدة
بالسراويل المنسوجة التى لا تبلى على مر الزمن :

وعندى مما ينسخ الفكر والحجا
سراويل تبقى ما ترادفت الحقب^(٩٣)

وفى موضع آخر هجا أناسا كان قد مدحهم وهم لا يستحقون المدح
فقال :

وأنكح أبكار المعانى أراذلا
أحق يخصى من يسار الكواعب
وأكسو ثياب الحمد من حق جسمه
ملابس حمى أفكل بعد صالب^(٩٤)

(٩١) ص ٧٥ ، مزرد : شاعر فارسى .

(٩٢) الديوان ص ٢٠٤ . القلمس : البحر .

(٩٣) ص ٣٤ .

(٩٤) ص ٧٠ ، يسار الكواعب : عبد لبنى عذانه ، والافكل : الرعدة .

وحى صالب : فيها الرعدة .

فتارة يشبه قصيدته في جمال معانيها بالفتاة الحسناء البكر التي
أنكحت لمن لا يستحقها ، وتارة يشبهها بثياب كنت أجسادا من حقها أن
تكسى بحمى مصحوبة برعدة لنذالة أصحابها .

وقال في موضع آخر مفتخرا بقوة شاعريته :

ودونك من تيار بحر اذا طمى
أراك بحار الأرض جمعا صلاصلا
وأنفذتها في حكمة وبلاغة
كست حلة من بعد عهدك عاقلا (٩٥) .

فشاعريته اذا هاجت واندفعت زادت على شاعرية باقى الشعراء
وتركتهم لا شيء بعدها ، كالبحر الذى يطغى فيترك جميع البحار
كالغدران الصغيرة ، والقصيدة بعد ذلك تخرج في حكمة وبلاغة لتكون
كالحلة التى تزين العاقل فيكون جميلا بين الناس .

وهذه البلاغة والفصاحة يشهد ويقر بها بلغاء وشعراء العرب
المشهورين :

ولى بفصاحة الألفاظ قس
يقر ، ودغفل ، والأعشيان (٩٦)

وشعره يحتوى على المعانى والحكم النادرة وهذا يعلو به ويرفعه :

فكم ساد لى في مدحكم من غريبة
تروق وأعلى الشعر مهرا غرائبه (٩٧)

(٩٥) ص ٤٠٥ ، الصلصل : بقية الماء فى الغدير .

(٩٦) ص ٦٢٧ ، والمذكورون فى البيت كلهم بين خطيب او شاعر
مشهور .

(٩٧) ص ٦١ .

وقصيدته جمعت سحر الكلام الذي اختفى وانقرض منذ زمن بعيد
فلم ينفث به شاعر قبله :

فدونكها يا ابن النبی غریبة
تخبر أن العائبيها هلايت

جمعت بها سحر الكلام الذي اختفى
قديمًا ، فلم ينفث به قبل نافث^(٩٨)

ولا عجب في ذلك فقصيدته نسيج وحدها في عصرها يحصد عليها
قائلها :

واليكها يا باعلى مدحه
من فضلها أنى عليها أحسد

جاءت نسيجة وحدها في عصرها
اذ أنت في هذى البرية أوحده^(٩٩)

هذا هو فخر ابن مقرب وقد تميز كما رأينا بأسلوب قوى متميز
وكلمات فخمة رنانة تناسب غرض الافتخار ، وذكر الأمجاد ، وقد تطرق
من ناحية المعانى الى الفخر بمعانى الشجاعة والقوة والكرم ، وهى
الشيم التى طالما افتخر بها معظم الشعراء العرب ، ولكن ابن مقرب زاد
على ذلك أنه من بيت أماره ، فافتخر بأجداد آبائه وأجداده ، وعدد
بعضهم فردا فردا كما رأينا فى استعراضنا لبعضه تلك الأبيات فى
(مطولته الميمية) وتسامى بهمهمهم الى السماء ، وجاوز بشجاعتهم حدود
الجوزاء فخلد تاريخهم بشعره ، وأثبت أعمالهم وبطولاتهم فى سجل
التاريخ بسطور مضيئة ، فكان بحق كما قال :

(٩٨) الديوان — ص ١١٩ ، والهلبوث : الأحمق ، النافث : الساحر .

(٩٩) ص ١٦٧ .

كسوت قومي والبحرين ثوب علا
ييقى جديدا بقاء الحوت والحمل (١٠٠)

هذا وقد حفل فخره بكثير من الصور الجميلة والتشبيهات الرائعة التي ذكرنا بعضها آنفاً ، وقد استمد عناصر هذه الصور والتشبيهات من صفات قومه الأفذاذ ، فنراهم في شجاعتهم يطيحون بسيوفهم هام الأعداء • حتى أن هؤلاء الأعداء وخيلهم وسلاحهم يكتفون عن الحرب ولا يعادون التفكير فيها لشدة فزعهم ، ثم نرى قوم الشاعر في كرمهم وبذلهم كأنما تحن أكفهم الى الأعطاء والنوال حنين الابل الى وليدها وفي هذا ما فيه من الدلالة على كثرة كرمهم وشهامة نفوسهم •

الشكوى والأثنين :

لا غرو أن نجد لابن مقرب شعرا كثيرا في الشكوى ، فقد ابتلى في حياته كثيرا وامتنح من عدة جهات ، لكنه صبر صبر الرجال ، وخرج من كل هذه المحن قويا مجربا ، فقد جاءت النكبات والمصائب من قبل دهره وزمانه ، فتشرد وتعرب كثيرا عن وطنه وأهله ، وجاءته المحن من قبل أهله وبنو عمه ، فحرم من أمواله وممتلكاته ، وجاءته المصائب من قبل أصدقائه وخلانه ، فذاق مرارة الغدر وسوء الصحبة ، واكتوى بنار الرشايات والسعى بالنميمة ، ولذلك فقد قال شعرا في كل هذه المجالات وعبر عن مرارته وسوء حظه بشعر يفيض بالحسرة والألم ويصطبغ بالأثنين والشكوى • فمن شكواه من أحداث زمانه ومن الرزايا والمنون التي تحالفت عليه قوله : (١٠١)

أفي كل يوم للخطوب أصالي
ألا ما لأحداث الزمان ومالي

(١٠٠) الديوان — ص ٣٨٢ — والحوت والحمل : من أبراج النجوم .

(١٠١) الديوان — ص ٣٧٠ .

يفجعنى فى كل يوم يمر بى
 بأنفس مال أو بأشرف آل
 أرى الشر قداما وخلفا وأتقى
 نبال الأذى عن يمنية وشمال
 اذا قلت جلى بعض همى أتت له
 نوائب أمضى من حدود نصال
 كأن الرزايا والمنايا تحالفا
 على عكس آمالى وبت مآلى
 لحى الله هذا الدهر كم يستغزنى
 لخوض بخار أو لشق جبال
 يكفنى جرى الجواد وقد لوى
 شكالا على ساقى خلف شكال
 وقد مص مخ العظم حتى ازاره
 وبدله من نيه بهزال (١٠٢)

فابن مقرب يشكو سوء حظه فى هذه الحياة ويتبرم من أحداث
 الزمان ، الذى ابتلاه بأنواع الهموم والمصائب ، ويعبر عن كل ذلك فى
 صورة بليغة وعبارة شاملة ، فيقول ان الشر يأتى من أمامه ومن خلفه ،
 ويتقى نبال الأذى من اليمين والشمال ، وهذه هى الجهات الأربع ، فلم
 تبق جهة لم يؤت منها ، فتأمل كيف أنه لم يترك لنفسه منفذا للنجاة
 وانظر المناسبة الرزايا والمنايا لعكس الآمال وبث المال على الترتيب ثم
 ان كل ذلك يستغزى الشاعر للنهوض والنضال لخوض البحار وشق
 الجبال ، الا أن الدهر ابتلاه ببلوى أخرى ، وهى أنه سلب منه القوة
 والقدرة على مجابهة الحوادث والنوازل ، وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى

(١٠٢) صاولة : وائبة ، صلى النار : مكث فيها وذاق حرها ، بت
 مآلى : قطع مرجعى .
 الشكال : الجبل الذى تشد به قوائم الدابة ، الأزار :
 الاصل ، الثنى : السمن .

أَجْمَلُ تَعْبِيرٍ ، فَقَالَ إِنَّ الدَّهْرَ حِينَئِذَا بَسْتَفْرَهُ مَعَ عَجْزِهِ ، فَكَأَنَّهُ شَخْصٌ
يَسْتَحْتَ جَوَادًا عَلَى الْجَرَى بَعْدَ أَنْ قَيَّدَ رِجْلَهُ بِقِيُودٍ ثَقِيلَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهَا
حَرَكَاتًا ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّ عِظَامَهُ هَزِيلَةٌ وَضَعِيفَةٌ لَا تَقْوَى عَلَى الْحَرَكَةِ
وَالْقِيَامِ ، وَكُلُّ هَذَا كُنَايَةٌ مِنَ الشَّاعِرِ عَلَى قِلَّةِ الْمُسَاعَدِ وَالنَّصِيرِ فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ .

وَفِي أَبْيَاتٍ أُخْرَى نَرَادُ يَلْقَى بِاللُّومِ عَلَى نَوَازِلِ الدَّهْرِ حَيْثُ إِنَّهَا
عَجَاتُ بَظْهُورِ الشَّيْبِ فِي رَأْسِهِ وَغَيَّرَتْ شَكْلَهُ مِمَّا حَدَا بِالرَّبْعِ أَنْ يَنْكَرَهُ ،
وَاللُّومُ فِي ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى الرَّبْعِ وَلَكِنَّهَا نَوَازِلُ الدَّهْرِ :

أَقُولُ وَالِدَمْعِ قَدْ بَلَّتْ بِوَادِرِهِ
مِنَّا خُدُودًا وَأَذْقَانَا وَأُردَانَنَا

وَقَدْ مَلَّتْ بِمَاءِ عَايِنْتِهِ عَجَبًا
مَا ضَرَّ سَهْمَ الرِّزَايَا لَوْ تَخَطَّأْنَا

مَا الذَّنْبُ لِلرَّبْعِ فِي هَذَا فِتْلَتِهِ
عَتَبًا ، وَلَكِنْ هَذَا الدَّهْرُ لَا كَانَا

لَوْ لَمْ تَحُلْ بِنَادِينَا زَلَّازِلَهُ
لَكَانَ ذَلِكَ الْإِنْكَارَ عِرْفَانًا (١٠٣)

وَيَشْكُو وَيُثْنُ مِنْ شَقْوَتِهِ بِأَحْدَاثِ اللَّيَالِي بِصُورَةِ خَزِينَةٍ تَسْتَدْرِكُ
الْعَطْفَ :

أَبَتْ نَوَابِ الْأَيَّامِ الْإِتْمَادِيَا
فِيَا شَقْوَتَا مَا اللَّيَالِي وَمَالِيَا
إِذَا قُلْتَ يَوْمًا حَانَ مِنْهَا تَعَطْفُ
رَأَيْتَ رِزَايَاهَا تَسْبِيحِي كَمَا هِيَ (١٠٤)

(١٠٣) الديوان — ص ٦٠٢ ، الأردن : إكمال التميمي .

(١٠٤) ص ٦٥٧ ، نَدَبُ الْأَيَّامِ وَصُرُوفُهَا .

ومن أصدقاء السوء والخلان الذين ادخرهم لأيام الشدة ويتمنى
ان لم يكونوا له أو عليه :

فليت أخلائي الذين ادخرتهم
جلاء لهمسى لا على ولا ليا
وأعجب ما يأتى به الدهر أننى
أرى القوم ترمينى بأيدي رجاليا^(١٠٥)

وأكثر ابن مقرب الشكوى من أمثال هؤلاء اللئام الذين ابتلاه
الدهر بهم ، وقد انخدع بهم فى البداية ، ولكن بعد مدة من الزمن
انكشفوا على حقيقتهم وتبين زيف حالهم ، فهم ضعاف القلوب ، صغار
النفوس ، لا يراعون للود حقا ، ولا للصداقة وفاء :

فلم أر منهم غير خب يمدلى
لسان محب من طوية قال
له شيمة السفور فى لطف خدعة
ولكنه فى اللبس خيبة ضال
إذا جئت فدانى وأبدى بشاشة
ولا حظنى منه بعين جلال
وان غبت أدنى ساعة من لحاظه
تمحل فى غيبى بكل محال
الى الله أشكو منجمى فى معاشر
همو شر ماض فى الزمان وتال
صحبتهموا مستصفا فوجدتهم
أليم عذاب فى أشد نكال

إذا قلت حل الدهر غل صدورهم
أبت سوء أخلاق وقبح وصال (١٠٦)

فما ترك لهم صفة حسنة الا وسلبهم اياها ، ولا صفة سيئة
الا وألصقها بهم ، ثم انه مدح أناسا لمجرد كف أذاهم ، وآخرين لمراعاة
ودهم ليس الا ، ولكن لا هؤلاء كفوا أذاهم عنه ولا هؤلاء راعوا فيه حق
الوداد ، فشكاهم الى الله وأسف على مدحهم :

الى الله أشكو عشرة لو تدوركت
بتمزيق جلدي ما أسفت على جلدي

مديحى رجالا بعضهم أتقى به
أذاه ، وبعضا للمراعاة والود

فلا الود كافى ذا ولا ذا كفى الأذى
ولا نظروا فى باب ذم ولا حميد

فكيف بهم لو جئتهم متشكيا
خصاصة أيامى وسمتهم رفقى

فكفت واهدائى المديح اليهم
كغالب أذئاب المهلبة العقيد (١٠٧)

والبيت الأول نتبين منه شدة غيظ الشاعر وحنقه عليهم لأنهم
تناسوا مدحه لهم وأنكروا جميله ، واو أنه استطاع تدارك هذه العثرة
بتمزيق جلده وتقطيع لحمه لفعل وما أسف على ذلك ، وانظر الى كلمة

(١٠٦) ص ٣٧٢ ، الخب : المخادع ، والطوبة : ما تخبئه النفس ،
والقالى : البغض ، المحال : الكيد .

(١٠٧) الديوان — ص ١٣٤ ، الخصاصة : الفقر ، سمتهم رفقى :
كلفتهم عطائى ، مبط الكبشى : جس البته ، والمهلبة : الابل التى تنف هلبها
وهو شعرها ، والعقد : جمع الاعتد وهو الكلب او الذئب اللتوى الذئب .

(تمزيق) وما تدل عليه من شدة حنق الشاعر على هؤلاء وتألمه منهم ،
والبيت الأخير كناية عن رجوعه منهم بخفى حنين .

ومن شكواه من أبناء عمه وأفعالهم معه من مضايقة وحرمان من
الممتلكات قوله في هذا المعنى :

وقد كنت ذا مال حلال وثروة
يضاعف اكرامى وترجى ومكارمى
فمال على مالى وحالى وثروتى
وجاهى ، وأصغى لاختلاق النمائى
فظلت أعانى القيد فى قعر هوة
سماعى وألجأنى غناء (الأداهم) (١٠٨)

وقال فى موضع آخر :

فأغرى بى الواشى المشوم وخاننى
لما حزته من ضيعة ودراهم
وبت عزائى السجن فى مدلهمة
يجأوبنى فيها ثقال الأداهم
وأخرجنى من بعد يأس وقد أتى
على نشبى أشكو الى غير راحم (١٠٩)

وهذه الأبيات الآتفة الذكر تلخص مصيبة ابن مقرب التى جرت
وراءها نكباته الأخرى من تشرد ، وتغرب ، وعدم استقرار ، فلقد كان
ذو مال حلال وثروة وجاه وغنى مكرما عزيزا بين قومه حتى وشى به
الواشون لدى أحد أبناء عمه القابض على السلطة آنذاك ، فسطا على

(١٠٨) ص ٥١٩ .

(١٠٩) ص ٩٦ ، المدلهمه : الداهية ، والأداهم : القيود ، النشب :
المال الأصيل .

ثروته ، وصادر أملاكه ، واستولى على بنساتينه ، فأسمى فقيرا مشردا
خاويا من كل شيء . ولم يكنف هذا الأمير بذلك بل وضعه في السجن ،
حيث يعاني القيود الثقيلة في مكان مظلّم ، ويعبر الشاعر في سخرية
ممزوجة بالألم الماض عن صوت القيود بأنه ألحان وغناء .

ويوضح لنا في أبيات أخرى أن ضيم الأقربين دونه كل ضيم ،
فهو أشد وقعا على النفوس وأمض وأحر في الأحشاء لها فقال :

بلى ان ضيم الأقربين وجدته
أشد على الأحشاء حرا ولاهبا
ألا انه الداء العياء وانه
الشجا في التراقى والمزبل المراتبا^(١١٠)

والانسان حينما يرميه الدهر بنوائبه يستعين بقومه لا الأجانب :

ألا يا لقومي والفتى حين يرمى
به الدهر يدعو قومه الا الأجانب
كفى حزنا أنسى ببغداد مفرد
عن الأهل ألقى كل يوم عجائبا^(١١١)

وهكذا فان ابن مقرب عبر في شكواه عن المحن والنكبات التي
واجهها في حياته من خلال كلمات تحمل في فحواها كثير من الألم والحسرة
نظرا لما لقيه من جفوة أقاربه ، وغدر أصدقائه ، وتخليهم عنه في الشدائد ،
وكل ذلك في رأيهم مرده الى سوء حظه في هذه الحياة وعدم رحمة الدهر
به ، عبر الشاعر عن كل ذلك في ألفاظ مناسبة لمعانى الألم والأنين
والشكوى واستطاع بهذه الاجادة الشعرية أن يستدر منا الدمع والعطف
والمشاركة الوجدانية معه رغم البعد الزمني والمكاني بيننا وبينه ، الا أن

(١١٠) الديوان ص ٣٩ .

(١١١) ص ٣٨ .

أصالته الشعرية كما قلت جعلتنا نشاطره أحزانه وتغربه وكأننا معه في غربته ومحنته ، ورأينا أيضا كيف عبر الشاعر عن شديد ألمه وغيظه من غدر خلانه بألفاظ وتشبيهات ، صوّرت لنا هذه الأحاسيس النفسية بكل واقعية وصدق تعبير ، وحسن أداء ، وكما يقال رب ضارة نافعة ، فهذه المحن والكوارث التي توالى على الشاعر من ناحية أنتجت لنا من ناحية أخرى شعرا قويا جزلا نقرأه ونستمع به ونعجب بقوة تحمل صاحبه وطول صبره وجلده ، فلله دره من شاعر تحمل كل هذه الشدائد والزلازل فلم يهن ولم يتزلزل .

العتاب والنصح :

عائب الشاعر قومه ونصحهم لما رأى كثرة اختلافهم ، وحذرهم عاقبة الفرقة وسماع أقوال الأعداء والوشاة والساعين الى ازالة الدولة العيونية ولكن الأمراء العيونيين في غالب الأحيان لم يأخذوا بنصائحه ، بل ضربوا بأقواله عرض الحائط ، وزاد الأمر على ذلك عندما تبرموا بكثرة انتقاده لهم ، أخذوه وسجنوه وصادروا ممتلكاته ، فكان من الطبيعي بعد خروجه من السجن أن يكثر من لومهم والعتب عليهم والتنبؤ بمصيرهم المحتوم نتيجة هذه السياسات المشؤومة ، وسنرى أن عتاب ابن مقرب يمتزج باللين تارة، وبالشدّة والعنف تارة أخرى ، وقد استنجز بشعرة بعض أمراء الدولة من بنى عمه ، ما وعدوه ، فلما طال عليه الأمد وام يفوا بوعودهم عاتبهم على ذلك الاخلاف ، هذا ويرى بعض النقاد أن العتاب والاستنجاز متداخلان (١١٢) .

فمن عتبه على قومه مرتفقاً بهم ومتشوقاً اليهم يخاطبهم بقوله :

ويشتاقكم قابى فأذكر دونكم
مهامه لا اشتاقها وسبابها

فيسهل عندي خوضها فيعز لى
تذكر حالات أثنبن الذوائب
ولا عار فى ضيم الملوك على الفتى
وما زال حكم السيف فى الأرض غالبا^(١١٢)

وبعد هذا العتاب الخفيف الذى جاء على شكل تعريض ينتقل الى
نصح الأمير القائم بولاية الأمر فى ذلك الوقت ، ويوصيه بالترفق
بالعشيرة وبأسرة الشاعر على وجه الخصوص :

فيا ابن أبى رفقا بهن وكن أباً
مديماً على أكرامهن مواظباً
وصل واجتمل واخفض جناحك رحمة
لهن ولا تقطب عليهن حاجباً
وجاذر عليهن الجفاء فاننى
أرى الموت أن يمشين شعثا سواغياً^(١١٣)

وفى موضع آخر نراه يعتب على قومه لأنهم أخروه وقدموا غيره من
أذئاب الناس ، مما أدى فى النهاية الى ضعف الدولة وطمع الأعداى
فيها بسبب عدم كفاءة هؤلاء الناس فقال :

ولكن لأمر أخرونى وقدموا
زعانف لا ينهى العدو احتسابها
تصيب وما تدرى وتخطى وما درت
وتعدو وفى حبل العدو احتطابها
فيا صفقة الخسران فيما تبدلوا
وهل يتساوى تبرها وترابها

(١١٣) الديوان ص ٣٨ .

(١١٤) الديوان — ص ٤٠ — سواغب : جوعى .

وهل قيسـت الخيل العربـاب بعانة
 كدادية لا يلحق الضب جابها
 لذا طمعت فينا البـلايا وأصبحت
 تهر علينا كالشـرة كلابها
 وشالت لنا أذناـبها مقـفحـرة
 وعهدى بها تسنطو عليها ذئابها^(١١٥)

وكما لاحظنا فإن هذا العتاب قد امتزج بالحسرة والكمد والألم ،
 لأن انذين عاتبهم هم أهله وأسرته ، ومما زاد في عبرته وأشجانه أنهم
 ما سمعوا له كلاما ولا أخذوا له بنصح :

ومن عتبه الشديد في قومه قصيدته الدالية التي مطلعها :
 تجاف عن العتبي فما الذنب واحد
 وهب لصروف الدهر ما أنت واجد
 إذا خانك الأدنى أنت حزبه
 فلا عجبا أن أسلمتك الأبعاد

وفيهـا يعتب على الأمير فضل بن محمد بن أحمد بن أبي الحسين ،
 ويشتد عايه باللوم لجفائه له وقطيـعته لحق القرابة والاستهانة بحقوق
 الأسرة ، ثم يذكره بما مضى ، ضاربا له على ذلك الأمثال الموجعة الأليمة
 ومظهرا آيات الندم على مدحه له في السابق ، ويقال أنه أنشد الأمير
 فضلا هذه القصيدة ، وبعد ذلك رحل لتوه من البلاد ، ومن أبياتها قوله :

أيـا فضل قد طال انتظاري ولم يقم
 شتاء ، وقيظا ، عند مثلك وافد

(١١٥) ص ٤٦ — العانة : الأتان ، والكادية : نسبة الى كداد كنام :
 فعل تنسب اليه الحمر ، الجأب : الحمار الغليظ ، الشرة : فريق من
 الخوارج ، تذخر : تهيأ للشر .

وقد زالت الأعذار ، لا الغوص بئس
ولا البحر ممنوع ، ولا الدخول فاسد

ولا أنت محجور التصرف في الندى
عليك رقيب في نوالك راصد

ولا في (بنى فضل) بخيل ، وانهم
إذا اغبرت الآفاق غر أمجاد

فمن أين يأتي اللؤم يا ابن محمد
ومجدك في بيت (العيونى) زائد^(١١٦)

أنرضى بأن تغدو تسامى ركائبى
حمولاتها ، كيرانها والمقاود

لحق مديحى ، أم لحق مودتى
لكم ، أم لأن البيت والجد واحد

فلا تقطعن ما بيننا من مودة
وقربى ، وخل الشعر فالشعر كاسد

ولا تنسين ما نالنى فى هواكم
وقد ظفر الساعى وقل المساعد

يقوم به خيا (نزار) و (تغلب)
شهود ، وفى الدعوى يمين وشاهد

لقد كنت أرجو فى جنابك حالة
يموت لها غيظا غيور وحاسد

(١١٦) ص ١٤٦ — الغوص : على اللؤلؤ ، وشواطئ الخليج العربى
حقول خصبة لحبات اللؤلؤ .

الكيران : جمع الكور ، وهو الرجل ، والمقاود : ما يقاد به الفرس .

والأبيات السابقة كما نرى تتراوح شدة ولينا ، وتختلف بين العنف والاستعطاف ، فبينما يخاطب الأمير في أحد الأبيات بمثل قوله : (فمن أين يأتى اللؤم يا ابن محمد ٠٠) نراه في موضع آخر يقول : (فلا تقطعن ما بيننا من مودة ٠٠) ويذكره في بيت آخر بتضحياته في هواهم بقوله : (ولا تنسين ما نالني في هواكم ٠٠) .

بينما نراه في قصيدة أخرى يخاطب قومه بلغة أشد من هذه اللغة ، وينعى عليهم تخاذلهم عن الحرب واستسلامهم لمطالب الظالمين في البلد ويحرضهم على النهوض وقتال الأعداء فيقول :

الى كم مداراة العدى واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتمامها
أما حان يا فرعى ربيعة أن أرى
بنات الوغى يعلو الروابي قناتهما
ردوا الحرب ورد الظالمات حياضها
خوامس يغتال الفصائل ازدحامها
وخوضوا لظاها باقتحام فانما
يكشف غماء الحروب اقتحامها
ولوذوا ببيض المشرفية انها
لها عزة قعساء واف ذمامها (١١٧)

لغة قوية وألفاظ جزلة ، وأساليب متينة عبر بها الشاعر عما يعتل في صدره من عوامل الغيظ والحنق لتخاذل قومه عن مجابهة الأعداء ويحرضهم بهذه اللهجة الشديدة على النهوض والمجابهة ، فانها خير وسيلة لنيل العزة والكرامة حسب رأيه .

(١١٧) ص ٥٦ ، الضيم : الظلم ، الاهتمام : الانتقام من الحق ، بنات الوغى : الخيل ، القنات : الغبار الأسود تثيره الحرب ، الخمس : ارواء الأبل بعد خمسة أيام . الفيصل : ولد الناقة ، عزة قعساء : ثابتة .

ثم انه يتوَجع من أحوال قومه بدموع تعبّر عن حميته لا عن ضعفه
خيقول :

أفي كل يوم يا لقومي بليّة
وخطّة خسف من عدو تسامها
أما وأبيكم ان قلبى لموجع
لذاك ، وعينى لا يجف انسجامها
وما عبرت بى ليلة منذ مدة
كما قال الا ليلة لا أنامها
وما ذاك ذلا بل بقايا حمية
على حدثان الدهر باق عرامها^(١١٨)
ويحاول استنارتهم بذكر شرفهم بين الناس وأمجاد آبائهم :

ألا يا لقومي من على بن عبدل
وللخطب يدعى أسدها لا نعامها
ألستم بنى الغر الألى عرفت لهم
نفوس نفيسات المعالى مرامها
فان نزلوا أرضا فمنهم مليكها
وان جمحت قوم فمنهم شكامها
أترضون ذا النقص الذى ما وراءه
وأنتم اذا صالت معد سظامها^(١١٩)

(١١٨) ص ٤٥٩ ، سامه خطّة خسف : اذله ، حدثان الدهر : صروفه ،
عرام الشيء : صولته .

(١١٩) الديوان — ص ٤٦٠ — الجهوح : الذى لم يزل ، والشكيمة
فى اللحام : الحديدّة المعترضة فى فم الفرس . السظام : حد السيف .

وفي النهاية يقول ناصحاً قومه ان أنتم لم تصبروا على الحرب فلا
أقل من مفارقة ديار الذل فان في أرض الله الواسعة مكان لكم بعيدا عن
ديار الذل والضميم فحياة الذل هي الموت سواء بسواء .

والا فتشددوا للجللاء فلم يعد
بسواء ، فعند الضيم تجلى كرامها
هان كان في البحرين ضيق فلم تضق
منازل بكر عنكم وشآمها
ولا خير في دار يعيش بها الفتى
مهينا ، ولو جادته درا غمامها (١٢٠)

واستنجز الأمير مقدم بن ماجد تحقيق وعد وعده اياه بأن يخلع
عليه خلعاً ، فلما طال الأمد كتب اليه يقول :

أسكت عن مولى الورى أم أعاتبه
وأهمل وعدى عنده أم أطلبه
أرانى بأدنى مطلب هنت عنده
وقد غرقت من ليس مثلى مواهبه
أترضى أبا شكر بسحب غمامة
لمثلى وأنت البحر جاشت غواربه
ومنها :

أتخشى هجوم الفقر أم تطلب الرضا
به من عدو أنت ان شئت غالبه
فلا تبخلن عني بما أنا أهله
فكل نفيس أنت لابد واهبه

(١٢٠) ص ٤٦٥ — أجلي القوم : تفرقوا ، منازل بكر : ديار بكر وهى
تجمع مدائن كثيرة .

فأجمل ثوبيك الذى أنا لابس
وخير جواديك الذى أنا راكبه (١٢١)

ويقول إن العتاب دليل المودة ، وأن شر الناس من لا تعاتبه
ولا تهتم به :

ولا تتكرن غيبنى عليك فإنه
جميل وشر الناس من لا تعاتبه

أعاتب من أهوى على قدر وده
ولا ود عندى للذى لا أعاتبه

وأكرم أبناء الملوك سجية
كريم متى عاتبته لأن جانبته (١٢٢)

وهكذا نرى ابن مقرب فى عتابه واقتضائه ، جميل العبارة ، قوى
الألفاظ ، وأسلوبه يصطبغ باللين تارة ، وبالعنف والشدة تارة أخرى
حسب المقف ، ولكل مقام مقال ، ولأنه لا يؤمن بسياسة مسالمة العدو
فقد حض قومه فى عبارات قوية على النهوض والحرب ومسك زمام
الأمر بالشدة والعنف حتى لا يطمع الطامعون فى البلاد ، ونرى هذا
الأسلوب يلين ويضعف عندما يستعطف الشاعر أمراء قومه ، ناصحا لهم
بالرفق بالعشيرة والحدب عليها واغضاء الطرف عن أخطائها وهفواتها ،
حتى لا تصاب بالتفكك والفرقة فتصبح لقمة سائغة فى فم الأعداء
المتربصين .

الرثاء :

كتب ابن مقرب في هذا الغرض شعرا قليلا ، وكل ماله في هذا المجال أربع قصائد ضمها الديوان (١٣٣) ، اثنتان منها في ابن عم له ، وثالثة قالها في صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله ، والرابعة في رثاء القاضي محمد بن ابراهيم المستورى ، وكانت تربطهما صلة مودة ، وتميز رثاء ابن مقرب عموما بصديق العاطفة نحو الفقيد ، واصطبغ بالحزن واللوعة واستدرار الدمع فكان هذا الشعر منسجما مع الموقف الذى قيل فيه .

ومع ذلك فلا بد أن يكون فقدان ابن مقرب لأحد أبناء عمومته أشد وقعا على نفسه من غيرهم . ومن ثم كان رثاءه فيهم انعكاسا لهذه المشاعر ، وكان فيه من تصوير اللوعة وبيان الفاجعة أكثر مما في غيره ، وذلك على الرغم من عدم استقرار علاقته بهم ، ولكنها صلة القربى وشائج الرحم التى لا تنقطع ، وهو غالبا ما يبدأ قصيدة الرثاء بتمهيد مناسب يذكر فيه أحوال الدنيا وتقلباتها ، وأن مصير كل حى الى فناء ، وعلى العاقل ألا يغتر بزينتها ولو أغدقت عليه من النعم الشيء الكثير ، لأن مرجع هذه الملذات فى النهاية الى الزوال ، ونراه اذا رثى أحد أقاربه يذكر عظم الفاجعة وفداحة الخطب ، ومن ثم ينطرق الى صلته بالفقيد وأنه فقد به درعا كان يتقى بها نوائب الدهر وعوادي الأيام . نرى مثل ذلك فى قصيدته التى رثى بها ابن عمه مذكور بن عبد الله بن منصور ، وقد مات مقتولا ، فقال وقد كان غائبا :

أظنك خلت الشوق والنأى أبكائى
فأقبلت نحوى يابس الدمع تلحائى

(١٢٣) استبعدنا قصيدته فى رثاء الحسين عليه السلام لأننا نشك فى نسبتها اليه ، راجع ص ٦٤ من هذا البحث .

فقم فالتمس خلا سواى فما أرى
 صاحبة من لم يتبع شأنه ثمانى
 كأنك ما شاهدت ما قد أصابنى
 به الدهر من صياب قومى واخوانى (١٢٤)

فهو يلوم صاحبه الذى عاتبه على بكائه ظنا منه أن هذا البكاء
 بسبب الشوق والنأى عن الأهل والدار ، وما علم أنه بسبب مصابه فى
 فقيد عزيز ، ثم انتقل الشاعر الى ذكر مكانة قومه وقربته وأنه كان
 يرمى بهم أعداءه ، ويتقى بهم نوائب الدهر :

رزئت ملوكا لو بكيت لفقدهم
 دما ما كفانى عمر نوح ولقمان
 بهم كنت أرمى من رمانى وأتقى
 بهم نائبات الدهر من حيث تلقانى (١٢٥)

ويعاتبهم عتابا خفيفا ثم يعود فيلتمس لهم الأعذار :
 بأسيافهم ذاقوا الردى وتجرعوا
 حسا الموت لا أسياف قيس وغيلان
 وليس عقوقا منهم بل تعالينا
 الى خير غايات وأشرف بنيان (١٢٦)

ولقد شمت الأعداء فيهم وانتهاز الأذلاء فرصة غيابهم :
 لعمرى لقد سر العدو وأظهرت
 دفانات أحقاد سترن وأضغان
 ومدت غضاريط الرجال أكفها
 لئلمس عزا بعد ذل واذعان (١٢٧)

(١٢٤) ص ٥٩٤ — وصياب القوم : لبابهم .

(١٢٥) ص ٥٩٥ .

(١٢٦ ، ١٢٧) ص ٥٩٥ — قيس وغيلان : خصومهم ، والعضرط :

الاجير اللثيم .

وبعد أبيات قليلة يذكر فيها صيلته بالمرثى وفجيئته به ويستدر
الدموع لفقده ، ينتقل لذكر صفاته ومآثره ، فقد كان درءا للعشيرة ،
وغيظا للأعداء ، وفاديا للأسرى :

ألا شقيت قومي لقد غالها الردى
بمقدام غارات وفلال أقران

بماذا أصيبت ويلها يوم سددت
اليه المنايا سهم صفراء مرنان

لقد كان غيظا للأعدى وباذخا
يلوذ به جان ويأمنه عان

فمن بعده من للزمباح يعلها
وينهلها من كل أشوس مطعان

ومن لتوالى المرهقين اذا غدت
تعاطى ، وأبدى الشر صفحة عريان

ومن لجليل الخطب يوما اذا أتت
هوازن تردى بين بيض وأبدان

ومن لمضيم مضه الضيم وانتوى
به ذو ظلمات تعبد وعدوان

ومن لأسير غارم قلل ماله
وآب من المولى الشقيق بحرمان (١٢٨)

(١٢٨) الديوان ص ٥٩٧ - فلال أقران : من يقتل شبيهه ، المرنان :
القوس والمران : رماح القنا ، المعانى : الأسير ، المرهق : من أدرك فى
الحرب ، أبدى الشر : كشف عن نفسه ، ردى الفرس : رجعت الأرض
بحوافرها ، البيض : جمع بيضة وهى الخوذة لحماية الرأس فى الحرب
والبدن : الدرع القصيرة ، المضيم : المظلوم ، آب : رجع .

ثم يستحث أهل بيت القتيل على النهوض للأخذ بثأره ، فهم
فأدرون على ذلك ، وماضيهم وأمجاد آبائهم تشهد لهم :

فيا آل ابراهيم بكوا ليومه
دما وأقيموا سوق نوح وارنان
وقوموا لأخذ الثأر جد ولا تنوا
قيام أبى لا خرون ولا وانى
فعندكم للطعن سمر غواسل
وللضرب بيخ لا تقر بأجفان
يخبرن عن أيام مرة وابنه
أبيكم وعن أيام ذهل بن شيان
بها ضربت آباءكم وجدوكم
جماجم أهل البغي من قبل ساسان^(١٢٩)

ومما يزيد النفس حسرة وكمدا أن قاتل الفقيده من توافه الناس ،
لا يعرف من هو ، ولا يعرف أبوه ، وليس له من فضل يذكر به ، ولو كان
قاتله ندا له أو مساويا لمكانته لخفف ذلك من المصاب :

فلو أن فى الحى الشبانى ثاره
لكنت أمنى النفس منه بسـلوان
وان كان لا يوفى به من دمائهم
قتيل ، ولو أوفى على رب علهان
ولكنه أمسى قتيلا لمعشر
إذا قيل من هم قيل هى بن بيان^(١٣٠)

(١٢٩ ، ١٣٠) ص ٥٩٨ — الارنان : صوت الثكلى ، ونى : فتر ، الدابة
الحرون : الممتعة عن السير ، غسل الرمح : اشتد اهتزازه ، الحى الشبانى :
أولاد شبانه بن عقيلة بن سنان ، علهان : اسم فرس ، هى بن بيان : كناية
عن لا يعرف ولا يعرف أبوه .

ويعزى أبا الفقيـد بقلب مكلوم ، ويذكره بأن الأحياء مصيرهم الى
فناء وأن من لم يمت بالسيف مات بمثله من علل وغيرها ، ويضرب له
أمثلة من التاريخ لأبطال قتلوا على يد أناس حقيرى الشأن من عبـيد أو
رعيان :

فمن مبلغ عنى أباه رسالة
مغلغلة عن موجع القلب حران
أيا عم لا تجزع فكل الى البلى
يصير ولا خلد لانس ولا جان
فلو لم يمت قتلا لمات بعلة
وليس بمنج من ردى رأس غمدان
وما قتله مما يعاب به الفتى
إذا عد يوما بين شيب وشبان
فقد مات بسطام بطعنة عاصم
وكان المرجى فى معد بن عدنان
وحمزة عم المصطفى ذاق حتفه
بطعنة عبد من سلالة عـبدان
كذا ابن حواري الأمير محمد
أتاه الردى من كف راع لرعيان (١٣١)

وفى نهاية القصيدة يدعو لقبر الفقيـد بالسقيا وله بالجنة :

سقى الجـدث الثاوى به كل رائح
من المزن أو غاد مسح بتهتان
وحيته أملاك السماء بجنة
وظل ظليل بين روح وريحان (١٣٢)

(١٣١) ص ٥٩٩ — غمدان : قصر باليمن .
(١٣٢) ص ٦٠٠ — الجـدث : القبر ، الثاوى : المقيم ، هتنت السماء :
هطلت بضعف .

ونلاحظ على الأمثلة السابقة التى استشهد بها الشاعر من التاريخ
مناسبتها لحالة المرثى ، فجميع من ذكرهم الشاعر قتلوا على يد أناس
أقل منهم شأنًا ، وكذلك هذا الأمير قتله رجل تافه ليس له أو لأهله مكانة
معروفة بين الناس •

على أن ظاهرة التعزية بذكر الأمثلة التاريخية تتبدى أكثر وضوحا
فى القصيدة التى رثى بها ابن مقرب صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله
ومنها : (١٣٣)

أين الملوك وأرداف الملوك ومن
ساد القبائل من عاد ومن ارم
وأين طسم وأولاد التبائع ممن
أولاد خمير والسادات من عمم
وأين آل مضاض فى قبائلها
من جرهم ساكنى بحبوحة الحرم
أفناهم وأدار الكأس مترعة
فى وائل فسقاها غير محتشم
أردى ابن مرة هماما وكان له
عند الرئاسة عن آبائه القدم
ومانع الجار جساسا أتيح له
سهم المنون على عمد فلم يرم
والخوفزان الذى كانت تنوء به
بكر سقاها بكاسات من النقم

(١٣٣) الديوان ص ٤٨٥ — عم : قبيلة من لخم ، بحبوحة الحرم :
وسطه ومنتسه ، لم يرم : لم يتحرك من مكانه ، تنوء به بكر : تتحمل الأثقال
والمغارم ، اخترمته المنية : مات وقضى ، ابتزاه ملكه : نزع منه ، القسم
بالكسر : الألف أو ناحيته .

وفارس العرب العرباء ان ذكرت
بسظام مد اليه كف مخترم

فابتزله ملكه غصبا وأنزله
فوق التراب عفير الخد والقسم

وعاقر الفيل يوم القادسية قد
سقاه كأس الردى صرفا بغير فم

وقد أذاق شيبيا في شيبيته
كأس الختوف بلا سيف ولا سقم

والمزيديين غالتهم غوائله
واجتاحهم مزيد من سيله العرم

ولم تدع هائئا وهو الذى انتصفت
به الأعراب واستولت على العجم

والحارث بن عباد غاله وسطا
بجحدر فارس التحلاق للمم

والحارث بن سدوس لم يهب عدا
فيهم بنوه ولما يكرت بهم

والجعد مسلمة لم يحميه فدن
بنياه والده اذا كان ذا همم

وهوذة بن على حط منتزعا
عن رأسه التاج عمدا غير محتشم

وشيوخ عجل أبا معدان عاجله
منه الحمام فلم يطلب له بدم

وفارس العرب العربا وسبيدها
أغنى كليبيا قريع العرب والعجم
لم يحمه عدد يوما ولا دفعت
عنه النية اذ جاءت بنو جشم
ولم يكن لعدي بعده عصم
منه وكان عدى أى معتصم
وآل كلثوم سادات الأرقام لم
يترك لهم من حمى حام ولا حرم
أولئك الغر من سادات قومكما
أهل النهى والاهى والعهد والذمم (١٣٤)

وبعد هذه الأمثلة الكثيرة التى سردها الشاعر يخرج فى نهاية
القصيدة بهذه الحكمة وهى كالخلاصة لما قال :

وهذه شيم الدنيا وعادتها
فيمضى مضى أو بقى من سائر الأمم

ونحن نقف من ناحية أخرى من خلال هذه الأمثلة التاريخية على
مدى احاطة ابن مقرب بحوادث الأمم الغابرة وعمق ثقافته والمآله
بسيرة من مضى من الأبطال والقادة العرب والمسلمين ، هذه الثقافة التى
أسعفت ابن مقرب بمدد لا ينضب من المعلومات التى أضفت على مراثيه
انشاء الكثير من الحيوية والتنويع •

(١٣٤) الفدن : القصر المشيد ، غير محتشم : غير مستح ، الحمام :
الموت ، المجر : الجيش العظيم ، وجشم : احياء من تغلب ، العصم : ما يعتصم
به المرء فيمنعه ، والاراقم : حصى من تغلب ، النهى : العقول ، والاهى :
العطايا الكثيرة .

ومن قصيدته التى رثى بها القاضى المستورى يخاطب ابنه عبد الله
معزيا له ، طالبا منه الصبر والثبات فقال :

وقيت الردى والسوء يا با محمد
وحلت بمن يهوى رداك القوارع
تمز فكل سالك لسبيله
وكل امرئ من خشية الموت جازع
ونحن سواء فى المصاب وان نأت
بنا الدار فالارحام منا جوامع
ولا شك منا فى التأسى وانما
نعزيك اذ جاءت بذاك الشرائع^(١٣٥)

ولعلنا من خلال البيت الأخير نستطيع الوقوف على دوافع الرثاء
عند ابن مقرب ، ونستطيع أيضا من خلال الأبيات عموما أن نستشف
الفرق بين هذا الرثاء الذى يكاد البرود أن يطغى عليه ، وبين رثائه لابن
عمه المتقدم ، وما تميز به من حسرة واحساس بالفجيعة والألم .

الحكم والأمثال :

الحكمة وليدة التجربة ، والتجربة تعنى التمرس بأحداث الحياة
وصروف الزمان ، وتعتبر خلاصة اجتماعية مركزة لواقع مر بالانسان ،
فكان له فيه عبرة ودرس ، وكما كان متوقعا فقد برع شاعرنا ابن مقرب
فى هذا اللون من الشعر نظرا لتمرسه بصعاب الحياة ومشاقها ، وما
فرضته عليه الظروف من مواقف كان عليه أن يجتازها بحكمة وصبر وأناة
الى بر الأمان بالاضافة الى ما حباه الله من انتقاد ذهن وبراعة شعرية

وسرعة خاطر ، فقد انثالت أبيات الحكمة على لسانه شعرا سيلا مليئا
بخلاصة تجاربه وعصارة تفكيره ، معبرة عن رأيه في الحياة والناس ،
وما ينبغى للعاقل أن يتخذ من مواقف بازايمهم ، وما ينبغى للأريب أن
يعاملهم به ، ومن ذلك قوله :

من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالأذى سلما

لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
اذا رأى الشر يغلى قدره وجما

وذو النباهة لا يرضى بمنقصه
لو لم يجد غير أطراف القنا عصما

وذو الدناءة لسو مزقت جلادته
بشفرة الضيم لم يحسن لها ألما

ومن رأى الضيم عارا لم تمر به
شرامة منه الا خالها أطما

وكل مجد اذا لم يبن محتده
بالبأس نقرة الأعداء فانهدما

لا يضبط الأمر من في عوده خور
ليس البغاث يساوى أجدلا قطما (١٣٦)

فمن خلال هذه الأبيات نستطيع استخلاص رأيه في كيفية معاملة
الناس من خلال تجاربه معهم :

١ — فهو لا يؤمن بسياسة اللين والمسالمة ، وانما بسياسة العنف

(١٣٦) الديوان ص ٥٢٧ — عاث : افسد ، الضرع : العاجز ، ووجم :
خرس ، الأطم : الحصن ، الاطيمة : موقدة النار ، الخور : الضعف ، البغاث :
ضعاف الطير ، الاجدل : الصقر ، القطم : مشتهى اللحم .

والقوة ومبادرة الآخرين بالأذى والظلم ، فذلك في رأيه هو الطريق الأمثل للعيش بسلام في هذه الدنيا •

٢ — يرى أن الرضا بالهوان والسكوت على المذلة انما هو من شيممة العاجزين وذوى الدناءة ، أما الأقوياء والمتطلعون الى معالى الأمور فان أنفثهم تأبى ذلك وترفضه في اباء واصرار ، وتبعا لذلك فهو يرى أن كل مجد أو ملك لا تقوم أعمدته على قوة البأس والسيف سيكون سهل الانهيار سريع السقوط ، ولحل قوله : (وذو الدناءة لو مزقت جلده ٠٠٠ البيت) يذكرنا بقول أبى الطيب المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما أجرح بميسر إيلام

ولا شك أن الانسان اذا دعا غيره الى شىء ، فيجب أن يبدأ بنفسه أولاً ، ولكن ابن مقرب وهو يعطى خلاصة تجاربه للناس لم يشأ أن يطبقها على نفسه نظرا لأن من عاداهم هم أبناء عمه وأهل قرابته ، وحق القرابة عنده فوق كل شىء ، لذلك نراه يقول بعد ذلك :

ولا يعز الفتى الا بأسرته
لو كان فى البأس (عمروا) والندى (هرما)

ويترك نصيحة من يطلب منه فراق قومه وقطع علاقاته معهم ، فهم كالغصون من جسمه وحقهم عليه كبير :

وكم قائل لى عد عنهم فانه
مع الألم المضاض قد يقطع الارب

فقلت : رويدك قد صدقت وذلكم
اذا لم يكن فيه لحامله طب

إذا لم أداو العضو إلا بقطعه
فلا قصب يبقنى لعمري ولا قصب
وانى بقومى للضنين واننى
على بعد دارى والتنائى بهم حذب^(١٣٧)

وطريق المجد هو طريق القوة والبأس ، ولا ينال المجد من كان
همه سماع الأغاني وعناق الحسان ، ولا يبلغ المعالى الا من نحى جانبا
التفكير فى عواقب الأمور :

منال العلى بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعناق الشواذب

وطعن اذا ما النقع شار وأقيلت
بنو الحرب أمثال الجمال المصاعب

وضرب يزل الهام عن كل ماجد
على الهول مقدم كريم المناسب

وليس ينال المجد من كان همه
طروق الأغاني واعتناق الجباب

ولا بلغ العلياء الا ابن حرة
قليل إفتكار فى وقوع العواقب^(١٣٨)

وهذا يتطلب النأى عن دار الهوان والذل والاعتراب فى طلب
المجد :

(١٣٧) ص ٣٢ — الارب : الحاجة ، القصب بالفتح : عظام الاصابع ،
والبضم الظهر والمعى .

(١٣٨) ص ٤٧ — الشواذب : جمع شازب وهو الخشن ، والضامر :
الايابس ، والمصاعب : جمع المصعب وهو الجمل الصعب ، ويزل الهام :
يذهب بالراس ..

إذا الديار تغشاك الهوان بها
فخلها لضعيف العزم واغترب^(١٣٩)

وكل تعب في هذا السبيل يهون ، لأن الأعضاء اذا تعنت لأجل راحة
الانسان ارتاح قلبه وزالت همومه ، اما اذا كان الانسان يرزح تحت
الذل والمهانة فان الجسم يصيبه السقم :

وفي تعب الأعضاء للقلب راحة
ولا تصلح الأعضاء والقلب رازح^(١٤٠)

والخوف ومداراة الموت لا تغنى عن ملاقاته ، وكل انسان له يوم
لا بد لاقيه :

ولا عاش من يرضى الدنيا أهل رأى
جباناً على مر الليالى مظلدا ؟
وهل مات من خوض الردى قبل يومه
فتى لوطيس الحرب هازال مفئدا^(١٤١)

ويظهر أن شاعرنا قد يئس من استقامة عادات الناس واصلاح
أحوالهم فدعا الى عدم الركون اليهم ، أو اعطائهم أى ثقة ، وعصيانهم
في كل مشورة ، فلقد جربهم بنفسه ووجد أن صحيح الود منهم عقرب :

لا تركنن الى العدو ولا تطمع
آراء من في جبل غيرك يحطب
واعصى الذليل اذا أشار ولا تثق
في الكائنات بكل من تستصحب

. (١٣٩) ص ٧٦ .

. (١٤٠) ص ١٢٤ .

. (١٤١) ص ١٤٩ — وطيح الحرب : أشدتها ، المفئد : خشية يحرك
بها التنور .

واعلام بأن الناس قد جربتهم
فاذا صحيح الود منهم عقرب^(١٤٢)

وانظر الى قوله (ولا تثق في الكائنات) لكى تقف على مبلغ ما عاناه
ابن مقرب من الناس ومن مكائدهم .

وفي موضع آخر يشبه مودة الناس ، وتبخرها عند الحاجة كالبرق
الذى يلوح ثم يختفى :

ولقد حلبت الدهر أشطر نابيه
وعرفت ما ييـدى ، وما يتغيـب
فاذا مؤدة كل من أصفيته
ودي ، لسدى الحاجات برق خاب^(١٤٣)

وانال عصب الحياة وبه يغتر الانسان ويتقوى في الملمات ، فاذا
بات الانسان خاوى الوفاض من المال ، استهان به الناس ، وجفاه
الأقارب ، والعجز أعدى أعداء الغنى ، فمن اتخذ مطية في درب الحياة
لم يكن له للجاء سبيلا أبد الدهر :

ألست ترى أن المقل يمجـه
أخو الرحم القربى وتبدو مهائيه
إذا المرء لم يملك من المال ثروة
رمتـه عداه واجتوتـه أقاربـه
ومن يجعل العجز المطية لم يزل
يمر عليه الدهر والفقـر صاحبه

(١٤٢) ص ٩٠ .

(١٤٣) ص ٨٦ — حلب الدهر أشطره : اختبره خيره وشره ، برق

خلب : لامطر ورأه .

فقم وأركب الأهوال جدا فطالما
أفاد الغنى بالمركب الصعب راكبه (١٤٤)

وأخيرا فإن ابن مقرب يلخص لنا رأيه في مبادئ حسب تجربته
التي خاضها بنفسه ، وذلك على شكل تعريفات في أبيات متوالية فيقول :

العز ما خضعت لهيبته العدى
وأقام بالفكر الملوك وأقعدا
والمال ما وقاك ذمما أو بنى
عليك أو أبقى لقومك سوءدا
والجنود ما بلت به رحم وما
أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم اكرام اللئيم لأنه
كالذئب ، لم ير عدوة الا عدا
والعزم ما ترك الحديد مثلا
والخيل حبرى والوشيج مقصدا
والنبل فتكك بالمعادي غادرا
أو واقيا ، مستنجدا أو منجدا
والحلم في بعض المواطن ذللة
فاصفح ، وعاقب واعجلن وتأيدا (١٤٥)

هذا وقد أورد ابن مقرب الحكمة في شعره بشكل مقنع ومسلم به ،
وواضح على عادة حكماء الحياة وذوى التجارب المحنكين ، فالحكمة
لا تتطلب غموضا أو اخفاء ، بل الوضوح هو سبيل انتشارها بين الناس
كى يفهموها ويستفيدوا منها ، كما جاءت حكمة ابن مقرب في لغة فصيحة

(١٤٤) ص ٥٣ .

(١٤٥) ص ١٦٧ — العدو : المرة من العدوان ، مثلا : مثلوما ،
والوشيج : شجر الرماح ، مقصدا : مكر ، تأيد : تقوى .

سليمة وأسلوب سلس جميل ، وعرضها صاحبها عرضاً سهلاً جزلاً رائعاً مستساغاً .

ومن ناحية أخرى استخدم ابن مقرب بعض الأمثال المتداولة المعروفة في شعره ، ولا شك أن ادخال مثل هذا النوع من الأدب في الشعر يزيده افراداً وتنوعاً ويضفي عليه طرافة غير قليلة ، وهذه الأمثال من ناحية أخرى تدلنا على كثرة اطلاع الشاعر وتنوع ثقافته ، إلا أن ابن مقرب لم يكثر منها لأن ذلك يعد ممجوجاً مستكرهاً ، يقول ابن رشيقي : (١٤٦) « وهذه الأثيياء في الشعر انما هي نبذ تستحسن ونكت تستظرف ، مع القلة ، وفي الندرة ، فأما اذا كثرت فهي دالة على الكلفة ، فلا يجب للشعر أن يكون مثلاً كله » .

١ - فمن الأمثلة التي جاءت في شعر ابن مقرب قوله :

فشمر وأوردتها فقد زاد ظمؤها
على العشر لا تشمير غمر مؤارب
ولا توردها ورد سعد وعليها
إذا نهلت عل الهجان الحلائب (١٤٧)

فقلوه (ولا توردها ورد سعد) يعنى به سعد بن زيد مناة ابن تميم ، وكان أخوه مالك بن زيد أحسن أهل زمانه قياماً بالابل ، وكان ذا حنق ، ثم تزوج وبني بامرأة ، فأورد أخوه سعد الابل فلم يحسن القيام عليها والرفق بها ، فقال مالك :

(١٤٦) ابن رشيقي - العمدة ص ٢٨٥ ج ١ .
(١٤٧) ص ٦٥ - الظم بالكسر : ما بين الشربتين ، والمؤارب : المداهى ، نهلت : النهل اول الشرب ، والعلل : السقى بعد السقى .

أوردها سعد وسعد مشتعل
ما هكذا تورديا سعد الابل

فذهب مثلا ..

٢ — ومن براعته أنه قد يورد مثلين في بيت واحد كقوله :

أدارى مداراة الأسير معاشرا
مداراتهم من موجعات المصائب
عن الرشد أهدى من (سطيج) وكلهم
الى الغى (أعدى من سليك المقائب) (١٤٨)

وسطيج الكاهن هو ربيع بن ربيعة ، كاهن غسانى من العمرين ،
كان العرب يحتكمون اليه ويرضون بقضائه ، وسليك المقائب — هو
سليك بن السلكة وهى أده وكانت سوداء وهو أيضا ، وكان من أعدى
الناس لا يشق غباره ، وأخباره فى العدو والغارة مشهورة ، وله قصص
فى مجمع الأمثال للأمدانى .

٣ — ويقول فى قصيدة أخرى :

إذا رجفت دار العدو مخافتى
فلا تسألانى عن سعيد ولا سعد (١٤٩)

وسعيد وسعد ابنا ضبة بن أدبن طانجة ، وكانا قد خرجا فى طلب
أبل لأبيهما ضبه ، وقد نفرت ليلا وهما معها ، فافترقا فى طلبها فوجدها
سعد ، وذهب سعيد فلقية الحارث بن كعب ، وكان على سعيد بردين
فسأله الحارث اياهما فأبى عليه فقتله وأخذهما ، فصار ضبة يقول اذا

(١٤٨) ص ٦٩ .

(١٤٩) ص ١٣٧ .

نظر سوادا تحت الليل : أسعد أم سعيد ؟ فذهبت مثلاً ، ثم انه لقي
الجارت بعد ذلك فقتله انتقاماً لابنه •

٤ — ومن تمثيله أيضاً قوله :

وانى فى قومي كعمرو بن عامر
ليالى يعصى فى قبائله الأزرد
أراهم أمارات الخراب وما بدا
من الجرذ الغياث فى صخرها النصلد
فلم يرعوا مع ما لقوا فتمزقوا
أيادى سبا فى الغور منها وفى النجد (١٥٠)

وعمرؤ بن عامر هو سيد الأزرد فى الجاهلية ، وكانوا يسكنون اليمن ،
وكان لعمرؤ تحت سد مأرب من الحقائق مالا يحاط به ، ولما رأى عمرو
ابتداء الخراب فى السد أشار على أهل تلك الأرض أن يرجعوا الى طاعة
الله ، وخوفهم من انتقامه ، ولكنهم لم يسمعوا له ، فأشار عليهم بالخروج
لإنجاة من عذاب الله ، ولكنهم رفضوا أيضاً ، فعندئذ خرج هو وأولاده
وجماعات من الناس معه وتفرقوا فى الأرض ، فأرسل الله تعالى على
أهل تلك الأرض سيل العرم ، فأغرق جناتهم ، ومزقهم كل ممزق ، كما
ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن ، فصاروا مثلاً وعبرة لكل معتبر •

٥ — وقيل :

ما انتظاري برؤوس أينعت
ليس هذا لينع الا للحصاد (١٥١)

(١٥٠) ص ١٣٨ — الجرذ : نوع من الفئران ، عاث : أفسد ، الغور :
المنخفض من الأرض والنجد ما ارتفع منها •

(١٥١) ص ١٨٠ — لينع : نضج الثمر •

والمعنى أصله مأخوذ من قول الحجاج بن يوسف الثقفى لأهل العراق فى أول خطبة له بعد توليته عليهم يخوفهم : انى أرى رؤوسا أينعت وقد حان قطافها •

٦ - وذكر ابن مقرب - الحجاج بن يوسف هذا فى بيت آخر مع مثل آخر فقال :

فآه منى بحجاج يزول به
ما كان من عجر عندى ومن جبر

والعرب تقول : لقى فلان فلانا فأتى له بعجره وبجره ، أى شكاه
إليه همومه وأحزانه (١٥٢) •

وهكذا استخدم ابن مقرب الأمثلة فى شعره بطريقة زادت من قوة هذا الشعر وجزالته وأصفت عليه طرافة وتنوعا وجمالا ، وهذه الأمثلة من ناحية أخرى دللتنا على مبلغ الضجر الذى كان يعتمل فى صدر الشاعر تجاه أئداده وشأنئيه ، بحيث دعاه ذلك الى استخدام المثل فى شعره الوصول الى غرضه المقصود من أقصر سبيل وبأبلغ حجة •

الهجاء :

نصيب هذا الغرض فى ديوان ابن مقرب قليل ، وكل ما جاء منه على شكل قصائد مباشرة مستقلة بذاتها نحوا من ثلاث قصائد فقط ، بالإضافة الى مقطوعة مكونة من بيتين هجا بهما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا بعد ما ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة ، وهجا عامل (واسط) واسمه (ابن الديبئى) بقصيدتين من هذه القصائد الثلاث لأنه سلب

عامله على المكوس كى يفرض ضريبة عالية على تجارة كانت للشاعر يحملها فى طريقه وهو عائد من أرض العراق •

والقصيدة الثالثة هجا بها أهل الغدر والنميمة فى بلاده البحرين والذين كان لو شاياتهم الدور الأول فى تعكير صفو العلاقات بينه وبين أبناء عمه ، وبين الأمراء بعضهم ببعض مما عاد على الدولة العيونية فيما بعد بأسوأ الأثر وأوخم العواقب •

على أن أكثر هجائه لهؤلاء الغادرين جاء موزعا ضمن قصائد الديوان بجانب الأغراض الأخرى المختلفة ، وعلى عكس قصيدة المدح وما تميزت به من مقدمات مطولة ، فان قصيدة الهجاء خلت من مثل هذه المقدمات ، وافتتحها الشاعر بالدخول الى غرضه مباشرة ، ومن الناحية الموضوعية فان ابن مقرب مس فى هجائه أيما اسفاف ، ولا يتورع عن ايراد العبارات المخجلة والألفاظ النابية التى تذكرنا بالشاعر جرير وهو يسلط بذى شعره ومقذع قوله على الفرزدق وأمه وعلى الأخطل وأمه ، وينطبق هذا الكلام أكثر ما ينطبق على القصيدتين اللتين هجا بهما الشاعر عامل واسط ابن الديبثى كما سنرى •

على أن هذه الناحية — وأعنى بها هجاء الشخص من ناحية المرأة — ليست جديدة على الشعر والشعراء ، فقد عرفوا منذ القدم أى عار وشنار يصيب المهجو اذا عير بأمه أو أخته أو حابيلته ، فأسرفوا فى ذلك وأمعنوا فيه ، « وعرف الشعراء ذلك فآلحوا أشد الألحاح حين الخصومة والمنافرة والقتال على تناول المرأة بالسنتهم ، يضعون منها ليضعوا من قدر أهلها وأسرتها وعشيرتها ، يصفونها بأسوأ الأوصاف ، ويبلغون بذلك حدا لا تسيغه الأذواق السليمة الحضرية اليوم ، يذكرون منها سوائها ، ويصورون انحطاط عفتها بالحق أو بالباطل ، سواء أكانت زوجا أم أم شقيقة » (١٥٣) •

وأن رشيق لا يعد هذا النوع من الهجاء جيداً ، ويرى أن أجود ما في الهجاء أن يسلب الانسان من الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعاييب فالهجاء به دون ما تقدم^(١٥٤) ، وقال في موضع آخر : « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح »^(١٥٥) .

على أن مما دفع ابن مقرب للاقتداء والفحش في هجاء (ابن الديبئي) — بالإضافة الى ما قلناه — هو ما ذكرته كتب الأدب^(١٥٦) عن هذا الشخص من خصال سيئة ، وما بلغه في الطمع والظلم ومشاطرة قطاع الطرق ما يحصلون عليه حداً كبيراً ، اتخذ منه الشاعر ثغرة ينفذ منها لهجوه وهتك حجابهِ والتشهير به .

فمن ذلك قوله مخاطباً نفسه داعياً لها بالنأى وترك (واسط) مادام بسكنها هذا الشخص :

بع واسطاً بالنأى والهجر
ودع المروء بها الى الحشر
أرض يدبرها (ابن صائبة)
شابت مفارقتها على الكفر^(١٥٧)

ثم يهجو ويهجو حايِلته :

لك لحيّة كالتيس ما برحت
من بؤله في ناطف تجرى

(١٥٤) العبدّة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٤ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ١٧٢ .

(١٥٦) عمران العبران — ابن مقرب دراسة ص ١٢٦ .

(١٥٧) صبا : خرج من دين الى آخر .

وبها اذا حاضت خليلتك
— الرعاء تعرف أول الطهر — (١٤٨)

ويسخر منه لتلقيه بالسديد وتسميته بالأديب :

لقبت جهلا بالسديد ومما
سددت في نهى ولا أمر
ولقد تسميت الأديب وفي
أدب الحمار عجائب الدهر
لو كنت يانوتى ذا أدب
لخلعت عنك ملابسا تعرى
يا تيس قرنك كله نقد
في النطح لا يقوى على الصخر (١٥٩)

وبأنه أسرف في ظلم العباد واعانة قطاع الطريق فهو بهذا قد خان
ال خليفة في رعيته :

أسرفت في ظلم العباد أمما
للبعث في ناديك من ذكر
وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر (١٦٠)

(١٥٨ ، ١٥٩) السعيد : الموفق في اموره ، النوتى : الملاح فى البحر ،
النقد : اكلان فى القرن وتقتصر فى الحاضر .
(١٦٠) ص ٢٢٧ — السفر : الجماعة المسافرين ، الكوس : الضرائب .

وعندما قيل له ان ابن الدببى شاعر مجيد ومن أهل العلم والأدب
قال :

قالوا : الدببى ذو قواف
محكمة النظم مستقيمة
فقلت : بعدا لكم وسحقا
فكل أفهامكم سقيمة
شعر الدببى لنو عقلتم
أبرد من أمه اللئيمة
هو الذى تعلمون كلاب
فهل لنبح الكلاب قيمة (١٦١)

وأمعانا منه فى هجائه والسخرية به صور المخازى وكأنها أصبحت
بنات لهذا الرجل وهو لها أبا ، وعندما يموت تصرخ المخازى وتلوى
بالشقاء واليتم والضياع ، وكل ذلك فى صورة طريفة فريدة أضفت على
القصيدة نوعا من الحيوية والحركة :

متى يمت تصرخ المخازى
يا أبتا واشقنا اليتيمة
بعدك حلت بنا أمور
مقعدة الغوا مقيمة
راحت جيوش الضلال فوضى
قد هزمت أسوأ الهزيمة
وأدرك الحق بعد ذلك
منا بآثاره النيمة (١٦٢)

(١٦١) ص ٥٠٥ ..

(١٦٢) ص ٥٠٦ ..

أما بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل فلم يهجه الا ببيتين وذلك بعد أن ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة فقال فيه معبرا له بأصله الأرمني :

تسلطن بالحدباء عبد بلؤمه
بصير بلا عن نيل مكرمة عم
إذا أيقظته لفظة عريية
الى المجد قالت أرمنيته نم^(١٦٣)

على أن أكثر هجاءه كان في أهل الفساد والغدر في بذه أولئك الذين عملوا بوشاياتهم على ضعضة أركان الدولة العيونية ، وأوغروا صدور الأمراء على بعضهم البعض ، فوقف ابن مقرب منهم موقفا اتسم بالحق والمرارة لما يراه من شأنهم ومن أعمالهم ، فأكثر من وصفهم بالذل والمهانة والرضا بهوان العيش ، وأن فيهم جلد الجمل على تقبل هذا الهوان فقال :

جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء
واذا ابتذوا بحثوا البذا فكأنهم
دجج تباحث عذره بفضاء
عمى عن الاحسان الا أنهم
أهدى الى لؤم من الزرقاء
صم عن الحسنى ولكن طالما
سمعوا كلام الحكل في العوراء^(١٦٤)

(١٦٣) ص ٥٠٥ — الحدباء : الموصل ، تسلطن : أصبح سلطانا .

(١٦٤) ص ١٤ ، الدبا : الجراد ، البذا : الفخس ، الدجج : جمع اندجاج ، كلام الحكل : الغير مفهوم .

ويصرخ فيهم ويندبهم لترك ما هم فيه من أعمال ونذاله ، ولكن
هيهات فلو كانوا أحياء لأجابوا ، وإنما هم أموات ، ولا يرى منهم سوى
أشباح متحركة تمشى مع الناس :

تا الله أقسم لو دعوت بندبتي
حيا للبي دعوتي ونـدائي

لكنني ناديت موتي لم تزل
أشباحهم تمشى مع الأحياء
ألفوا الهوان فلو تناءى عنهم
لسعوا لبغيته الى صنعاء^(١٦٥)

وفي أبيات أخرى وصفهم وصفا دقيقا مزريا ، فشبههم بالخطاطيف
التي تحمل الأباطيل بينما في الأمور العظيمة كأنهم خشب مسندة لا يليون
الغذاء ولا يسمعون :

وغظ باصطناعي معشرا ان دعوتهم
لنائية أبوا ، وان أمنوا نبوا
خطاطيف في حمل الأباطيل بل هم
أخف ، وفي الجلى كأنهم الخشب^(١٦٦)

ويحث نفسه ويدعوها الى مفارقة أرض يدبرها هؤلاء الأوباش
الأنذال :

وأهجر دارا لو يحل ابن قاهث
بها راح مسحوتا من المال مجحدا

(١٦٥) ص ١٦ ، صنعاء بلدة باليمن .

(١٦٦) ص ٣٣ — آب : رجع ، نب : صاح عند الهياج ، الجلى :
الأمر العظيم .

يدبرها أوباش قوم تنكبوا
عن الرشد حتى خات ذا الغي أرشدا
إذا رضى الأعداء منهم مهانة
بأخذ الجزى عدوه نصرا مؤيدا
أقاموا الأغاني بالمعاني وضيعوا
كرام المساعي والثناء المخلدا (١٦٧)

وحفل هجاؤه فيهم بصور كثيرة أخرى من التشبيهات والمفارقات
التي تصور ما وصل اليه هؤلاء من مهانة وضعة كالذي رأيناه ، وسنورد
شيئا من هذه التشبيهات والصور الشعرية في الفصل القادم ان شاء الله
عندما نتحدث عن الخصائص الفنية لشعر ابن مقرب .

* * *

الشوق والحنين :

كان من نتيجة مفاجأة ابن مقرب لقومه بسبب اضطرارهم له
وحرمانه من حقوقه أن قضى شاعرنا حياته في سلسلة من الرحلات
والتنقلات التي لا تنقطع الا لتبدأ من جديد ، وكان من نتيجة ذلك أيضا
أنه اكتوى أشد ما يكون بألم الفراق ومضاضة البعد عن وطنه البحرين ،
وعن مرابع الصبا ومواطن الذكريات ، ونتيجة لذلك كان حتما أن يصدر
عنه شعرا في الشوق والحنين لهذه الربوع والديار ، أو لهذه الذكريات
والأيام الخوالي الماضية المليئة بالمتعة والأنس ، وهذا اللون من الشعر
لن نجده طبعاً الا في القصائد التي نظمها وهو في الغربة بعيداً عن ربوع
الاحساء .

(١٦٧) ص ١٥٦ — ابن قهاث : هو قارون بن يصهر بن قهاث ، وهو
من يضرب به المثل في كثرة المال . مسحونا من المال مجحدا : أي أصبح
لا مال له ، الأوباش : السفلة ، تنكب عن الرشد : عدل عنه ، الجزى :
جمع جزية .

وشعر الحنين عنده يأخذ عدة اتجاهات مختلفة ، فقد يكون حنيناً إلى الوطن، وقد يكون حنيناً إلى المحبوبة أو تذكراً لأيامه السعيدة معها في ربوع الوطن ، وقد يكون حنيناً لأيام الصبا والشباب وذكريات ذلك العهد الطرى وأماكن اللهو السعيدة •

١ — الحنين إلى الأهل والديار :

فمن ذلك قوله في شعر ينضح باللوعة والألم للبعد عن الوطن والأهل :

فيا راكبا تطوى به البيد جسرة
وتغثال غيطان الفلا والأخاشيا

إذا أنت ألقىت العصى مخيما
بالاحسا ، وجاورت الملوك الأطايبا

فيمم لجرعاء الشمال فان لى
بها خلة أشتاقها وملاعبا

وقف وقفة بالدرب غربى بابها
فثم تلاقى أسرتى والأقاربا

فتلقى ملوكا كالأهلة لم تزل
تهش إلى الحللى وتأبى المعاييا

وان تأت قصر القرمطى تجد به
جماجم قومي والقروم المصاعبا

ذوى الملك والتيجان والمنصب
الذى سما فعلا فخرا فجاز الكواكبا

فقل لهم بعد السلام مقالة
تعم بها عنى شبابا وشائبا

ألا يا لقومى والفتى حين يرتضى
 به الدهر يدعو قومه لا الأجابيا
 كفى حزنا أنى يبعث داء مفرد
 عن الأهل ألقى كل يوم عجائبها
 ويشـتاقكم قلبى فأذكر دونكم
 مهامه لا أشـتاقها وسباسبها
 فيسهل عندي خوضها فيعزلى
 تذكر حالات أشـبن الذوائبا (١٦٨)

ونلاحظ على هذا الشعر الذى ترجم به الشاعر أحاسيسه ومشاعره
 أنه امتزج بالافتخار بقومه الملوك ، فكأنه بذلك أضاف الى دافع شوقه
 اليهم دافعا آخر كما نستشف من ذلك ، كما نلاحظ حرصه على تعميم
 السلام عليهم جميعا فى قوله (نعم بها عنى شبابا وشائبا) وما يقطر به
 قوله : (كفى حزنا ..) من لوعة وأسى شديدين .

وله مقطوعة فى الحنين والتشوق الى أهله يقول فيها :

كتاب مشوق ما تغنت حمامة
 من الورق الا حن شوقا اليكم
 مقيم بأرض الجزرى وقلبه
 رهين بجرعاء الشمال لديكم
 يحن اذا هبت شمال لأنها
 تؤدى اليكم أو تمر عليكم (١٦٩)

(١٦٨) ص ٣٨ — الجسرة : العظيم من الابل ، غيطان الفلا : المطبئن
 الواسع من أرضها ، الاخاشب : اسم جبال ، القرم : السيد .
 (١٦٩) ص ٤٦٥ — الجزرى : لعله نسبة الى الجزيرة وهى أرض
 بالبصرة ، الجرعاء : موضع بالاحساء .

فصوت الحمام على الأشجار شوقه اليهم ، ورغم بعده ونأيه عنهم ، الا أن قلبه معلق لديهم ويزيده حنيناً هبوب ريح الشمال ، لأنها تذهب اليهم ، أو تمر بديارهم . وهكذا صور ابن مقرب حنينه الى أهله بعبارات تفيض باللوعة والألم المفض الذي لا يسع من يقرأه الا التأثر به ، ومشاركة صاحبه فيه .

وينشوق الى الخسا والتليم من أرض البحرين فيقول :

يا حبذا بلاد الحماء فأنه
لو ساءنى — بلاد الى محبيب
بل حبذا درب (التليم) وحبذا
ذاك القطين به وذاك الملعب (١٧)

وفى أبيات أخرى يذكر شوقه وحنينه الى بلاده وجمالها وجمال حدائقها الوراثة التي لو مر بها الشاعر ذو الرمة لأنسته حدائق مجد التي وصفها في شعره :

ولا بأس لو غنيتمانى فقاتما
رعى الله بالجرعاء حيا وماأفا
بخفق المثانى فى ظلال حدائق
تظل على أغصانها الطير عكفا
دجيلية لو حط غيلان رحله
بها ساعة أنسته حزوى ومشرفا (١٧١)

(١٧٠) ص ٨٥ — القطين : القاطن أو اهل الدار .
(١٧١) ص ٢٨٤ — المؤلف : المكان المؤلف ، المثانى من أوتار العود : ما بعد الأول ، عكفا : عاكفه ، دجيلية : نسبة الى دجيل اسم نهر ، وغيلان هو ذو الرمة الشاعر المعروف ، حزوى : موضع بنجد ، ومشرف رمل بالدهناء .

٢ — تذكر الأحبة والخلان :

من ذلك أنه رأى البرق يوما يلمح في السماء ، فذكره بثغر الحبيبة
إذا ابتسمت :

خيلى هبا من كرى النوم وانظرا
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد أن يستفزنى
أبوح بسرى فى الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
إذا ما تجلى ضاحكا وهو يمرح
ويا حبذا ذاك الجبين الذى غدا
يلوح عليه الزعفران المذرح
فكم ليلة قد كاد يخطف ناظرى
ونحن بميدان الدعابة نمرح (١٧٢)

وكان مرة يعبر نهر دجله ، وعن كتب ترامى الى سمعه هديل
حمامة فأهاج صوتها فى فؤاده لواعج الشوق والفراق ، وأجرى على
لسانه أغانى اللوعة والحنين الى أحبته :

صبا شوقا فحن الى الديار
ونازعه الهوى ثوب الوقار
وهاج له الغرام غناء ورق
هواتف فى غصون من نضار
صدحن غدية فتركن قلبى
وكان الطود كالشئ الضمار (١٧٣)

(١٧٢) ص ١٣١ — ذرح الزعفران فى الماء : جعل فيه منه شيئا
يسمى سيرا .

(١٧٣) ص ٢١٤ — الورقاء : الحمامة ، النضار : الاثل ، الغدية :
تصغير الغداة ، والصود : الجبل ، والنضار : الشيء لا يرجو رجوعه .

ويخاطب الحمام بقوله :

رويدا يا حمام بمسـتـهـام
مشوق منه طول السفر
براه الشوق يرى القـدح جـدا
فغـادـره بـقـلـب مـسـتـطـار
فوا عـجـبا لـكن تـنـحـن خـوف الفـ
راق وما بدت خـيل خـيل المـعار
ولم تصدع لـكن عـصا بـيـين
ولم تعبت لـكن نوى بـغـار^(١٧٤)

فيعجب من نوح الحمام لخوفها من الفراق مع أنها لم تعرف هذا
الفراق ولم تجربـه كما جـربه هو ولم تصدعها عصا البين أو تعبت بها
النوى كما قاساها وكابدها ، ثم يخاطبهن بقوله كيف يكن لو كابدتن
ما أكابده ، وقاسيتن هذه الشجون التي تعلقن بى ونار الشوق وافحها :

فكيف يكن لو نيطت شـجـونى
بـكن ونار وـجـدى وادكارى^(١٧٥)

وكان مسافرا مرة فرأى فى الطريق شجرة وارفة الظلال ، فدعا
صاحبه للجلوس تحتها ، والتقيؤ بظلالها ، لعل المـقـيل والاضطجاع يعيد
الى قلبه المشتاق بعض الذكريات الجميلة :

لعل مقـيـلا تـحـتـها واضطجاعة
ترد على عـيـن المـشـوق كـراها

(١٧٤) المرجع السابق — من السير فلانا : اضعفه ، القـدح : السهم
قبل ان يراش ، المـعار : الفرس الذى يحيد عن الطريق براكيه ، صدع
العصا : كناية عن التفرق ، البين : الفراق ، النوى : البعد .
(١٧٥) الشجون : الأحزان : الـادكار : التذكر .

وبينا وظلا بالديار وذكرنا
ليالينا بالقصر واذكراها

فكم ليلة بتنا بها لو يباعها
أريب بنطرى عمره لشراها (١٧٦)

٣ — اشتاق الشاعر الى أيام صباه وذكريات شبابه فقال شعرا غلّه
بذلك يستعيد — ولو فى خياله فقط — أيام لهوه ومرجه ، ويعوض بهذا
الشعر ما يعانيه فى حاضره المر من شقاء وعناء ، ومن خلال هذا الشعر
أمكننا الوقوف على الأماكن التى شهدت نشأته وشبابه مثل (حجر)
و (اجله) وغير ذلك يقول ابن مقرب :

لله أيام الصبا اذ درانا
حجر القرى ولفنا بأجانة معهد
اد لمتى تحكى الأغداق وانما
أنهى الشعور الى العيون الأسود
والخد من ماء الشباب كأنما
فيه لأحداق الكواكب مورد
كم ليلة طالت فقصر طولها
شدو المزهري والغزال الأغيد
وترنم الأوتار فى يد قفينة
غنح يدين لها الغريض ومعبد (١٧٧)

فأيام شبابه كما نرى حافلة بالأنس والطرب فحق له أن يبيكها
ويتحسر لفوتها :

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلانه

وجاد ديار الحى من أيمن الحسا
مرب يوارى الهضب داني ربابه (١٧٨)

ويدعو لهذه الليالى بالسقيا ، فقد تولت كالحلم ، وتحسر على
نضرتها ومرحها ، وعدم دوامها ، فقد كان آنذاك شابا فتيا قويا لا تعيره
الحسان بالشيب والكبر :

سقيا لليالى اللهو لقد
كانت وتولت كالحلم
يا خضررتها يا نضرتها
يا حسررتها اذ لم تدم
اذ ليس البيض تؤنبى
بمشيب لاح ولا عدم (١٧٩)

وهكذا نرى أن شعر ابن مقرب يمزج بالشوق والحنين الى ما فاته
وما خلفه وراءه ، سواء كان وطنه وأهله ، أو كان ذكرياته مع الأحبة في
أيام الشباب والصبا ، وكما رأينا أيضا فقد امتزج هذا الشعر بلواعج
الحسرة واللوعة ومشاعر الحزن الممض ، ولعل مما زاده لوعة على لوعة
أن الظلم الذى وقع عليه كان من ذويه وقربته وليس من الغريب
البعيد ، فلا حرج عليه اذا أن يحاول بهذا اللون من الشعر أن يخفف
عن نفسه بعض آلامها ، ويروح عنها شيئا من مصابها ومقاعبها .

الوصف :

الشعر الا أقله راجع الى باب الوصف (١٨٠) ، وقد قصد اليه
الشعراء فاجادته دليل على عمق الشاعر ، وبعد الخيال وخصوبة الفكر ،

(١٧٨) ص ١٠١ ، الرباب : السحاب الأبيض .

(١٧٩) ص ٥٨١ .

(١٨٠) ابن رشيق — العمدة — ج ٢ ص ٢٩٤ .

ولكن هذا الغرض لم يكن له نصيب كبير في الشعر العربي ، بل ورد عرضا في ثنايا القصائد ، وشأن شاعرنا ابن مقرب في ذلك شأن باقي الشعراء ، ولهذا فمن العسير أن نظفر بوصف متكامل لشيء في شعره ، فكل ما هنالك أبيات قليلة وردت ضمن قصائد معدودة من شعره ، ولم يكن هذا الوصف القليل قد قصد اليه الشاعر ، بل جاء كما قلنا عرضا ضمن الموضوعات الأخرى التي تزخر بها القصيدة ، ومن الناحية الفنية فإن هذا الوصف في عمومته تنقصه جودة الحبك واحكام التصوير •

والوصف عند ابن مقرب يأخذ اتجاهين :

الأول : التفت فيه الشاعر الى البيئة البدوية فوصف منها ما شاهده أثناء رحلاته ، فوصف الصحراء وطبيعتها ، ووصف الابل ، ووصف البحر وأمواجه ، والسفينة التي سافر عليها أحيانا وشبهها بالناقة •

الثاني : الوصف الحضري ، وهذا قليل في شعره ، ومنه وصف مجلس الحضر والطرب في افتتاحية بعض قصائده ، كما أنه وصف بعض المشاهد الحربية وصور فيها شجاعة الممدوح وبسالته واقدامه ، ووصفه للمعارك الحربية ينبئنا عن انسان قند جربها ، وخاض غمارها بنفسه وشاهد أهوالها •

فمن النوع الأول قوله يصف البحر والصحراء وغالبا ما يقرب بينهما :

فكم خضت رجو اليوم من لج مزيد
يظن اصطفاق الموج فيه مشاهلا
وكم جبت من مومة أرض ترى بها
مع الآل حق العين والأذن باطلا
تخال بها الحرباء في رأس جذلة
شبيحا من البدوان للعرض ماثلا

وتحسب فيها الثعلبان مجذلا
من الخيل اذ تعلو كتيبا مقابلا
وان عرضت فيها الرئال حسبته
بخاتنى تحسلى الروايا قوافلا (١٨١)

فأمواج البحر عند اصطفاقيها وعلو زبدها الأبيض كأنها مشاعل
ماتية ، والصحراء مقفرة لا ترى فيها العين ولا تسمع الأذن شيئا غير
هذه الدواب والحشرات التى تبرز بين الحين والحين ، ونلاحظ أن
أوصاف ابن مقرب لمخلوقات الصحراء لا تتعدى الى الجزئيات ، بل
تقف عند التعميم والتشبيه الخارجى .

وغالبا ما يصف الصحراء بالتيه والخواء وبأنها تتعب سالكها ،
والبحر بأنه مزبد الأمواج :

كم جيت دونك من تيهاء خاوية
يشكو الكلال بها النجاء التعب
ومزيد يتراءى الموت راكمه
سلامة المخطيئة له عجب (١٨٢)

ويحكى لنا عما يصيبه من الرعب فى وحشته بالصحراء المقفرة ،
وما يتراءى له أحيانا من الجن وما تبثه من أضواء وما يسمعه من انتخاب
وبكاء :

(١٨١) ص ٣٩٦ — رجوى اليوم : رجاء له وطلبا ، المومة : المفازة
المهلكة ، الآل : السراب ، الحرباء : دويبه تتلون بما حولها ، الجذل : أصل
الشجرة ، الثعلبان : الذكر من الثعالب ، المجدل من الخيل : القوى ، الكتيب :
المجتمع من الرمل .
(١٨٢) ص ٩٨ — المزيد : البحر كثير الزبد من شدة الموج ، والكلال :
التعب ، النجاء : الإسراع فى النجاة .

فكم لذا اليوم من دوية قذف
 قطعت والقلب في أهوالها يجب
 تبدو بها الجن لى حيناً وآونة
 تبث أضواءها حولي وتنتحب^(١٨٣)

أما وصفه للناقة فتتبدى فيه الروح البدوية لفظاً ومعنى :

وقد قربوا للبين كل همرجل
 أمون القرى ضخم العثانين تامك
 قمطر درفس قيسرى كأنما
 منكبه جلن وشى الدرانك
 رعى واجفا فالصلب من أجبل الغضا
 بحيث استهل كل وطفاء رامك^(١٨٤)

فالناقة قوية متكاملة الخلقة والأعضاء ، وهذا يعنى أنها سريعة
 الجرى خفيفة ، ومن جمال فروتها كأن عليها ثياب موشاة وليس فروا ،
 وما ذلك الا لأنها ترعى مراعى خصيبة لا ينفك المطر يهطل عليها •

ويصف ناقته بأنها تنحدر من سلالة قوية لذلك فهي سريعة لا تقف
 ولا تنهمل :

وحرة من بنات العيد ناجية
 لا تعرف السير غير الشد والخبب

(١٨٣) ص ٩٣ — الدوية : البرية ، فلاة قذف : تتقاذف بمن سلكها ،
 يجب : يضطرب .

(١٨٤) ص ٣٠٦ ، الهمرجل : الجواد والناقة السريعة ، ناقة أمون :
 وثيقة الخلق ، القرى : الظهر ، العثنون : شعيرات تحت حنك البعير ،
 التامك : الناقة العظيمة السنام ، القمطر والدرفس والقيسرى : أوصاف
 للجمال العظيم ، والدرونك : نوع من الثياب ، واجفا والصلب : أماكن استهل
 المطر : اشتد انصبابه ، الوطفاء : السحابة الممطرة ، الرامك : القيمة .

تخالها بعد خمس الركب رائحة
دوية فقدت رألا بذى نجب^(١٨٥)

وشبهها في البيت الأخير بالنعامة التي فقدت ابنها فهي تعدو هنا
وهناك بحثا عنه ، وهذا أدل على نشاطها وكثرة حركتها .

وفي معرض وصفه للناقة قد يصف سفينة البحر ويشبهها بسفينة
الصحراء ، وينسب صفات هذه لتلك :

ليبعدنى عنهم شد ناجية
وجناء غفل من التوقييع والوقع
أو ذات قلع من العيناء ما عرفت
في زجرها بخل يوما ولا هدع
ولا رغت عند حمل الثقل من ضجر
ولا الى هبع حنت ولا ربع
تجرى مع الريح ان هونا وان مرحا
فنعم مطلعة من هول مطلع^(١٨٦)

فبعد أن وصف ناقته بقوة السير ونفى عنها التمهل انتقل الى
وصف السفينة وشبهها بالناقة ، فهي لا تحتاج في سيرها لمن يزجرها
كسفينة الصحراء ، وهي قوية شديدة التحمل ، لا ترغى ولا تضجر ،
للاثقال المحمولة عليها ، بل انها تسير هادئة أحيانا وحشيئة أحيانا أخرى
كى تصل الى هدفها المقصود ، ونلاحظ من هذا المثل ارتباط ذهن الشاعر

(١٨٥) ص ٧٦ — من بنات العيد : من نسل قوى ، الناجية : السريعة ،
والشد : العدو والخب : نوع من العدو ، الخمس : توقيت لرى الابل ،
والروية : النعامة والرال : ابنها ، وذى نجب : مرضع .
(١٨٦) ص ٢٧٦ ، الناجية والوجناء : الناقة الشديدة ، التوقييع :
نوع من السير ، القلع : شراع السفينة ، الهدع : كلمة يسكن بها صغار
الابل ، الهبع : الفصيل ، والريع أيضا ، المطلع : القوى .

بالبادية ومخلوقاتهما حتى في تشبهاته وأوصافه للأشياء الأخرى ونجد في مثل آخر مقارنة بين السفينة والناقة أيضا ونلاحظ في كلا المثلين ما قلناه سابقا عن وصف الشاعر وأنه يبتعد عن الوصف الجزئي ، ويكتفى بالوصف الخارجى العام ، وذكر حسنات الموصوف من قوة وسرعة فيقول هنا :

بكل مطلى الملاطين لم
يجرب ولم يرع بمرعى السوام
تسوقه الريح وتحتشه
الجل وفي الوجعاء منه الزمام
لا يعرف الاعياء في سيره
ولا ييالى أمضى أم أقام
وقد تساوى عنده في المدى
يوم وأسبوع وشهر وعام
إذا يمسس الأرض في جريه
خيف على راكبه الاصطلام^(١٨٧)

وقد يكون وصفه للسفينة بأنها (مطاية الملاطين) أى الجانبين ، الوصف الجزئي الوحيد في هذه الأبيات ، بالاضافة الى قوله في البيت الثانى أن زمام السفينة في مؤخرتها (وفي الوجعاء منه الزمام) ، على أنه يعود بعد ذلك وينسب للسفينة صفات الناقة ، وما يصيب الأخيرة من جرب وأمراض جلدية ، ويقول انها لا تحتاج الى الكلاء أو الرعى كالناقة ، ولا تعرف الاعياء ، ولا تنال بالرسو أو الانتقال ، ويتساوى عندها في البعد الأزمان الطويلة والقصيرة ، لكن اذا مست الأرض في

(١٨٧) ص ٥٧٣ ، الملاط : ما يلط به الحائط أو الجنب ، يجرب : يعصيه الجرب ، الجل : الشراع ، الوجعاء : يعنى بها هنا مؤخر السفينة ، الاصطلام : الاستئصال .

أحد جوانبها ، فهناك مكنم الخطر عليها وعلى راجبها ، وكل هذه الأوصاف كما نرى أوصافا عامة ، ولكنها تؤكد قوة ارتباط نفسية الشاعر وذهنه بالصحراء ومخلوقاتنا .

ويعود الى وصف الناقة بالسرعة ، ويشبها بسرعة النعامة فيقول:

أو كن روعاء عزيزية
تسزف بالرحل زفيف النعام^(١٨٨)

ومن وصفه للفرس وهو قليل قوله :

يحبها أجرد عرض النسا
قصير الأرساغ طويل الحزام^(١٨٩)

فوصفه بالشدّة والصلابة وقوة التحمل :

ومن وصفه الذي أبدع فيه وأحسن قوله يصف المطر وشدة غزارته :

ملث ، يظل الجأب في عنفوانه
على النشز وهو السحسح المتمايح
كمسترعف ، أحذى ودنح بعدما
غدا طلقا واستبدهته المطاوح

(١٨٨) ص ٥٧٤ — الروعاء : النائة الحديدية الفؤاء ، بنو عزيز : قبيلة من العرب تنسب اليهم كرام الابل ، زفيف النعام : اسراعه فى عدوه .
(١٨٩) ص ٥٧٤ — عرض النسا : قوية صلابة ، والنسا : عرق من انورك الى الكعب ، الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوضيف من الرجل .

وتمسى الرعان القود فيه كأنها
بعاليـل في آذى بحر طوافح^(١٩٠)

فهذه الصورة مع جمالها نلاحظ أنها منتزعة من البيئة انتزاعاً ،
سواء في ذلك من ناحية اغراق خيال الشاعر ، أو الألفاظ الغريبة التي
استخدمها للدلالة والتعبير عن هذا الخيال ، فهو في البيتين الأولين
يقول : أن شدة المطر وغزارته ألجأت الحيوان العنيف الذي يرى غاديا
رائحا في هياجه ، ألجأته شدة المطر الى مرتفع أرضى كى ينجو من غزارة
المطر ، فوقف منكشاً على نفسه مستسلماً متخاذلاً كأنه رأى المهالك
وقد أحاطت به ، بعد أن كان يجرى هنا وهناك في شدة وسرعة ، ومع أن
هذا التشبيه ليس بكبير معنى الا أننا نحس بالجهد الذى بذله الشاعر
لكى ينتزعه من خياله ، مما جعله تشبيها أقرب الى النحت منه الى
التصوير ، وكأنما كثرة الماء وغزارته ذكرته بمنظر البحر وأواجه فصور
لنا فى البيت الثالث رؤوس الجبال بارزة من خلال الماء الغزير ، وكأنها
رؤوس أمواج هائجة ارتفعت فى بحر ظام ، ومع أنها مبالغة فى وصف
غزارة المطر الا أننا نستدل من هذه الصورة والتى قبلها على بعد خيال
الشاعر وبراعته فى الوصف والتصوير •

ووصف الشاعر بعض الوقائع الحربية فمن ذلك قوله يصف معركة
شارك فيها أحد أبناء عمه وهو الأمير الفضل بن محمد العيونى :

سل القوم عنه يوم جاءت وأقبلت
تخب المذاكى تحتها وتناقل

(١٩٠) المثلث : الدائم ، الجأب : الحمار الغليظ ، النشر : المرتفع ،
السحسح : المطر الشديد ، المتهايح : المتهايل والمسترعف : المتقدم ، احدى
التراب : حثاه ، استبدته : فاجأته ، المطاوح : المهالك ، الرعن : انفه
يتقدم الجبل ، البعلول : حباب الماء ، آذى البحر : موجه •

أغارَت على درب الحنائد غارة
 يطير الحصا من وقعها والجراول
 لها فيلق بالجو ذى النخل كامن
 وريعانها للمسجد الفرد شامل
 وظاردت الفتيان فيها وأظهرت
 كناها وكل عارف من يجادل
 فولت حماة القوم خيلا ولم تزل
 بنو الحرب في يوم التلاقى تحاول
 فراحت عليها الخيل فانبعثت لها
 جحافل جمع تقتفيها جحافل
 فحاصت حذار القتل والأسر خيله
 وسمر القنا فيهن صاد وناهل
 فأوردهم صدر الحصان كأنما
 له الموت جند بالمعادين كافل
 وعاجل طعننا سيد القوم فافتدوا
 وقد عاف كل منهم ما يحاول^(١٩١)

ونلاحظ على وصف المعركة التسلسل والاتساق من البداية الى
 النهاية فالخيل مقبلة في شدة ، وسرعة ومن شدة وقعها على الأرض
 تتطاير الحجارة والحمى ، وغبارها يملأ الجو ويشمل المكان ، والفرسان

(١٩١) ص ٣٤٥ خب الفرس فى عدوه : راوح بين يديه ورجليه ،
 وناقل الفرس : أسرع فى نقل القوائم ، الجراول : الحجارة ، الجنادل :
 الصخور العظيمة ، الجو ذو النخل : موضع ، ريعان الشيء : أوله ،
 والمسجد : مسجد الجعلانية ، وهو مسجد الأميرة بنت الأمير عبد الله بن على ،
 الكنية : ما صدر بأب أو أم ، حاصت : عدلت وتراجعت .

فوقها كل يصول عدوه ويعرف نفسه للذى يبارزه ، وهذا من عادات العرب فى المبارزة ، وعندما تتبع العدو خيل القوم ، برز لهم الأمير فى خيله ، وحاذر منهم أن يصيبوا منه مقتلا ، ثم أعمل فيهم السيف قتلا وتجريحا ، وأوردهم صدر حصانه مما يدل على شجاعته واقدامه ، وعندما حانت له الفرصة عاجل سيدهم بطعنة مردية ، جعلت من وراءه يركنون الى الفرار ، ويعافون القتال •

عبر الشاعر عن كل هذا بكلمات ضخمة تناسب منظر القتال وما يجرى من شدة وأهوال كقوله : (أغارت ، فيلق ، جحافل) ، واستخدم الشاعر فاء التعقيب بكثرة فى أبيات متقاربة ، وذلك للدلالة على كثرة الكر والفر والمصاولة والمجاوله مثل (فراحت ، فحاصت ، فأوردهم) • ومن أوصافه الحضريه ، وصفه للخمر ، وما تحدثه من آثار فى شاربها وذلك فى قوله :

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام
كريمة تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل
مزاجها الأرى وماء الغمام
مما أدير الكأس منها على
كسرى ونمرود بن كوش بن حام
لو احتساها ابن الزبير اغتدى
أكرم من كعب وأوس بن لام
تذهب باليأس وتدنى المنى
وتنشر اللهو وتطوى الغرام

أو ذاقها المنزوف ضرطاً لما

هاب ابن ذى الجدين يوم الزحام (١٩٢)

فالشاعر يصف الخمر بأنها كرمية أى مأخوذة من الكرم وهو العنب،
وأنها معتقة جىء بها من بابل : وطعمها مزيج من العسل والماء العذب
ثم ينتقل الى وصف آثارها ، فيقول لو أن عبد الله بن الزبير شربها
لترك البخل الذى اشتهر به . ولصار أجود من كعب وأوس بن لام
المعروفين بالكرم ، ولو شربها الرجل الذى مات ضرطاً من شدة الخوف
لصار شجاعاً لا يهاب قتال أحد ولو كان ابن ذى الجدين الشجاع ،
وكل ذلك من تأثير الخمر وما تحدثه من آثار .

وكما لاحظنا فان وصف ابن مقرب لأثر الخمر أكثر من وصفه
للخمر فى حد ذاتها ، وهذا ما يخرج به عن التخصيص الى التعميم ،
وهذه الملاحظة الأخيرة تبقى ظاهرة عامة فى أوصافه كما قلنا سابقاً ،
عما يجعل معظم وصفه يفتقد الوضوح وتحديد الصورة والالام بجزئياتها،
ولعل مرجع ذلك أن الشاعر لم يتفرغ لهذا الغرض بشكل يتيح له الاجادة
والاكثار فيه نظراً لما اكتنف حياته من ظروف معاكسة جعلت هذا الغرض
يأتى عارضاً ضمن الأغراض الأخرى فى شعره ، ولعل الشاعر بعدم
التقصى والتفصيل فى وصفه يستلهم فى ذلك الروح العربى البليانى الذى
يقول عنه الدكتور زكى المحاسنى: «انه انطوى منذ كان على الاختصار فى
سرد الصور والزهد فى التقصى» (١٩٣) .

(١٩٢) ص ٥٧١ — كرميه : نسبة الى الكرم وهو شجر العنب ،
الارى : العسل ، ونمرود : هو صاحب القصة مع ابراهيم الخليل عليه
الصلاة والسلام ، ابن الزبير ، هو عبد الله بن الزبير ، وقد شهر بالبخل
ويشهد التاريخ انه كان حريصاً على أموال المسلمين غير مقرط فيها .
فى المثل : أجبن من المنزوف ضرطاً : وقصته أن رجلين خرجا فى فلاة فلاحتا
لهما شجرة ، فقال أحدهما : أرى قوماً قد رصدونا ، فقال الآخر : انما هى
عشرة (بضم العين) فظنه يقول بفتحها فقال : وما غناء اثنين عن عشرة
ويضرط حتى مات .

(١٩٣) د. زكى المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ٢٧ .

الخلاصة :

نظم ابن مقرب شعرا في معظم الأغراض الشعرية كما رأينا . وعلى الرغم من أن المديح والفخر يشكلان العمود الفقري لديوانه من ناحية الأغراض إلا أنه برع عموما في معظم أغراضه ، واستطاع أن يظهر لنا فنونه الشعرية في قوالب بديعة وتصاوير جميلة خلدت هذا الشعر ، وأبقت له رغم مرور السنين وبعد الشقة بيننا وبينه ، ومن خلال تحليلنا لهذا الشعر استطعنا أن نستظهر أهم صفات ابن مقرب النفسية ، من همة عالية ونفس طموح لا تقف عند حد ، كما وقفنا أيضا على مدى معاناته ومجالدته وتحمله لنوائب الزمن ، رغم مجافاة الأقرباء وابتعاد الأحبة ، ويبقى بعد ذلك أن نقف على أهم خصائص هذا الشعر من حيث اللغة والتراكيب والأخيلة وما إلى ذلك ، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم ان شاء الله .

* * *

الفصل الخامس

« خصائص شعره »

أولا : الألفاظ والأساليب :

عاش ابن مقرب حياة قاقة غير مستقرة ، وكان دائم التنقل والارتحال بين بلده البحرين وبلاد العراق ، وبين الحواضر والبوادي وتبعاً لذلك جاء شعره متنوعاً مصوراً لهذه الحياة الغير مستقرة أكمل تصوير ، وبالتالي اختلفت لغة شعره بين لغة بدوية جافة صور بها مشاهداته في البادية ومخلوقاتهما وبين لغة حضرية واضحة عبر بها عن مشاهداته في الحواضر والمدن بلغة سلسة وأسلوب سهل ممتع مزجه الشاعر ببعض الاقتباسات من القرآن الكريم والتراث الاسلامي ، ولذلك نستطيع القول بأن شعره جمع بين خصائص الأسلوبين : الجاهلي في بداوته ، والعباس الاسلامي في تحضره واقتباسه من كتاب الله العزيز .

تناول ابن مقرب كل ذلك بألفاظ قوية جزلة وعبارات متينة محكمة وأسلوب رصين حاكي به أسلوب الجاهلين ، حتى أتى بغريب الألفاظ التي وان كانت مألوفاً للبدوي الا أنها غريبة لمن يسكن المدن والحواضر ، وهذا لا ينسحب على كل شعره ، اذ أن لشعره جانباً حضرياً كما قلنا ، وفي هذا الجانب رقت عبارته وسلس أسلوبه ووضحت ألفاظه ، فجاء شعره مناسباً متآلفاً خالياً من الابتذال والاعراب .

ومن غريب ألفاظه قوله : (١)

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير آرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك

ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصا بالموجفات الحواشك
وقوله حاكيا عن الصحراء :

وكم جبت من مومة أرض ترى بها
مع الآل حق العين والأذن باطلا
تخال بها الحرباء في رأس جذلة
شبيحا من البذوان للعرض ماثلا
وتحسب فيها الثعلبان مجدلا
من الخيل اذ تعلو كتيبا مقابلا^(٢)

ومن أمثلة النوع الثانى من ألفاظه قوله :
زهت هجر من بعد مارث حالها
وعاد اليها حسننها وجمالها
وأضحت تباهى جنتى أرض مأرب
ليالى بنو ماء السماء حلالها
فياحسنها حين استقر قرارها
وزايلها ما كان فيه وبالهـ^(٣)

وقوله : رويدا بعض نوحك يا حمام
أجسدك لا تنعيم ولا تنام
أكل الدهر تذكارا ونوحا
أما فنى اشتياقك والغرام

(٢) الديوان ، طبعة الاحساء - ص ٣٩٧ - انظر شرح الكلمات
صفحة ٢٢٧ من هذا البحث .

(٣) المصدر السابق - ص ٣٥٩ .

هتفت فهجت لى شوقا فقل لى
حمام أنت ويحك أم حمام^(٤)

وخات تراكيب ابن مقرب من التكلف والصنعة ، وجاءت طبيعية
تجانب المعاضلة والمعاناة والتعسف ، وتخضع للنسق الطبيعي ، فلا تعقيد
ولا التواء ولا غموض ولا اضطراب ، اللهم الا في القليل النادر ، كالتعقيد
اللفظي الخفيف في قوله :

مازال يجتاب البلاد مشمرا
تشمير لاوان ولا متحير^(٥)

فوقوع (لا) في هذا الموضع أدخل العبارة في حكم التعقيد اللفظي
وهو عند البلاغيين ضرب من ضعف التأليف للجمل • وعدا ذلك فقد
خضعت له التراكيب وانصاعت له الألفاظ ، حتى انها لتكاد تنظم نفسها
بنفسها في سمط لآلئه ، وتأخذ مكانها بين درره وجواهره •

بناء القصيدة :

نهج ابن مقرب في معظم قصائده نهج متقدمي الشعراء وسار على
هنوالمهم ، فهو يبدأ القصيدة بغرض خارجي بعيد عن غرضها الأساسي
الذي نظمت من أجله ، ثم ينتقل الى غرض آخر وربما الى أكثر ، حتى
ينتهي به المطاف الى التخلص في براعة وحسن من تلك الأغراض الى
الغرض الرئيسي في القصيدة ، هذا في معظم قصائده على أنه قد لا يمهّد
لموضوع القصيدة بأى تمهيد ويبدأ بالغرض المنشود رأسا وبدون
مقدمات •

(٤) نفس المصدر — ص ٥٦٢ ، أجذك : استخلاف بالحقيقة .
وانحمام : الموت .

(٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٣ .

ومثال النوع الأول قوله^(٦) :

من ذا أفتاك بسفك دمي
يا غرة حى بنى جشم
فتعالى غير مدافعة
نقص رؤياك على حكم
أبظر عين عن خطأ
عرضت بالعمد يراق دمي

وبعد هذه المقدمة الغزلية يتحدث عن أيام اللهو ويصفها بالحسن
ثم يتخلص من كل ذلك الى المدح ببراعة فيقول :

ساوت في الحسن زمان الملك عماد الدين حيا الأمم
مسعود الخيل نقى الذيل سنى النيل لدى القمم
ومن أمثلة دخوله على الغرض المنشود مباشرة قوله في المدح :

بنانك من معذ ودق المزن أهطل
وباعك من رضوى وثهلان أطول
ودارك دار الأمن من كل حادث
ومنزلك المعمور للمجد منزل

إذا عد أرباب النباهة والعلى
فأنت على رغم المعادين أول^(٧)

وعلى ذلك فان القصيدة لديه ليست وحدة قائمة بذاتها ، وانما
البيت — في الغالب — هو الوحدة ، فالبيت يجيء مستقلا بذاته عما

(٦) المصدر السابق — ص ٥٨٠ .

(٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٢٧ .

قبله وعمّا بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب ، كما أن الطابع
التقريرى هو الغالب على شعر ابن مقرب ، ولكن تقريريته غير مباشرة •

البديع :

جاء البديع فى شعر ابن مقرب عرضا ولم يقصد اليه قصدا شأنه
شأن متقدمى الشعراء أيضا ، هذا على الرغم من أنه عاش فى أوج عصر
الصنعة والاحتفال بالمحسنات البديعية ، يقول صاحب الوساطة : « وكانت
العرب انما تفاضل بين الشعراء فى الجود والحسن بشرف المعنى وصحته
وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه
فقتارب ، وبدء فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم
تكن نعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل
لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ،
ويتفق لها فى البيت على غير تعمد وقصد » •

ومن ألوان البديع التى جاءت ضمن شعر ابن مقرب « الجنس » ،
ومن أمثله قوله :

نفسى الفداء لمن غدا رقى له

رقا ولم أسمح به لسوائه^(٨)

فالرق الأولى بمعنى الجاد والثانية بمعنى العبودية •

وقوله :

ذرينى لا أبالك كيف يرضى

بدار الهون ذو الحسب النضار

فظل السدر عند الـذل أولى
بأهل المجد من ظل السـدار^(٩)

وكفوله في الغزل : (١٠)

رويدا بعض نوحك يا حمام
أحدك لا تـتيم ولا تنام
أكل الدهر تذكارا ونوحا
أما فنى اشتياقك والغرام
هتفت فـهجت أى شوقا فقل لى
حمام أنت ويحك أم حمام

وقد يأتى بأكثر من تجنيس فى البيت الواحد كقوله :

أدن النجـيـة للترحـال وأرخ لها
زمامها ، واخلط الروحات بالبكر
وخطها الخط ارقالا وأول قلى
أوال — لا نادما — واهجر قرى هجر^(١١)

ويأتى (الطباق) فى شعر ابن مقرب كنون آخر من ألوان البديع ،
كما فى انبيت الأول من البيتين السابقين (الروحات والبكر) وكفوله فى
الحماس :

دع الدار بالبحرين تغفو ربوعها
وسقها ولو لم يبق الا نسوعها

(٩) المصدر السابق — ص ٢١٦ ، النضار : الذهب ، والسدر : شجر
النبق والسدر : الحذر .

(١٠) نفس المصدر : ص ٥٦٢ ، والحمام : بالكسر ، الموت .

(١١) الديوان — ص ٢٤٢ ، خلط الروحات بالبكر : أى الدوام على
السير ، الخط : التطيف ، والارقال : الاسراع ، والقلى : البغض ، وأوال :
جزيرة بالبحرين الآن وهجر : قضبتها .

وخل أحاديث المطامع والمنى
ألا إنما أشقى الرجال طموعها
ولا تحسدن فيها رجالا بشسبعها
فخير لها من ذلك الشبع جوعها^(١٢)
وقوله :

أحق ملوك الأرض بالملك من به
ينال الغنى الراجى وتحمى الحقائق
همام اذا ما هم ضاقت برحبها
مغاربها عن عزمه والمشارك^(١٣)
وقد يأتى بأكثر من طباق فى البيت الواحد كقوله :

أليت أنفك من خل ومرتحل
أو أن تقول لى الآمال خذ ودع^(١٤)
أما (المظالبة) فقد وردت فى شعر ابن مقرب كقوله :

وصاحبت أقواما ألا ليت أننى
تبدات زنجاً منهم وصقالبا
ظننتهم ظلا ظليلا وجنة
فكانوا سموما يوم صيف وحاصبا^(١٥)

(١٢) المصدر السابق - ص ٢٥٢ ، النسخ : سير عريض لشهد
الرجال .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٢٩٨ ، الحقائق : ما يحق عليك أن تحميه .

(١٤) الديوان - ص ٢٧٣ ، أليت : حلفت .

(١٥) المصدر السابق - ص ٣٦ - الصقالب : جيل تتأخم بلادهم
بلاد الخنزير ، والحاصب : الريح الشديدة .

وقوله :

يا ساكنى الخط والأجزاء من هجر
هل انتظاركم شيئاً سوى العطب
بحمت مما أناديكم وأنديكم
لخير منقلب عن شر منقلب^(١٦)

وقوله :

تبنا لدنيا كما وهبت ثنت
فاسترجعت منا نفيس هباتها^(١٧)

وقوله :

فما من تنأى به الدار غائب
ولا كل من تدنو به الدار حاضر^(١٨)

وقد كان لثقافة ابن مقرب الإسلامية أثر واضح على شعره تجلّى في
أقتباسه من آيات القرآن الكريم كقوله :

ولا تهنوا واستشعروا الصبر جنة
وعزما فما للهرب الا اعترامها
فانكم ان تألموا فعدوكم
كذاك وللأمر العظيم عظامها^(١٩)

(١٦) نفس المصدر — ص ٧٥ ، الأجزاء : جمع الجزع وهو منعطف
الوادي ، والعطب : التلف . بحمت : البحة خشونة وغلظ في الصوت .

(١٧) نفس المصدر — ص ١١٠ .

(١٨) نفس المصدر — ص ٢١٣ .

(١٩) الديوان : ص ٤٦٣ ، لاتهندا : لا تضعفوا ، جنة : وقاية .

وقوله :

العابد المحيى قياما ليلة
إذا ناشئت الليل أقوم قتيلا^(٢٠)

وقوله :

نكال لجان غيرهم فاذا جنوا
فبرد عليهم ما جنوا وسلام^(٢١)

وقوله :

إذا خدم الأموال باعت حظوظها
من الباقيات الصالحات شراها^(٢٢)

وقوله :

محيى البلاد وقد أشغت على جرف
هار ومانعها بالبيض والأسل^(٢٣)

ثانيا : المعانى والأخيه :

تتسم معانى ابن مقرب عموما بأنها واضحة تميل الى العمق ولكنها
لا تدق دقة الفلسفة ، ولا تغمض غموضها ، الا أن أفكاره ليست ضحلة
على كل حال بل تتميز بالبساطة والوضوح ، ومعانيه وأفكاره مستمدة

(٢٠) المصدر السابق — ص ٤٠٨ .

(٢١) نفس المصدر — ص ٤٧٥ ، والنكال : العذاب والعقاب .

(٢٢) نفس المصدر — ص ٦٤٦ .

(٢٣) نفس المصدر — ص ٣٨٦ ، الجرف الهارى : ما اكله النهر من
أسفل ساحله مبدا مغلقا يوشك أن ينهار ، والبيض : السيوف ، والأسل :
الرمح .

غالباً من البيئة التى تنقل خلالها الشاعر ، فهو عندما يكون عابراً الصحراء فى احدى سفراته يتحدث لنا عنها ، فيصفها بأنها مهلكة ومرعبة وأنه يسمع فيها أصوات الجن ، ثم يصف مخلوقاتها من ثعالب وذئاب وسحالي وغير ذلك من مشاهدات^(٢٤) ، وعندما يسافر خلال البحر يصف لنا السفينة وصفا موجزا ، ثم يقارن بينها وبين الناقة سفينة الصحراء بشكل بسيط وغير عميق^(٢٥) ، أما عندما يكون فى المدن والحواضر فنراه يحدثنا عن العمران الذى أحدثه المدوح من جوانب ومشاريع وأسواق وغيرها ، وربما وصف بساتين البحرين وأشاد بجمالها وخضرتها^(٢٦) .

أما الخيال العميق فى شعر ابن مقرب فلم يكن نصيبه وافرا وقد يكون ذلك بسبب طبيعة الحياة التى عاشها ابن مقرب وما صاحبها من عنف وارهاق فى سبيل استرجاع حقوقه المغتصبة مما صرفه عن اطلاق العنان لخياله والاسترسال فى استخراج الصور المنمقة للتعبير عن معانيه ، ولكن ذلك لا يعنى أنه لم يكن قادرا على ذلك فشعره الذى بين أيدينا يدل فى قوته وجزالته على أن الشاعر يملك من المواهب الشعرية الشيء الكثير ، ثم ان شعره لم يخل من صور خيالية جميلة وان كانت قليلة ، وهذا القليل اعتمد فيه الشاعر على التشبيه والاستعارة والكناية كغيره من الشعراء .

ومن أمثلة (استعاراته) قوله فى المدح :

أخذت بأعضاد العشيبة بعدما
هوت وعلت منها الرؤوس الأسافل

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) انظر الديوان على التوالى ص ٣٩٧ ، ص ٩٨ ،

وأنقذتها من بعد ما لعبت بها
يد الدهر ، واستولت عليها الزلازل (٢٧)

وقوله :

رفعت عماد المجد من بعد ما وهى
ورث وأضحى ركنه وهو هائل
وأحييت روح الجود من بعد ما قضى
ورد عليه الترب حاث وهائل (٢٨)

وقوله :

وداويت قرحا كان فى كبد العلى
تبطنه داء من الغل قاتل (٢٩)

وقوله فى الفخر :

فيالك من مجد تداعت فروعـه
ومال ذراه وانتعرت أسافله (٣٠)

وقوله :

صداق المعالى دشرفى وذابل
وسابغة زغف وأجرد صاهل (٣١)

(٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) الديوان ص ٣٤٢ ، أخذ بأعضاء العشيرة : قواها وعززها .

(٣٠) المصدر السابق — ص ٣٣١ . انتعرت : سقطت .

(٣١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

وقوله :

فقلت لها والنفس في غلوائها
تجيش ، وأفكارى تغور وتتهم
ذرينى فان الحر لا يآلف الأذى
وقد أكثر النمل الجديل وشدقم^(٣٢)

وقوله يهجو قوما بالبخل :

ولو درهم يوما دعاهم لأقبلت
رجال وخيل تملأ الجو قسطلا^(٣٣)
ومن استعاراته الطريفة قوله :

محيى البلاد وقد أشفت على جرف
هار ، ومانعها بأبييض والأسل
وباعث العدل حيا بعدما صرخت
وأعلنت أمه بالويل والثكل^(٣٤)

وأما أسلوب (الكناية) فلا ين مقرب فيه صولات وجولات عديدة،
فمن ذلك مثلا قوله يصف جو معركة :

ويوم يوارى الشمس ريعان نقه
ويحول قبل الطرف فيه الحمالق
وتمشى نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أوكارهن اللقالق

(٣٢) الديوان ص ٤٥١ .

(٣٣) الديوان ص ٣٦٧ .

(٣٤) الديوان - ص ٣٨٦ .

ويكنى عن شدة القتال بقوله :

ولم يبق يثنى من عنان جواده
أب لابنه والموت للقوم خافق^(٣٥)

وقوله معبرا عن سرعة حركة الخيل :

أغارت على درب الحنائد غارة
يطير الحما من وقعها والجراول^(٣٦)

ويفتخر بعزة قومه فيقول :

ولا يمنعنى ذاك بيت بنىء
أناف على هادى الثريا وأشرفا^(٣٧)

وكقولـه :

وفى على عض الليالى بقية
وان قطعت من راحتى الأنامل^(٣٨)

فالتعبير فى الشطر الثانى كناية عن قلة المساعد والنصير .

ويكنى عن كثرة كيد أعدائه فيقول :

وأصفح عن جهال قومى حمية
وان أسرجوا فى هدم عزى وألجموا^(٣٩)

(٣٥) الديوان — ص ٣٠٠ .

(٣٦) الديوان — ص ٣٤٥ — الجراول : الأرض ذات الحجارة .

(٣٧) ص ٢٨٩ — أناف : اشرف .

(٣٨) ص ٣٤٧ .

(٣٩) ص ٤٤٩ .

وقوله في المدح أيضا :

منيع الحمى لا يذعر القوم سرحه
ولا تتقى غاراته بالمالك^(٤٠)

وقوله :

وتبيت جاراته ولم يرفع لها
كسرا بعلة قائل متضلل^(٤١)

وقوله :

فلا عدم الاسلام أيامه التي
أقامت بدار المشركين التلهفا^(٤٢)

أما (التشبيه) فكثير في شعره ، وحسبنا أن نورد الأمثلة لذلك ،
وسنلاحظ أن معظم تشبيهاته مستمدة من البيئة التي حوله ، فمن ذلك
قوله يصف معركة حربية :

ويوم نحس يوارى الشمس عثيرة
حتى يخال الضحى قد غاله الأصل
كأنما البيض راحت وهي مصلقة
فيه بوارق غيث رعد زجل
والسمر قد جعلت تحكى أسننتها
كواكب القذف والفرسان تتصل

(٤٠) ص ٣١٠ ، والمالك : الرسائل .

(٤١) ص ٤١٥ ، والكسر : جانب الخباء .

(٤٢) ص ٢٨٧ — التلهف : التحسر .

والنبل في الجو يحكى بالمشبهه
الكبريت في رومه النيران تشتعل (٤٣)

ونلاحظ أن هذه التشبيهات أضفت على وصف المعركة شيئاً غير قليل من سرعة الحركة والاضطراب ، فالسيوف في لمعانها كأنها البرق الذي يسبق المطر ، ورؤوس الرماح كأنها كواكب مقذوفة في سرعتها ، وطيран النبل في الجو كأنه الكبريت والنيران مشتعلة في رأسه .

ومن تشبيهاته الجميلة قوله يصف شجاعة ممدوحه :

ولطالما خلى الرؤوس كأنها
للبعد ساخطة على الأجسام (٤٤)

وقوله معبرا عن هيبة الخليفة في صدور أعدائه :

تبيت طواغيت النفاق لهمه
كأن حشاياها ظهور الشياهم (٤٥)

والشياهم هي ذكور القنافذ التي عظم شوكتها ، فهؤلاء المنافقون ، كأن همومهم قد تحولت الى شوك عظيم يجرح أمعاءهم وأحشاءهم ، فما أبلغه من تشبيهه !!

وقد يقوده خياله الى الاتيان بصور تمثيلية طريفة للدلالة على المعنى الذي يريد توصيله للسامعين ، كقوله يصف قوما باللؤم والخسة والبخل :

يرى جوادهم العافى فتحسبه
رأى هزيرا هريت الشدق طيانا

(٤٣) الديوان — ص ٤٤٤ ، العثير : الغبار ، والأصيل : ما بين زوال الشمس الى غروبها .
(٤٤) ص ٥٠١ .
(٤٥) ص ٤٩٥ — الشياهم : العظيم من ذكور القنافذ .

يخال سائلهم من صرر أوجههم
بالمح يعرك أنافا وآذانا^(٤٦)

فهؤلاء القوم بلغوا من البخل مبلغا كبيرا حتى أن جوادهم لو رأى
سائلا آتيا أصابه الرعب كما لو رأى أسدا عظيما بلغ به الجوع كل مبلغ
فاضطرب منه وفزع ، ويخيل لمن يراهم حين يسألهم سائل فينقبضون
ويصرون وجوههم ، ان هذا السائل يعرك أنوفهم وآذانهم بالمح لشدة
وقع السؤال عليهم ، وهذه كما نرى صورة طريفة دلل بها الشاعر على
بخل هؤلاء القوم وشدة لؤمهم .

ومثل آخر فيه تصوير طريف يمثل فيه لأحد المهجوين وشدة لؤمه
وخسته بأن المخازى أصبحت بنات له ، وأنه حينما يموت ستصرخ بناته
حزنا عليه وتوئول لانتصار الحق واندحار الباطل فقال :

متى يمت تصرخ المخازى
يا أبتا واشقا اليتيمة
بعدك حلت بنا أمور
مقعدة للغوى مقيمة
راحت جيوش الضلال فوضى
قد هزمت أسوأ الهزيمة
وأدرك الحق بعد ذل
منا بأثار المنيمة^(٤٧)

ونلاحظ طرافة الصورة من حيث تمثيل المخازى بأنها بنات هذا
اللئيم ، وبالتصاقها به لدرجة أنه لو مات ، لولوات عليه وندبته كما تنذب

(٤٦) الديوان ص ٦٠٤ ، هريت : واسع الشدق ، الطليان : الجائع .

(٤٧) الديوان - ص ٥٠٦ .

البنات أبيها الميت ، وكيف أن الشاعر صور الحق بالذل في حياة هذا الرجل الظالم ، فلما مات ظهر الحق وانمحت المخازى واختفت .

كل هذه المعانى أظهرها الشاعر في صورة طريفة مبتكرة لم نسمع بها من قبل اذ هي هجاء رثائي أو رثاء هجائي .

وعلى العموم جاءت صور ابن مقرب وأخيلته تقليدية في الغالب نهج فيها نهج القدماء ، ففيها السيوف والنصال والأسود ونحو ذلك من مآلوف التشبيهات .

أهمية شعر ابن مقرب التاريخية :

لديوان ابن مقرب أهمية أخرى لا تقل عن أهميته الشعرية ، فان انقارء لهذا الديوان يخرج منه بفكرة شاملة للحياة السياسية بالبحرين في ذلك العهد ، كما يمكن للباحث في شعر ابن مقرب أن يتلمس من خلاله بعض صور الحياة العامة المعاصرة له ، ان شعر ابن مقرب يكاد يكون وحده — بالنسبة لتاريخ الدولة العيونية خاصة وتاريخ الجزء الشرقى من بلاد العرب عامة — هو أحد المصادر المباشرة التي أمدتنا بوصف كامل للصراع على السلطة والحكم في تلك الحقبة من الزمن . وسجل لمعظم الحوادث التي وقعت في ذلك الجزء ، مما نجزم معه أنه لولا شعر ابن مقرب لضاع ذلك التاريخ أو معظمه .

ومن شعر ابن مقرب نستخلص فوائد تاريخية دقيقة أهمها المؤرخون ولم يتطرقوا اليها من قريب أو بعيد مثل وصفه لمعارك الأمراء العيونيين ، ووصف غارات البدو على مدن البحرين ، وحديثه عن الاصلاحات التي أحدثها الأمير باتكين في البصرة في ذلك الوقت كقوله :

بنى بالبصرة الفيحاء سورا

يضاهي السد سبكا وانعقادا

وأبيده يمثل اللهب تأبى
على الأيام صفته انهدادا
وزينها بأسواق أرنا
بها كل البلاد لها سوادا (٤٨)

ومن ذلك أيضا ذكره لقبيلة (هتيم) في معرض الضعة والتحقير ،
والكتب القديمة التي بين أيدينا لا تمدنا بما نحتاج إليه من معلومات
كافية عن هذه القبيلة ، بل لا تذكر حتى اسمها ، ولكن ابن مقرب
وابن المشد من شعراء القرن السابع ذكراها .

يقول ابن مقرب :

وكيف مقامى بين أوباش قبرة
أرى الرأس منها من بها كان أسفلا
بنى عم من أمسى كثيرا سوامه
ولو كان أدنى من (هتيم) وأردلا (٤٩)

وعرض ببعض عاداتها الذميمة في مكان آخر فقال :

فان (هتيما) لو حوت مال طيىء
(هتيم) فلا يغرك طيف خيال
سترجع فيما عودت من حميرها
وتحريق « اشنان » وخصف نعال (٥٠)

ولا تزال بعض أحياء هتيم معروفة عند قبائل العرب بالخمول
وسوء القدر وضعة الحال وبالتهقر الاجتماعى والمعيشى ، وتبرز لنا

(٤٨) الديوان — ص ١٨٨ ، السد : المراد به سد يأجوج ومأجوج
الذى بناه ذو القرنين . وصفته : حجارته المصفوفة .
(٤٩) الديوان — ص ٣٦٤ ، والسوام : الإبل والمقصود هنا المال .
(٥٠) المصدر السابق ص ٣٧٥ ، والاشنان : نوع من الشجر .

هذه الأهمية التاريخية لشعر ابن مقرب حينما نرى أحد الباحثين المعاصرين يستعين بشعر ابن مقرب حينما يتحدث عن قبيلة (هتيم) فيقول :^(٥١) (ولا نجد فيما بين أيدينا من الكتب ذكرا يوضح لنا ما نحتاج توضيحه عن هذه القبيلة) ويقول : كما نجد في شعر ابن مقرب المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ٠٠٠ ثم يورد البيتين السابقين لابن مقرب •

ومن ناحية أخرى نعرف من خلال شعر ابن مقرب بعض أنواع اللبس والأكل المستحبة وغير المستحبة في زمنه فيقول :

ومن (مروذى) بالقطيف و (لالس)
(عباء) بوادى طىء و (نطوعها)
ومن لحم (صاف) فى أوال و (كتعد)
(ضباب) و (جرذان) كثير خدوعها^(٥٢)

واحتفظ لنا شعر ابن مقرب ببعض المسميات السائدة فى زمنه لبعض المواقع ، وان ذكره لأسماء كثير من الأمكنة والمواقع فى زمانه لما يساعد على تحقيق المواقع الجغرافية ومعرفة مدى التقدم العمرانى ، وخاصة ما كان فى البحرين وساحل الخليج العربى •

فمن ذلك قوله يصف غارات البدو على الاحساء وما ألحقوه بها من أضرار ونكبات :

أخذوا (الحساء) من (الكتيب) الى (محا)
ديث العيون) الى نقا (حلوان)

(٥١) مجلة العرب — دار اليمامة بالرياض ربيع الأول — ص ٨٦١ •

(٥٢) الديوان — ص ٢٥٥ — مروذى : ثوب منسوب الى (مرو) وهى بلدة بفارس ، واللالى : جنس ناعم من الثياب ، والنطع : ثوب يصنع من النجلد ، الصافى والكتعد : صنفان من السمك الجيد فى الخليج العربى ، خدع الضب فى حجره — دخله •

و (الخط) من (صفواء) جازوها فما
أبقوا بها شبرا الى (الظهران)

والبحر فاستولوا على ما فيه من
صيد الى در الى مرجان

وأَمْضُ شَيْءٌ لِلْقُلُوبِ فَضَائِعُ
« بالمرزوان » لهم و « كرزكان »^(٥٣)

وقال في معرض افتخاره بالأمر فضل بن عبد الله بن علي :

منا الذي حاز من (ثاج) الى (قطر)
وصير (الرمل) من مال العدو حمى^(٥٤)

وقال :

يا ساكني « الخط والجوعاء » من « هجر »
هل انتظاركم شيئا سوى العطب ؟^(٥٥)

وورد في شعره ذكر بعض عيون الاحصاء ، ومن ذلك عين
(الجوهريّة) المعروفة فقال :

فخير لعمرى من بساتين (مرغم)
على ذى المجارى طلح « نجد » وشوعها
ومن ماء نهر « الجوهريّة » لو صفا
ذبابنة حسى لا يرجى نبوعها^(٥٦)

(٥٣) المصدر السابق ص ٦٣٨ ما بين الأقواس كلها أسماء مواضع
بالبحرين .

(٥٤) الديوان — ص ٥٤١ — ما بين الأقواس أسماء مواضع .

(٥٥) ص ٧٥ ، العطب : التلف .

(٥٦) ص ٢٥٤ ، الذبابنة : بقية الشيء ، والحسى : سهل من الأرض ،
يستقنع فيه الماء .

ومن أسماء الأمكنة والمواضع الواردة في شعره في غير الخليج
العربي :

هنا الذي صحب المجتاز من « حاب »
الى العراق ، الى نجد الى « أدما » (٥٧)

وقال بفخر بعشيرته :

أطاعت لهم ما بين « مصر » الى « القنا »
الى حيث تلقى دارها « الشحر » و « النقب » (٥٨)

وقال :

ولو نام سيف « بالحصيب » ولم يلج
على الهول لم يدع المليك المجدا
ولم ينشع الاحبوش كأسا مريرة
ويجمع في « غمدان » شملا مبددا (٥٩)

وقال في أحد مطالعه :

ألا رحلت نعم وأقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان (٦٠)

(٥٧) ص ٥٤٨ — أدم : موضع في عمان .

(٥٨) ص ٢٩ — القنا : موضع باليمن ، الشحر : ساحل بين عمان
وعدن ، والنقب : بلدة باليمامة .

(٥٩) ص ١٥٣ — وسيف : هو سيف ابن ذى يزن ، والحصيب موضع
باليمن ، ينشع : ينزع ، الاحبوش : الاحباش وغمدان : قصر بصنعاء .

(٦٠) الديوان — ص ٥٨٥ ، نعمان : اودية قرب الكوفة .

وقال :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك^(٦١)

وقال :

ملك تحمل ما لا يستطيع له
حملا « ثبير » و « ثهلان » فيحتمل^(٦٢)

وقال في العتاب :

فخبر من الاحساء ان دام عتبكم
« أشىء ووادى » ملهم « ونعام »^(٦٣)

وقال فى المدح :

يهز حساما صارما لو رمى به
شماريخ « رضوى » لا نزوى عن هضابه^(٦٤)

مأخذ على شعره :

مع ما قلناه عن شعر ابن مقرب وما فيه من جودة اللغة ومثانة
الأسلوب وجزالة الألفاظ فانه مع هذا قد تعتوره بعض الهنات ولكنها
هنات هينات ، فهى لا تضره ولا تنال من شاعريته علاوة على كونها
قليلة ومعدودة ، وكفى بالمرء نبلا أن تعد معاييه كما قيل •

(٦١) ص ٣٠٥ — والدكادك : الخليج من الأرض •

(٦٢) ص ٤٤٣ — وThelan وثبير : اسم جبلين •

(٦٣) ص ٤٨٠ — ما بين الاتواس اسماء مواضع باليهامة •

(٦٤) ص ١٠٢ — شماريخ الجبل : أعلاه ، ورضوى : جبل بين

المدينة وينبع •

على أن أمثال هذه المبالغات يمكن حفظها على القاعدة النقدية
المعروفة عند العرب وهي : أجود الشعر أكذبه .

وكالاقواء في قوله :

أنسخ فهذى قباب العز والكرم
وقل فكل العلا في هذه الخيم^(٦٩)

فحرف الروى كما نرى جاء بالكسر ، ولكن الشاعر ما لبث أن
تحول عن الكسر الى الضم وذلك فى البيت الرابع والأبيات الثلاثة التى
تليه فقال :

هم الملوك وسادات الملوك همم
وما ربى الملك الا فى بيوتهم
وقد نزلت بأسراهم وأنبلهم
على سراواتهم فينا ونبلهم
فانظر بعينك هذا فهو سيدهم
طرا وسيد عدنان وغيرهم
هذا الهمام عماد الدين أكرم من
يدعى ويرجى وخير الناس كلهم^(٧٠)

ثم عاد الى الروى المكسور واستمر عليه حتى البيت الخامس
والخمين حيث جاء الروى فيه مضموما ، وبعده عاد مرة أخرى الى
الروى فاستمر عليه حتى نهاية القصيدة .

ومهما يكن من شىء فان هذه المؤاخذات لا تؤثر شيئا فى شعر
ابن مقرب ، وقل أن يخاو شاعر من مأخذ تؤخذ عليه .

(٦٩) ص ٥٥٤ — قل وقت القيلولة .

(٧٠) الديوان — ص ٥٥٥ — ربى الملك : زاد وعلا .

آراء النقاد في شعره :

لابن مقرب كشاعر منزلة رفيعة في فننرس الأدباء والنقاد قدامى ومحدثين ، فمن النقاد القدامى :

(أ) (ابن مأكولا) : الذى وصف ابن مقرب بأنه شاعر محسن^(٧١) .

(ب) كما وصفه بعض المتقدمين بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره ، حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمه كثير الأمثال فى نظمه)^(٧٢) .

(ج) وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شاعرا مجيدا مليح الشعر)^(٧٣) .

(د) وقال عنه ابن الفوطى : (كان شاعرا مسترفدا جزل الألفاظ)^(٧٤) .

(هـ) وقال عنه ابن الشعار الموصلى : (كان شاعرا مجددا منتجعا ، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهر فى عصرنا المعروفين) .

أقر له ان حذف أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ ، وابداع المعانى^(٧٥) .

(٧١) الاكمال — لابن مأكولا .

(٧٢) نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية — رقم ٦٣٧ تاريخ .

(٧٣) التكملة لوفيات النقلة — عند سرد وفيات ٦٢٩ هـ .

(٧٤) تلخيص مجمع الآداب — لابن الفوطى .

(٧٥) قلائد الجمان فى شعراء الزمان — لابن الشعار الموصلى .

(و) أما ياقوت الحموى : فقد أورد في ترجمته لابن مقرب شيئاً من شعره ثم قال :

وليسست بالطايل عندي (٧٦) .

ومع احترامنا لياقوت كجغرافي الا أننا نختلف معه في رأيه الأدبي في شعر ابن مقرب ، فان كل من قرأه شهد له بالتفوق والسبق وبالحسن والجودة ، وعلى كل حال فكل انسان له رأيه ، وان كان ياقوت لم يعلل لرأيه الذى قال به .

أما النقاد المحدثين فقد أجمعوا على جودة شعره ووضعه في منزلته الصحيحة .

١ — فمنهم د. محمد جابر الانصارى : الذى وصف ابن مقرب بأنه ظاهرة فريدة في عصره ، ووصف شعره بالحيوية والصراحة والقوة (٧٧) .

٢ — أما الأديب المحقق عبد الفتاح الحلوف فقد وصف ابن مقرب بالنبوغ وبأنه شاعر ذائع الصيت في الجزيرة العربية (٧٨) .

٣ — وقال عنه الباحث عمران العمران : ان ابن مقرب كان بعثاً للشعر ويقظة للأدب وحيوية للغة ، وان انتاجه الجيد يرفعه الى مصاف كثير من أعيان الشعر العربى وفحولته (٧٩) .

٤ — أما الأديب « مقبل العيسى » : فيصف انتاج ابن المقرب الشعرى بالوفرة وبأنه بلغ المستوى الرفيع من الجودة التى تؤهله لأن يكون مشهوراً منذ زمن بعيد (٨٠) .

(٧٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان — ج٦ ، ص ٢٥٩ .

(٧٧) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ٣١ .

(٧٨) عبد الفتاح محمد الحلوف — ديوان ابن المقرب — طبعة الاحساء

ص ٣ .

(٧٩) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ٦ .

(٨٠) مجلة البيان الكويتية — العدد ٣٧ — ابريل ١٩٦٩ .

٥ — ويقول الباحث الأديب « درويش المقدادي » : انه على الرغم من عدم شهرة ابن المقرب الا أنه من أعظم شعراء الخليج العربي، وهو يشابه المتنبي في الروح الشعرية ، وخصوصا في الفخر والحماس والمطالبة بالحق^(٨١) .

٦ — أما الأديب المؤرخ « محمد سعيد المسام » فيقول : ان ابن مقرب نظم الشعر في سن مبكرة ، وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، وبعد أن يقارن الباحث بين سيرة ابن مقرب وسيرة المتنبي ، يصف شعر ابن المقرب بأنه ثروة أدبية^(٨٢) .

ويكفينا هذا القدر من آراء النقاد والأدباء قدامى ومحدثين لظهار مكانة ابن المقرب ، ومنزلته الشعرية في النفوس ، مما جعل الناس يرددون أشعاره ويتداولونها بينهم على الرغم من مرور فترة طويلة من من عمر الزمن على وفاة الشاعر ، وليس تعدد طبعات ديوانه الا الدليل الأكبر على ذلك .

(٨١) مجلة العربي — الكويت ، عدد ابريل ١٩٦٠ .

(٨٢) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود — ص ٢٧٦ —
طبعة بيروت .

الفصل السادس

« بين المتنبي والعيوني »

بادئ ذي بدء أود أن أبين السبب الذي دفعنى الى عقد هذا الفصل وموازنة المتنبي بالعيونى ، ذلك أنى رأيت كثيراً ممن كتبوا عن ابن مقرب شبهوا شعره بشعر المتنبي وقارنوا سيرة حياته بحياة هذا الشاعر العظيم .

فمنهم مثلاً د. محمد جابر الأنصارى ، الذى يقول عنه : « وتراه فى معظم أشعاره قوى العاطفة ، متوقد الفكر ، جزل الأسلوب ، ينتمى الى الطبقة الوسطى من شعراء العربية ، فكأنه أبو الطيب المتنبي فى شورته وصراحته وفى نفسه الشعرى المتين »^(١) ويقول الباحث مقبل العيسى : « ان ابن مقرب لم ينل حظاً من الشهرة مثل غيره من الشعراء الذين عاصروه فى الأقطار العربية الأخرى ، أو الذين عاشوا بعده ، بالرغم من وفرة انتاجه الشعرى وبلوغه المستوى الرفيع من الجودة والأصالة ، فمن يقرأ ديوانه يتذكر بعض الشعراء الذين ملأوا سمع الدنيا دويماً كأبى الطيب المتنبي .. »^(٢) .

وقال عمران العمران : « ان لابن مقرب ولا غرو بعض قصائد ومقطعات لا تقل فى أهميتها وفى قيمتها الفنية والموضوعية عن بعض قصائد أبى الطيب المتنبي .. »^(٣) .

أما عن سيرة حياة الشاعرين وتشابههما الى حد ما فقال الباحث درويش المقدادى : « وهو — أى ابن مقرب — يشبه المتنبي من هذه الناحية ، المتنبي حاول بشعره وأسفاره واتصاله بأمرء مصر والشام

(١) محمد جابر الأنصارى — لمحات من الخليج العربى ص ٣٣ .

(٢) مقبل العيسى — مجلة البيان — عدد ٣٧ ، أبريل ١٩٦٩ — الكويت .

(٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ، ص ٧ .

أن يكون ذا ولاية ومك فلم يفلح ، كذلك فعل ابن المقرب بالخليج العربى والعراق فلم يحقق أمنيته »^(٤) وكتب الأديب محمد سعيد المسلم مقارنا سيرة حياة الشاعرين ببعضهما قائلا : « وسيرة الشاعر ابن المقرب تشابه الى حد كبير سيرة أبى الطيب المتنبى : كلاهما طموح للملك ، حاول ابن المقرب الوصول الى الملك فى وطنه فأبعده أقاربه ، فسجن وصودرت أملاكه ، كما حاول المتنبى التوصل الى الملك بادعائه النبوة فوشى به وسجن ، ولما أطلق سراحه حاول الوصول الى غايته عن طريق الشعر ، فوفد على سيف الدولة الحمدانى فمدحه دون طائل ، فجافاه ، وقض كافور الأخشيدي ملك مصر ، وعقد عليه الأمل فى تحقيق آماله فلما فشلت هجاء ، كذلك كان ابن المقرب حين أطلق سراحه حاول الوصول الى غايته عن طريق الشعر ، فطاف بأنحاء البلاد ، ومدح أمراءها ، كما حاول الاتصال بالملك الأشرف ، وانتهى به المطاف الى أمير الموصل الذى كان مملوكا أرمنيا فمدحه ، فلما لم ينل منه مبتغاه عمد الى هجائه »^(٥).

وكما نلاحظ فانما ذكره هؤلاء الأدباء والنقاد انما هو اشارات خاطفة عابرة ونظرات بسيطة لم يتعمقوا فيها ولا تشبع نهم الدارس . لذلك اتخذتها مفتاحا للتفصيل فى الموازنة بقدر الامكان ، ورأيت أن الواجب العلمى يحتم على عقد مقارنة فيها شئ من التوسع بين الشاعرين لبيان أوجه الشبه بين سيرة حياتهما وموازنة بعض ما اشتهروا به من أغراض شعرية علنى بذلك أخرج بجديد يفيد الدرس الأدبى .

ولقد أعلم أن هذه الموازنة بين المتنبى والعيونى — لكى تكون أصيلة قديمة — ينبغى على الأقل أن تقوم على دراسة مفصلة لشعر المتنبى والبيئة التى عاش فيها ، ومعنى ذلك أن أنهض بأعباء دراسة أخرى لشاعر آخر توازى دراستى لابن مقرب لأستطيع أن أعقد هذه

(٤) درويش المقدادى — مجلة العربى ، عدد ابريل ١٩٦٠ الكويت .

(٥) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود ، ص ٢٧٦ .

الموازنة على أساس من الدرس الشخصى الذى أنهض به ، والواقع أن ذلك عسير ، لأنه من جهة يستنفد الكثير من الوقت ، ومن جهة أخرى فإن طبيعة الموازنة التى ساعدها هنا تقوم على الإيجاز والاختصار وليس على الاستطراد والتطويل ، ثم إن التعاون بين الدارسين والباحثين من جهة ثالثة يعفينا من المبالغة وعناء الدراسة ، إذ الواقع أن الباحث يمكنه بل يجب عليه إلى حد ما أن يعتمد على النتائج العلمية المقررة التى انتهى إليها غيره من المختصين فيما يتصل بموضوعه ثم يضع بجانبها أو يربط بها ما انتهى هو إليه من بحثه الخاص ، وهنا تبدو النتائج العلمية متكاملة منسقة ، وعلى هذا الأساس أتقدم للموازنة بين المتنبي والعيونى ، فما أكثر الدراسات والأبحاث التى كتبت عن المتنبي ، فهو الشاعر الذى يوصف بأنه قتل بحثا ، وهذه الدراسات والأبحاث الكثيرة لها نتائج ومقررات يمكننا أن نطمئن ونرتاح إليها •

أولا : حياة الشاعرين

أبو الطيب المتنبي : (٦)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي ، ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة في محلة تسمى كنده فنسب اليها ، ويقال ان والده كان سقاء بالكوفة ، وأنه رحل بابنه الى الشام فشب فيها مولعا بفنون اللغة ، حريصا على طلبها ، ساعيا الى أهلها في البادية والخصر حتى نال منها أوفر نصيب وينسب لأبي الطيب أنه ادعى النبوة في بادية « السماوة » ، فأغوى كثير من قبيلة « بنى كلب » وغيرهم ، حتى خرج اليه لؤلؤ أمير « حمص » من قبل الأخشيديين ، فأسروه ، وفرق أصحابه ، وحبسه طويلا حتى تاب فأطلقه ، وفي سنة ٣٣٧ هـ ، اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، وظل يمدحه سنوات بأبدع الشعر وأروع ، فيكافئه بأعظم العطايا والمنح ، حتى وقعت بينهما جفوة قضت على الشاعر أن يفارقه انى دمشق ، والرملة فمصر ، وقد دخلها سنة ٣٤٦ هـ ، واتصل بواليتها كافور ، ومدحه طمعا في أن يوليه إحدى الامارات ، ولكن كافورا خيب ظنه حين رأى طموحه وسعة آماله ، فحنق عليه المتنبي وهجاه أشنع الهجاء ، وفر غاضبا سنة ٣٥٠ هـ الى بغداد مقر الخليفة العباسي ، فلم تطل بها اقامته اذ تمالأ عليه حساده ومنافسوه من الشعراء والأدباء ، وائتمروا به ، فتظاهر أول الأمر باحتقارهم وعدم المبالاة بهم ، ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغداد ، وقصد الكوفة ثم « أرجان » حيث ابن العميد الأديب العالم المشهور وزير ركن الدولة ، فأقام عنده فترة كانت من أطيب فترات حياته ، ولقى من عطفه ورعايته ما أنساه كثيرا من متاعبه ، ثم غادرها الى « شيراز » قاصدا أميرها الديلمي « عضد الدولة بن بويه » فأعذق عليه وأرضاه بالعطايا الكثيرة ، ثم اثنى الى بلاده فاستأذنه في العودة فأذن له ، فاتجه الى بغداد ثم

انكوفة ، وفي طريقه اليها قابله رجل يقال له « فانك الأمدى » في جماعة من أصحابه (وكان المتنبي هجا أخته أقذع هجاء وأفحشه ، فحقد عليه فانك وأسرتة وأضمر له الشر حتى حانت هذه الفرصة ، فخرج عليه وقتله وقتل ابنه محسد وغلامه مفلح وأخذ جميع ما معه وفرق أصحابه ، وكان ذلك في رمضان سنة ٣٥٤ هـ ، بالقرب من موضع يقال له « الصافيه » بالجانب الغربى من بغداد عند « دير العاقول ») •

وبمقارنة سيرة المتنبي بسيرة ابن المقرب^(٧) يتضح لنا أوجه الشبه بينهما فيما يلى :

(أ) كلا الرجلين صاحب طموح وهمة عالية واعتداد بالنفس وتبعا لذلك فان كلا منهما حاول الوصول الى الملك والامارة ، فلما لم يفلحا حاولا الوصول الى غايتهم عن طريق الشعر •

(ب) مدح المتنبي كافورا عله يصل الى مبتغاه ، لكنه فشل فهجاه هجاء مقذعا ومدح ابن مقرب ، أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فلما لم ينل منه ما يريد هجاه أيضا •

(ج) كلاهما عاش حياة غير مستقرة ، وأكثرنا من التنقل من مكان الى مكان بغرض مدح الملوك والأمراء ، وكانت حياتهما أشبه بسلسلة من الرحلات التى لا تنقطع •

(د) كلاهما نغم على الحياة وعلى الناس وصرحا بذلك فى شعرهما • قال المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتى بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

(٧) راجع حياة الشاعر ص ٣٣ من هذا البحث .

فليس بمرحوم اذا ظفروا به
ولا في الردى الجارى عليهم بآثم^(٨)

وقال ابن مقرب :

واعص الذليل اذا أثار ولا تثق
في الكائنات بكل من تستصحب
واعلم بأن الناس قد جربتهم
فاذا صحيح الود منهم عقرب^(٩)

(٨) ديوان المتنبي ص ٢١٠ ، طبعة صادر بيروت .

(٩) ديوان ابن المقرب ص ٩٠ .

ثانيا : الناحية الشعرية

أما ناحية الشعر فسأحاول أن أكشف عن وجوه الشبه بينهما في الأغراض الشعرية والنواحي الفنية التي تقرب بينهما وترتبط بين اتجاهيهما في هذا المجال .

١ — الحكمة :

وصف القدماء المتنبئ بأنه حكيم ، إذ لا تكاد تخلو قصيدة له من حكمة ومثل ، بل حكم وأمثال ، وهذه الحكمة في معظمها توحى بالقوة بل وتطالب بها ، وبالعرف والعفة في ادراك الغايات واسترجاع الحقوق ، ودفع المظالم ، ولا ترى في هذا السبيل ملأينة ومسألة ، ولا تجنح الى مهادنة وصفح ، كل ذلك مصوغا في قالب رصين ، متين الأداء ، قوى انسبك ، مما أدى الى شيوع هذه الحكمة وتداولها على الألسنة في كل مكان وزمان .

يقول المتنبئ :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيبظ
وأشقى لغل صدر الحقود

لا كما قد حييت غير حميد
وإذا مت مت غير فقيد

فاطلب العز في لظى وذر الذل
ولو كان في جنان الخلود^(١٠)

(١٠) ديوانه - طبعة صادر ص ٢١ . البنود : الأعلام ، الغل : الحقد ، لظى : جهنم .

٢ - ومن قصيدة له في المدح يقول :

لا افتخار الا لمن لا ينام
مدرك ، أو محارب لا ينام
لبس عزما ما مرض المرء فيه
لبس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه
غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغلط الذليل بعيش
رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجيء اليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام^(١١)

٣ - ومن قصيدة له في الهجاء نرى له الحكم التالية :

ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
بقعا ، يميت ، ولا سوادا يعصم
والهم يخترم الجسيم نحافة
ويشيب ناصية الصبي ويهرم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

(١١) ص ١٦٤ ، مرض بمعنى تعد ، الهم : حديث النفس ، تضوى ، تهزل .

والنفس قد نبذوا الحفاظ فمطلق
ينسى الذى يولى وعاف يندم
لا يخذعنك من عدو دمعته
وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه
من لا يقل ، كما يقل ويلؤم
والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم^(١٢)

٤ — ومن قصيدة فى المدح يقول :
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم
فتسقى ، إذا لم يسق من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها
وبالناس ، روى رمح غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به
ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم^(١٣)

(١٢) ديوانه — ص ٥٧٠ ، البقق : البياض ، ويقصد به بياض الشعر ،
يخترم : يهلك ، نبذوا : طرخوا ، الحفاظ : المحافظة على الحقوق ، العافى :
من العفو . القليل : الخسيس .

٥ - ومن قصيدة في مدح سيف الدولة جاءت فيها حكم كثيرة متفرقة :

ومن صاحب الدنيا طويلا تقلبت
على عينه حتى يرى صدقها كذبا
ومن تكن الأسد الضواري جودده
يكن ليله صبحا ، ومطعمه غصبا
ولست أبالى بعد ادراكى العلا
أكان تراثا ما تناولت أم كسبا
أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه
حريصا عليها مستهما بها صبا
فحب الجبان النفسى أوردته التقى
وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد
الى أن يرى احسان هذا لذا ذنبا^(١٤)
ومن حكمه الأخرى :

كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول ، وباقي عمره مثل ذاهب
إذا لم تكن نفس النسيب كأصله
فما الذى يغنى كرام المناصب^(١٥)

(١٤) ديوانه ص ٣٢٥ .

(١٥) ص ٢٢٦ النسيب : الشريف ، المناصب : الأصول .

وقوله :

وكل امرئ يولى الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب^(١٦)

ابن المقرب :

عاش ابن مقرب حياة صعبة مريرة حافلة بالتجارب والمواقف
العسيرة أكتسبته كثير من التجارب والحكمة ، لذا فقد انثالت أبيات
الحكمة على لسانه سلسلة فياضة معبرة عن خلاصة تجارب صاحبها في
الحياة وفي معاملة الناس ، وهى من الناحية الفنية قوية الصياغة جيدة
السبك .

ولنسمع له وهو يقول :

من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالأذى سلما
لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
إذا رأى الشر يغلى قدره وجما
وذو النباهة لا يرضى بمنقصه
لو لم يجد غير أطراف القنا عصما
وذو الدناءة لو مزقت جلده
بشفرة الضيم لم يحس لها ألما
ومن رأى الضيم عارا لم تمر به
شرارة منه الا خالها أظما
وكل مجد اذا لم يبن محتده
بالبأس نقرة الأعداء فانهدما

لا يضبط الأمر من في عوده خور
ليس البغاث يساوى أجـدلا قطما^(١٧)

٢ — وهذا ما عرفه ابن مقرب بعد مخالطة الناس :
ولقد حابت الدهر أشـطر نابه
وعرفت ما يـدى وما يتغيب
فاذا مودة كل من أصفـيته
ودى لـدى الحاجات برق خلب^(١٨)
٣ — وقولـه :

لا تركنن الى العدو ولا تطـع
آراء من فى جبل غـيرك يحطب
واعص الذليل اذا أشـار ولا تشق
فى الكائنات بكل من تستصحب
واعلم بأن الناس قد جربتهم
فاذا صحـيح الود منهم عـرب^(١٩)
٤ — وعن رأيه فى أهمية المال للانسان يقول :

ألسـت ترى أن المقل بمجـه
أخو الرحم القربى وتبدو معايبه
اذا المرء لم يملك من المال ثروة
رمتـه عـداه واجتوتـه أقاربـه
ومن يجعل العجز المطية لم يزل
يمر عليه الدهر والفقر صاحبه
فقم واركب الأهوال جدا فطالما
أفاد الغنى بالمركب الصعب راكبه^(٢٠)

(١٧) ص ٥٢٧ وسبق شرح الكلمات فى ص ١٨٧ .
(١٨ ، ١٩ ، ٢٠) انظر شرح الأبيات ص ١٩١ من هذا البحث .

٥ — وأخيرا فان ابن مقرب يلخص لنا رأيه فى كثير من مفاهيم الحياة حسب تجربته :

العز ما خضعت لهيئته العدا
وأقام بالفكر الملوک وأقعدا
والمال مسا وقناک ذما أو بنى
علياک أو أبقى لقومک —ووددا
والجود ما بلت به رحم ومما
أوليت ذا أمل أعدک مقصدا
واللؤم اکرام اللئيم لأنه
كالذئب لم ير عدوة الا عدا
والعزم ما ترك الحديد مفلا
والخیل حسرى والوشیح مقصدا
والنبیل فتکک بالمعادى غادرا
أو واقیا مستجدا أو منجدا^(٢١)

وبالنظر الى غرض الحکمة عند الشاعرين يتضح لنا ما یلى :

- کلاهما يؤمن بطریق القوة والسیف ، وترك اللین والمسالمة .
- أن حياة العز هى النحیة ، وما عداها فهو الموت والذل .
- أن المجد لا یحفظ الا بالسیف والا تداعى وانهار .

— ومع أنهما یشترکان فى ترديد هذه المعانى دائما ، الا أن الأسبقیة فى ذلك للمتنبى دون شک وما توالى حکم ابن مقرب الا ترديد لمعانى

للمتنبى فى كثير منها ، حتى أنه يبدو تأثر ابن مقرب بالمتنبى فى كثير من معانيه الحكيمية ، فقلوه :

وذو الدناءة لو مزقت جلده
بشفرة الضيم لم يحس لها ألما
يشبه قول المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام
وقوله :

وكل مجد اذا لم يبن محته
بالباس نقره الأعداء فانهدما
يشبه قول المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم
وغير ذلك •

— وأخيرا فلا شك — كما لاحظنا — أن الروح الشعرية أقوى عند المتنبى ، وبيتدى ذلك فى قوة سبكه واحكام صياغته •

٢ — الفخر بالنفس :

أكثر كل من الشعاعين من الافتخار بنفسه ، وبقوة شاعريته ، فى أسلوب رصين قوى ، ولعل نصيب المتنبى من الفخر الذاتى أوفر نصيب بين شعراء العربية ، وامتاز فخره بأنه وجدانى رصين ، ونمت كلماته فى هذا الجانب عن ثورة داخلية عميقة ، وشعور نفسى قوى صادق ، وجاء تصوير هذا الشعور قويا صادقا كذلك :

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

الخيـل والليل والبيـداء تعرفنـي
والضرب ، والطعن ، والقرطاس ، والقلم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا ، وذان الشيب والهـرم^(٢٢)

٢ — ويقول :

ردى حياض الردى يا نفس واتركي
حياض خوف الردى للشاء والنعم
ان لم أدرك على الأرمـاح سائلة
فلا دعيت ابن أم المجد والكرم
أيملك الملك — والأسياف ظالمئة
والطير جائعة — لحم على وضم
من لو رآنى ماء مات من ظمأ
ولو مثلت له في النوم لم ينم^(٢٣)

٣ — ويقول :

أى محـل أرتقى
أى عظيم أنقى

(٢٢) ص ٣٣٢ — الكرم : أى وكرمكم يكره ذلك .

(٢٣) ص ٣٨ ، روى : أمر من الورود ، الردى : الهلاك . الحياض : جمع حوض وهو مجمع المياه . والوضم : خشبة يقطع الجزار عليها اللحم .

وكل ما خلق الله
ومما لم يخلق
محتقِر في همتي
كشجرة في مفرقي^(٢٤)

٤ - وقوله :

ما مقامى بأرض نخلة الا
كمقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولك
ن قميصى ممرودة من حديد^(٢٥)
ومنها :

لا بتردى شرفت ، بل شرغوا بى
وبنفسى فخرت ، لا بجودوى
وبهم فخر كل من نطق الضاد
وعوذ الجانى ، وغوث الطريد
ان أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تهرب الندى ورب القوافى
وسمام العدى وغيظ الحسود

(٢٤) ص ٤٠ .

(٢٥) ص ٢٠ ، وأرض نخلة : قرية عند بعلبك ، الصهوة : مقعد
الفرس من الفرس ، المرودة : المنسوجة .

٥ — ويقول مخاطبا سيف الدولة :

وما أنا الا سمهرى حملته
فزين معروضا ، وراع مسددا
وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا
أجزنى اذا أنشدت شعرا فائما
بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فائننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى (٢٦)

وقوله :

أط عنك تشبيهى بما ، وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى (٢٧)

٦ — وقوله :

فلما أنخنا ركزنا الرماح
فوق مكارمنا ، والعللا
وثبنا نقبل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدا

(٢٦) السمهرى : الرمح الصلب ، المعروض : المحمول بالعرض ،
المسدد : الوجه للطعن ، المشبر ، المجد .
(٢٧) ص ١٤ — أط : أزل .

لتعلم مصر ، ومن بالعراق
ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفييت وأنى أبييت
وأنى عتوت على من عتا (٢٨)

ابن المقرب :

شغل افتخاره بنفسه حيزا كبيرا من فخره عموما ، وامتاز هذا
الفخر بالكثره والقوة ، وتطرق فيه الشاعر الى كثير من معان الشجاعة
والكرم والسمو للعلا والهمة العالية ، وكذلك الفخر بقوة الشاعرية
وذيوع الصيت .

ومن أمثلة فخره بنفسه قوله :

١ — على م وفي م ظالما تلحياني
ذراني لا أبالكما ذراني
وحسبكما فما سمعي بمصغ
ولا واع لما تتحدثان
فلى همم اذا جاشت أرتنى
قرى عمان ميلا من عمان
اذا سولمتما فنتنا سياني
وان أسولمتما فتذكراني
فمئلى من يقيم صغى الأعادى
ويستعدى على نوب الزمان

(٢٨) ص ٥١١ ، انخنا : نزلنا ، العواصم : اسم بلاد ، الفتى : الحر
الكريم ، ابت : امتنعت ، عتوت : تجبرت .

وما ذكر المنية عند أمر
أحاوله بشأن من عمان (٢٩)

٢ — وقولنه :

أتدري الليالى أى خصم تشاغيه
وأى همام بالرزايا توابيه
تجاهل هذا الدهر بى فتكتبت
على بأنواع البلايا كتائبه
وظن محالا أن أدين لحكمه
لتبك على عقل المعنى نواديه
وانى وان أبدى اصعرا بخده
وأوجف بى وازرر للبغض جانبه
لأغضى على بغضائه وازوراره
وأعجب من حر كريم يعاتبه
وأستقبل الخطب الجليل بشاقب
من العزم يعطو لاهب النار لاهبه (٣٠)
ورأى متى جودته وانتضيتيه
وجدت حساما لم تقلل مضاربه
ولست بيهفوف يرى رأى عرسه
متى أركبته مركبا فهو راكبه
يظل اذا ما نابيه الأمر محجرا
يخاطبها فى شأنه وتخاطبه

(٢٩) انظر شرح الأبيات ص ١٥٤ .

(٣٠) انظر شرح الأبيات ص ١٥٣ ، من هذا البحث .

٣ - ويقول :

فلا يتوهم السفهاء أنى
أحن الى غوان أو مغان

ولا أنسى أرى والموت حتم
بمعين جلالة من لا يرانى

عظيم الناس فى عينى حقير
إذا بالمقالة الخوصا رآنى

محال أن أوصل من جفانى
وأسمح بالوداد لمن قلانى^(٣١)

ومنها :

ولست إذا تشاجرت العوالى
بغمر فى اللقاء ولا جبان

واكتفى حديا كل يوم
تلاقى عنده حلق البطان

٤ - وقال فى مجال افتخاره بشعره :

ودونك من تيار بحر إذا طمى
أراك بحار الأرض جمعا صلاصلا

وأنفذتها فى حكمة وبلاغة
كمت حلة من بعد عهدك عاقلا^(٣٢)

(٣١) الأبيات مذكورة أيضا ص ١٥٥ من هذا البحث .

(٣٢) انظر شرح الكلمات ص ١٦١ ، من هذا البحث .

وبالنظر الى هذا الغرض عند الشعارين يتضح لنا ما يلي :

— كلاهما أكثر من الافتخار بنفسه وبشعره والأمثلة على ذلك كثيرة .

— اشترك الشاعران في معظم معان الفخر كالشجاعة والاقدام وعلو الهمة والأنفة من الذل ، واطهار قوة الشاعرية .

— وعلى الرغم من أن ابن مقرب افتخر بنفسه بقوة وبراعة . وأتى في ذلك بمعان كثيرة ، الا أن المتنبي فاقه في هذا الجانب من حيث التفرد بالمعاني والصور الفذة ، ومن حيث صياغة هذه المعاني بالحقام وأسلوب قوى رصين أخفى عليها كثير من الفخامة والروعة .

٢ — وصف المارك :

يتجلى المتنبي في وصف المارك شاعرا قويا في عباراته ومعانيه وأخيلته ، وبدائع افنتانه ، لا يكاد يسبقه في هذا الميدان أحد من شعراء العربية ، فقد اقتحم ميدان الحرب بنفسه ، وكابد أهوالها ، ورأى ببصره وسائلها ودخائلها ، وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه الا الخبراء ، ومن أمثلة أوصافه الحربية قوله مخاطبا سيف الدولة ومعرضا بالروم :

١ — صدمتهم بخميس أنت غرته
وسمهريته فنى وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسمومهم
يسقطن حولك والأرواح تنهزم

والأعوجية ملء الطرق خلفهم
والمشرفية ملء اليوم فوقهم

إذا توافقت الضربات صاعدة
توافقت قلل في الجو تصطدم

وأسلم ابن شمشقيق أليته
الا انثنى ، فهو ينأى وهنى تبسّم
لا يأمل النفس الأقصى لمجته
فيسرق النفس الأدنى ويغتّم
ترد عنه قنا الفرسان سابعة
صوب الأسنة في أثنائها ديم
تخطّ فيها العوالى ، ليس تنفذها
كأن كل سنان فوقها قلم
ألقت اليك دماء الروم طاعتها
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم
يسابق القتل فيهم كل حادثة
فما يصيبهم موت ولا هرم (٣٣)

٢ — وقال في مدح سيف الدولة :

رمى الدرب بالجوّد الجياد الى العدا
وما علموا أن السهام خيول
فما شعروا حتى رأوها مغيرة
قباحا ، وأما خلقها فجميل
سحائب يطرّن الحديد عليهم
فكل مكان بالسيف غسيل
وأمنى السبايا ينتحين بعركة
كأن جيوب الثاكلات ذيول

(٣٣) ص ٢٢٣ — الغم : كثرة شعر الناصية ، الاعوجية : خيل
منسوبة الى أعوج وهو فرس كريم القل : الرؤوس ، أسلم : ترك ،
السوب : الانصباب ، أثنائها : طاقاتها .

تسايرها النيران في كل مسلك
به القوم صرعى ، والديار طول
ورعن بنا قلب الفرات كأنما
تضر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه وجه كل سباح
سواء عليه غمره ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه
وأقبل رأس وحده ، وتليل (٣٤)

٣ — ومن ذلك أيضا قصيدته في وصف القلعة التي بناها سيف
الدولة في بلاد الروم وسماها « الحدث » ومطلعها :
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وفيها يقول :

هل « الحدث » الحمراء تعرف لونها
وتعلم أي الساقيين الغمام
سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى ، والقنا تقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم

(٣٤) ص ٣٥٦ — قباحا : أي بالنسبة لفعلها بهم ، والحديفد :
السيف ، عرقه : بلد بالشام ، الجيب : ما انفتح من القميص على النحو ،
السباح : الغرس ، الغمره : معظم الماء ، المسيل : مجرى النهر ، التليل :
العنسق .

وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي آذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحداث الا التراجم
فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق الا صارم أو ضبارم^(٢٥)

أبن المقرب :

برع كذلك في أوصافه الحربية ، وأتى فيها بصور وأخيلة قوية تدل
على سعة اطلاع ، وخبرة في مضمار المعارك وميادين السلاح ، ومن
أمثلة أوصافه الحربية قوله يصف معارك الملك الأشرف مع الأفرنج :

١ — ويرم يوارى الشمس ريعان نقهه
ويحول قبل الطرف فيه الحملق
وتمشى نسور الجو فوق عجاجة
وتبنى به أوكارهن اللقالق
كأن العجاس عارض وكأنما
به المشرفيات المواضى عقائق

(٢٥) ص ٢٨٥ — فأعلى : أى فأعلاها ، التمائم : جمع تميئه وهى
العودة يتوقون بهامس الجن . الخميس : الجيش ، الجوزاء : نجمان معترضان
فى وسط السماء ، الزمازم جمع زمزمه وهو صوت الرعد ، اللسن : اللفة ،
الحداث : القوم ، لله : كلمة تقال عند التعجب ، الغش : ما يدخل على
المعادن الثمينة ، وأراد به هنا الرجال والسلاح ، الضبارم : الشجاع .

وتحسب من رأى الأسنة أنها
قواذف قذف صوتت وصواعق
وقد أبطل الضرب القسى وألقى
فلم يبق الا ضارب ومعانق
مشى نحوهم مشى السبنتى فداحض
بشكته ، أو طائش اللب زاهق
بنمسل يقول الموت حين يشك
بزوجه من يعلى به : أنت طالق
فصك به الأبطال صكا به التقت
لقاء قلى أقدامها والعناق^(٣٦)

٢ — ومنها قوله :

ومالوا لقذف المان فى أليم بالضحي
وبالليل شارف فى الرحال الحرائق
وأزعجهم من ذاق الجرح بعدهم
بأمس ، وهل يستعذب الموت ذائق
فولوا فمكب على أم رأسه
لدى ذاك لم ينفق وآخر نافق
ومستعصم بالبحر منه وعائد
بأخلق تقبر عن صفاه المطارق

(٣٦) ص ٢٩٨ ، زيمان الشىء : شدته ، والنقع : الغبار ، اللقلق :
طائر ، العارض : السحاب المبتلى . العقيق : خرز أحمر ، السبنتى :
الجرى ، العنقة : شعيرات بين الشفة والذن .

ولم يبق يثنى من غنان جواده
أب لابنه والموت للقوم خافق
فسال دم لو سال في الأرض لاستوى
بها ردغ ، ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
الى الآن من بعد الأقاقي شقائق
فصار نئيمًا ذلك الزأر واغتدت
بغاما لفرط الخوف تلك الشقائق
ولم ينج منهم لج بحر ولا حوت
حصون أديرت حولهن الخنادق
ولا منعت في ملتقاها ملوكها
قرابتها صهب اللحي والبطارق^(٣٧)

٣ — وقال أيضا :

وأقبل ليث الغاب أغنى محمدا
يفتش عن أشباله ويسائل
فقييل له تحت العجاجة دأبهم
طعان العدا في حيث تخفى المقاتل
فأوردتهم صدر الحصان كأنه
بأخذ نفوس القوم بالسيف كافل

(٣٧) ص ٣٠١ — الصفا : الحجارة الصلدة ، الردغ : الوحل الشديد ،
الأتحوان : نوع من النبات ، شقائق النعمان : نبات أحمر الزهر ، النئيم :
الصوت الخفيف والبهام بنفس المعنى ، وشقشيق الجمل : هدر ، صهب
اللحي : فئ لحاهم شقرة ، والبطريق : القائد من قواد الروم .

فطاروا سلالا من أسير وهارب
ومن هالك تبكى عليه الثواكل
ولم يبق الا خائف مترقب
حماما سريعا أو نزيل منازل^(٣٨)

وبالنظر الى أوصافهما الحربية يتضح لنا ما يلي :

(أ) وصف المعارك إدى كل منهما يروج بالحركة والحيوية ، وكأنما
يسمعنا قعقة السيوف وصهيل الخيول •

(ب) كلاهما يدل في أوصافه الحربية على خبرة وتمرس في ميادين
القتال والمشاهد الحربية ، وإن كان المتنبي أصدق تصويرا وأسبق لما له
من باع طويل في هذا المضمار •

(ج) ومن الناحية الفنية نلاحظ أن المتنبي أكثر دقة وتحديدا في
وصفه لمراحل المعركة وسيرها ، وأن ابن مقرب يميل الى التعميم وبيان
الآثار الناجم عن الموقعة الحربية •

٤ — الجزالة والقوة :

إذا كان كل من الشاعرين قد امتاز شعره بالقوة والجزالة وروعة
السبك ، حتى ساغ لنا أن نشبه ابن المقرب بالمتنبي في هذا المجال ، فمما
لا شك فيه أن المتنبي يعتبر أسبق من ابن المقرب في هذا المجال روعة
وقوة وأداء ، وذلك يرجع الى قوة المتنبي وفحولته في الفصاحة والبلاغة
وقربه من عهد الجزالة والقوة •

ومن أمثلة ذلك قوله في المدح :

١ — ذى المعالى فليعملون من تعالى
هكذا هكذا والا فللا

شرف ينطح النجوم بروقيـ
ـه وعز يقلقل الأجبالا
حال أعدائنا عظيم وسيف الـ
ـدولة ابن السيوف أعظم حالا
كلما أعجبوا النذير مسـيرا
أعجلتهم جياته الأعجالا
فأنتهم خوارق الأرض ما تحـ
مل الا الحديد والأبطالا
خافيات الألوان قد نسج النقـ
ح عليها براقعا وجلالا
حالفته صـدورها والعوالى
لتخوضن دونه الأهوالا (٣٩)

ومنها قوله :

نزلوا في مصارع عرفوها
ينـدبون الأعمام والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الهام
وتـذرى عليهم الأوصالا
تذر الجسم أن يقوم لـديها
فتريه لكل عضو مثالا
أبصروا الطعن في القلوب دراكا
قبل أن يبصروا الرماح خيالا

(٣٩) ص ٤٠٩ — النذير : الذى ينذر قومه من الأمر قبل وتوعه ،
خوارق : التى تخرق الصحراء ، الجلال : جمع جل وهو ما تلبسه الدابة
لنصان به .

واذا حاولت طعمانك خيل
أبصرت أذرع القنـا أميالا
بسط المرعب في اليمين يمينـا
فتولوا وفي الشمال شمـالا
ينفض الروع أيديا ليس تدري
أسيوفا حملن أم أغـلالا^(٤٠)

٢ — وقوله في مدح سيف الدولة :

قـاد الجيـاد الى الطعان ولم يقـد
الا الى العادات والأوطان
كل ابن سـابقة يغير بحسنه
في قـاب صاحبه على الأـحزان
ان خـليت ربطـت بآداب الوغى
فدعاؤها يغنى عن الأرسـان
في جـفل ستر العيون غـباره
فكأنمـا يبـصـرن بالأذان
يرمى بها البـلـد البعيد مظفر
كل البعيد له قـريب دان

ومنها قوله :

نظروا الى زبر الحديد كأنما
يصعدن بين مناكب العقبان
وفوارس يحيى الحمام نفوسها
فكأنها ليست من الحيوان

ما زالت تضربهم دراكا في الذرى
 ضربا كأن السيف فيه اثنان
 خص الجماجم والوجوه كأنما
 جاءت اليك جسومهم بأمان
 فرموا بما يرمون عنه وأدبروا
 يطلون كل حنية مرنان
 يغشاهم مطر السحاب مفصلا
 بمهنسـد ومثقف وسنان
 حرموا الذى أملوا وأدرك منهم
 آماله من عاد بالحرمان^(٤١)

ابن المقرب :

تظهر الجزالة والقوة في ثبايا شعره بكل وضوح ، وان كان يغلب
 عليها طابع البداوة والخشونة أكثر من السلاسة والمرونة .

١ — ومن الأمثلة على ذلك قوله :

خليانى من وطاء ووساد
 لا أرى النوم على شوك القتاد
 وارجلا من قبل ألا ترحلا
 فالبلايا كل يوم في ازباد

(٤١) ديوان المتنبي — ص ٤١٦ ، دار صادر — بيروت ، الى العادات:
 أى الى ما تعودته من الغارات ، سابقه : أى فرس سابقه ، والمظفر : هو
 سيف الدولة ، زبر : جمع زبره وهى القطعة من الحديد والمراد بها السيوف ،
 دراكا : متابعا ، الذرى : جمع ذروه وهو أعلى كل شىء ، الحنية : القوس ،
 المرنان : كثيرة الرنين ، يغشاهم : يغطيهم ، مفصلا : يعنى ان السيوف
 والرماح تعمل فيهم هذه مرة وتلك أخرى .

واتركانى من أباطيل المنى
فهو بحر ليس يروى منه صا
وابذلا فى العز مجهود كما
لا يلام المرء بعد الاجتهاد
انما تدرك غايات المنى
بمسير أو طعان أو جلال^(٤٢)

٢ — وقوله فى المدح :

وكان أطراف الأسنة أنجم
شهب وداحى النقع ليل غيب
فى معرك عات الردى فى أهله
فمعفر ، ومضرج ومقضب
ألف الحروب جواده فكانه
من ماء هامات الفوارس يشرب
يهوى انقضا فى المكر كما هوى
لقنينة حجن المخالب أشهب
ما صبحت دارا هوادى خيله
الا وقام الموت فيها يخطب^(٤٣)

(٤٢) الديوان — طبعة الاحساء ص ١٧٦ .

الوطاء : خلاف الوساد ، والوساد : المخذة ، والقناد : شجر صلب له ثوك كالابر . الصادى : من بلغ به العطش مبلغه .

(٤٣) الديوان — ص ٨٧ — القفضية : الشدة والاستئصال ، حجن المخالب : معوجها ، هوادى الخيل : متدماتها .

٣ — وقوله :

وما الفخر الا الطعن والضرب والندى
ورفض الدنيا واغتفار الجرائم
ولف السرايا بالسرايا تخالها
حرار الحجاز أو بحار اللواطم^(٤٤)

٤ — وقوله :

لأطلبين العلا جهدي طلاب فتى
يدوس بالعزم هام السبعة الشهب
فان أنل فبسعبي ما أتيت به
بدعاء والا فقد أعذرت في الطاب^(٤٥)

وبالنظر الى هذا الجانب من شعر الرجلين نخرج بما يلي :

(أ) امتاز شعر الشاعرين بالجزالة والقوة في معظمه ، وظهر ذلك
واضحا جليا في أبيات شعرهما •

(ب) يمتاز المتنبي بالجزالة والقوة حتى في غزلياته ، رغم أن هذا
الغرض يتطلب عادة الرقة والليونة •

(ح) تواءمت الجزالة والقوة مع السلاسة والرقّة في شعر المتنبي
بشكل عجيب ، مما أضفى على شعره كثيرا من العذوبة والجمال •

(٤٤) ص ٥١٢ — اللواطم : الأمواج •

(٤٥) ص ٧٧ •

(د) اعتقد شعر ابن مقرب العنصر السابق في بعض قصائده مما
جمل جزالته تأخذ طابع الخشونة والبداءة •

الخلاصة :

وهكذا يتضح لنا أن تشبيه ابن المقرب بالمتنبى ليس أمرا غريبا ،
فقد حذا حذوه في كثير من معانيه وأساليبه وأغراضه ، وانطبع فيه
بطابع المتنبى في كثير من مظاهره ، وإذا كان لم يبلغ مرتبة المتنبى
فحسبه أنه تعلق به وساماه ودنا منه حتى قرن اسمه باسمه •

الختامة

••• درست فيما مضى حياة ابن مقرب وشعره :

في البداية ألقى الضوء على حالة عصره من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية ، وبينت مدى تأثير ابن مقرب بها ايجابا وسلبا ، وفيما يتعلق بحياته تحدثت عن نشأته وأوضحت قلة المصادر التي بين أيدينا عن هذه الفترة من حياته ، ثم تطرقت في الحديث عن شخصيته وقلت ان أبرز ما تميزت به هذه الشخصية هو الطموح البعيد والهمة العالية ، وتكلمت عن رحلاته وثقافته وأثر الحرمان في شعره •

وفي حديثي عن ديوانه قلت ان تعدد طبقات الديوان ما هو الا دليل على قوة شعره ، وتعلق الناس به مما أدى الى خلوده وصموده لعوامل النسيان •

أما فيما يتعلق بشعره فقد ذكرت أهم الأغراض والفنون التي قال فيها شعرا وحللت هذا الشعر واستعرضت أهم الظواهر التي تميز بها ، ثم أوضحت أن أهم خصائص هذا الشعر هي الجزالة والقوة ، فهو بذلك يصور روح صاحبه الممتلئة بالحماس والثورة والطموح ، ورغم أن هذا الشعر لا يتميز بالعمق في كثير من الأحيان ، الا أنه على كل حال لا يهبط الى درجة السطحية والابتذال •

ونظرا لوجه الشبه الكبير بين ابن مقرب وشاعر العربية الكبير المتنبي في كثير من الجوانب فقد خصصت الفصل السادس من هذا البحث لمقارنة أهم أوجه الشبه بين شعر الشاعرين وخرجت بنتائج لهذه

المقارنة من أبرزها التشابه الواضح في الروح الشعرية بين الشعارين
من ناحية الجزالة والقوة والحماس والاندفاع •

فالى أبناء المنطقة التى عاش فيها ابن المقرب ، والى المهتمين
بأدبها وتاريخها وأحياء تراثها ، والى المكتبة العربية أهدي هذا الجهد
المتواضع عسى الله أن ينفع به ، وهو تعالى من وراء القصد وهو يهدي
السبيل •

المصادر والمراجع

- ١ — الأدب في العصر الأيوبي :
د. محمد زغلول سلام ، القاهرة .
- ٢ — الاعلام :
خير الدين الزركلى — مطبعة كوستا تسوماس — ج ٥ دمشق .
- ٣ — ابن الرومى حياته من شعره :
عباس محمود العقاد — دار الهلال — ١٩٦٩ .
- ٤ — الأدب ومذاهبه :
د. محمد مندور ، القاهرة .
- ٥ — أصول النقد :
د. محمد عبد المنعم خفاجى — القاهرة — مطبعة عيسى الحلبي .
- ٦ — الأدب العربى المعاصر فى الخليج العربى (قسم الشعر) :
د. عبد الله المبارك ، ط القاهرة ١٩٧٣ .
- ٧ — الأدب القطرى الحديث :
محمد عبد الرحيم قافود . ط . القاهرة ١٩٧٩ .
- ٨ — ابن طباطبا الناقد :
د. محمد عبد الرحمن الربيع — الرياض ١٩٧٩ .
- ٩ — أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله :
د. عمر فروخ المكتب التجارى — بيروت .

- ١٠ — البحرين في صدر الاسلام :
عبد الرحمن عبد الكريم النجم — مطبعة الجمهورية — بغداد ،
١٩٧٣ •
- ١١ — البحوث الأدبية — مناهجها ومصادرها :
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د • محمد عبد المنعم خفاجي •
- ١٢ — ابن رشيقي ونقد الشعر :
د • عبد الرؤوف مخلوف — الكويت ١٩٧٣ •
- ١٣ — ابن مقرب — دراسة :
عمران محمد العمران — الرياض ١٩٦٨ •
- ١٤ — النقد المنهجي عند العرب :
د • محمد مندور — القاهرة ١٩٦٩ •
- ١٥ — النقد والنقاد المعاصرون :
د • محمد مندور ، القاهرة •
- ١٦ — التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية :
محمد خليفة النبهاني — ١٣٤٢ هـ •
- ١٧ — التكملة في وفيات النقلة :
(مخطوط) للحافظ المنذري — القاهرة •
- ١٨ — الوسيطة بين المتنبي وخصومه :
للقاضى على بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق : محمد
أبو الفضل ابراهيم ، على محمد البجاوى ، القاهرة — ١٩٦٩ •
- ١٩ — الوافى بالوفيات — للصفدى (مصور) :

- ٢٠ — الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية :
• د بكرى شيخ أمين ، ١٩٧٢ •
- ٢١ — المستدرك على ابن ماكولا :
• لابن نقطة — (مخطوط) •
- ٢٢ — الموازنة بين الشعراء :
• د زكى مبارك — مطبعة المقتطف — القاهرة — ١٩٣٦ •
- ٢٣ — الموازنة بين أبى تمام والبحتري :
• أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى •
- ٢٤ — المتنبى وشوقى :
• عباس حسن ، ١٩٧٣ — دار المعارف ، القاهرة •
- ٢٥ — المتنبى — سلسلة نوابغ العرب :
• د زكى المحاسنى عدد ١٥ دائرة المعارف ١٩٥٦ — القاهرة •
- ٢٦ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده :
• أبو على الحسن بن رشيق القيروانى (جزءان) •
- ٢٧ — القرامطة :
• عارف تامر — دار مكتبة الحياة — بيروت •
- ٢٨ — القرامطة :
• محمود شاكر — المكتب الاسلامى — بيروت ١٩٧٩ •
- ٢٩ — الكامل فى التاريخ :
• أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، (الأجزاء ١٠ ، ١١ ، ١٢) —
القاهرة •

- ٣٠ — الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى :
حافظ أحمد ، دار الفكر العربى — القاهرة •
- ٣١ — ابراهيم ناجى — (الاعلام) :
القاهرة ، د. على محمد الفقى — ١٩٧٧ •
- ٣٢ — جرير — حياته وشعره :
د. نعمان أمين طه ، القاهرة •
- ٣٣ — دراسات فى النقد الأدبى :
د. حسن جاد حسن — القاهرة ١٩٧٧ •
- ٣٤ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر :
د. شوقي ضيف ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ •
- ٣٥ — دراسة فى مصادر الأدب :
د. الطاهر أحمد مكى ، ط ، القاهرة ١٩٧٧ •
- ٣٦ — دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده :
د. محمد غنيمى هلال ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة •
- ٣٧ — ديوان الأبيوردى :
تحقيق ودراسة عمر محمد الأسعد ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ •
- ٣٨ — ديوان ابن مقرب :
تحقيق وشرح : محمد الحلو ، طبعة الاحساء •
- ٣٩ — ديوان ابن مقرب :
طبعة دمشق ، الطبعة الأولى والجزء الأول من الطبعة الثانية •
- ٤٠ — ديوان ابن مقرب :
(مخطوطة مكتبة الاسكندرية) •

- ٤١ — ديوان ابن مقرب :
- (ثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية) •
- ٤٢ — ديوان المتنبي :
- نشر دار صادر — بيروت •
- ٤٣ — ديوان المتنبي :
- شرح عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ، لبنان ، نشر دار الكتاب العربي ١٩٧٩ •
- ٤٤ — زكى مبارك ناقدًا :
- كريمة زكى مبارك ، دار الشعب ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، القاهرة •
- ٤٥ — حصاد الهشيم :
- ابراهيم عبد القادر المازنى ، دار الشروق القاهرة ١٩٧٦ •
- ٤٦ — حول الأدب فى العصر السلجوقى :
- د • محمد التونجى ، بنغازى ، ليبيا ، ١٩٧٤ •
- ٤٧ — لمحات من الخليج العربى :
- د • محمد جابر الأنصارى ، الطبعة الأولى ، ابريل ١٩٧٠ — البحرين •
- ٤٨ — معجم المؤلفين :
- عمر رضا كحالة ، جزء ٧ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٥٨ •
- ٤٩ — معجم الأدباء :
- ياقوت الحموى ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة •
- ٥٠ — معجم البلدان :
- ياقوت الحموى ، الجزء ٦ ، القاهرة •

- ٥١ — من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم :
د. عثمان موافى ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر .
- ٥٢ — مهيار الديلمي ، حياته وشعره :
د. عصام على ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، ١٩٧٦ .
- ٥٣ — مصطفى وهبى التل ، حياته وشعره :
أحمد عطية أبو مطر ، جامعة الكويت ، كلية الآداب ، ١٩٧٤ .
- ٥٤ — نقد الشعر لأبى الفرّج قدامة بن جعفر :
تحقيق وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجى ، نشر مكتبة الكليات
الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .
- ٥٥ — ساحل الذهب الأسود :
محمد سعيد المسلم ، الطبعة الثالثة ، منشورات دار مكتبة الحياة ،
بيروت .
- ٥٦ — على بن الجهم ، حياته وشعره :
عبد الرحمن الباشا ، القاهرة .
- ٥٧ — فصول في الشعر ونقده :
د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .
- ٥٨ — في نقد الشعر :
د. محمود الربيعى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ،
١٩٧٧ .
- ٥٩ — فصول الأدب والنقد :
د. طه حسين ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة .
- ٦٠ — من حديث الشعر والنثر :
د. طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة .

٦١ — تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد :
(الجزء الأول والثانى) محمد عبد الله الاحسائى ، طبعة
الرياض ١٩٦٠ •

٦٢ — تاريخ الأدب العربى :
كارل بروكلمان ، دار المعارف بمصر •

٦٣ — تلخيص مجمع الآداب :
لابن الفوطى (مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة) •

٦٤ — تاج العروس من جواهر القاموس :
الامام محب الدين المرتضى الزبيدى ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ،
١٣٠٦ هـ •

٦٥ — تاريخ الدولة الاسلامية :
المستشرق يوجينا غيانه ، المكتب التجارى ، الطبعة الأولى ،
بسيوت ١٩٦٦ •

٦٦ — تاريخ البحرين العام :
محمود بهجت سنان ، بغداد •

٦٧ — تاريخ الدولة الاتابكية :
أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، تحقيق : عبد القادر طليمات ،
نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ •

٦٨ — شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى :
عباس محمود العقاد ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٥ ، القاهرة •

٦٩ — شعر الحرب فى أدب العرب :
د. زكى المحاسنى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ •

٧٠ — شعراء هجر :

عبد الفتاح محمد الحلو ، الاحساء •

٧١ — قلائد الجمان في شعراء الزمان :

ابن الشعار الموصلی ، (مصور بمعهد المخطوطات العربية
بالقاهرة) •

٧٢ — ذكرى أبی الطیب بعد ألف عام :

عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة •

(المجلات) :

١ — مجلة العربي — أبريل — ١٩٦٠ ، الكويت •

٢ — مجلة انبيان — عدد ٣٧ ، أبريل ١٩٦٩ ، الكويت •

٣ — مجلة العرب — جزء ربيع الأول ، ١٣٨٩ — دار اليمامة بالرياض •

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة
المقدمة	٣

الفصل الأول

عصر الشاعر	٧
— الحياة السياسية	٩
— الحياة الاجتماعية	٢٠
— الحياة الأدبية	٢٨

الفصل الثاني

حياة الشاعر	٣٧
— اسمه ونسبه	٣٩
— ولادته	٤٠
— رحلاته واتصالاته	٤٨
— ثقافته	٥٨
— شخصيته وخلقه	٦٠
— معتقده	٦٦
— وفاته	٧٠
— نبذة تاريخية عن وطن الشاعر وأسرته	٧١

الفصل الثالث

مصادر شعره ٩١

الفصل الرابع

أغراض شعره وتحليلها	١٠١
— تمهيد	١٠٣
— المديح	١٠٥
— الفخر الذاتى	١٥٣
— الشكوى والأثنين	١٦٣
— العتاب والنصح	١٧٠
— الرثاء	١٧٨
— الحكم والأمثال	١٨٦
— الهجاء	١٩٦
— الشوق والحنين	٢٠٣
— الوصف	٢١٠

الفصل الخامس

خصائص شعره	٢٢٣
— الألفاظ والأساليب	٢٢٥
— البديع	٢٢٩
— المعانى والأخيلة	٢٣٣
— أهمية شعر ابن مقرب التاريخية	٢٤١
— مأخذ على شعره	٢٤٦
— آراء النقاد فى شعره	٢٤٩

الموضوع

صفحة

الفصل السادس

بين المتنبي والعيوني	٢٥٣
— حياة الشاعرين	٢٥٨
— الناحية الشعرية	٢٦١
١ — الحكمة	٢٦١
٢ — الفخر بالنفس	٢٦٨
٣ — وصف المعارك	٢٧٥
٤ — الجزالة والقوة	٢٨١
الخاتمة	٢٨٩
المصادر والمراجع	٢٩١

مطبعة الجبل اوى
شارع التسعة الهولاقمة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٤٢٢

